متوالية قصصية

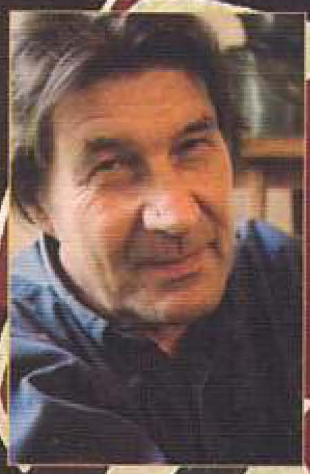

فرانز بارتِل

حانةُ العَادات

ترجمة: عادل أسعد الميري

t.me/qurssan

حانة العادات

تأليف: **فرانز بارتِل**

متوالية قصصية

ترجمة وتقديم:

عادل أسعد الميري

الهيئة المصرية العامة للكتاب
٢٠١٧

t.me/qurssan

مقدمة المترجم

لم يضع المؤلف على غلاف عمله هذا كلمة (رواية). كما أنه لم يضع حتى كلمتي (مجموعة قصصية). فالعمل يجمع بين خصائص كل من هذين الشكلين الأدبيين. قد يكون من المناسب هنا استعمال تعبير (متوالية قصصية) الذي سبق واستعمله عدد من المؤلفين المصريين والفرنسيين. مجموعة من القصص المنفصلة التي يربط بينها عنصر واحد على الأقل. المؤلف هنا يحكي لنا ست عشرة قصة تدور أحداث أغلبها في حانات. لكن أبطال هذه القصص الست عشرة مختلفون. فهو في كل قصة جديدة يقدّم لنا بطلاً جديدًا. كأن البطل الحقيقي في هذا العمل هو المكان. مع ملاحظة أهمية هذه الأماكن في المجتمع الفرنسي المعاصر، فهي أكثر أهمية من المقاهي في مصر، وذلك لأنها غالبًا تجمع بين الرجال والنساء. حانات فرنسا أقرب الى الأندية الثقافية الاجتماعية. الحانات في المدن والقرى الفرنسية، تطلق عليها أسماء عديدة، منها البار إذا كان المكان يكتفي بتقديم المشروبات، أو البيسترو إذا كان يجمع بين المشروبات والمأكولات الخفيفة، أو البراسيري إذا كان المكان يقدّم تشكيلة كبيرة من الوجبات. هذه هي أماكن التجمّع التقليدية للرجال والنساء، خاصة في الفترة المسائية، من كل الأعمار والطبقات الاجتماعية، والانتماءات

t.me/qurssan

الثقافية والوظيفية. لذلك فإن النماذج البشرية التي قدّمها المؤلف في عمله هذا معبّرة بشكل نموذجي، عن التركيبة الوظيفية والاجتماعية والثقافية للمجتمع الفرنسي الحالي، من أكثر الطبقات عوزًا واحتياجًا، طبقة الاس دي اف SDF أي أولئك الذين ليست لديهم مقرّات إقامة ثابتة، إلى طبقة الأثرياء الذين يقضون إجازاتهم السنوية في أماكن سياحية تطير إليها الطائرات خلال عشر ساعات أو أكثر. هذا العمل يقدّم لنا كذلك دراسة نفسية ثرية عن الصراعات التي تدور داخل نفوس الفرنسيين، أو تدور بين بعضهم البعض، بما يتضمّن كذلك الكثير من النقد الاجتماعي، لممارسات خاطئة يتمسّك بها الفرنسيون. كما أن لبعض هذه القصص دلالات فلسفية، مثل أن الإنسان لا يختار أي شيء في حياته.

عادل أسعد الميري

t.me/qurssan

ـ ١ ـ

حانة العادات

كان ذلك الشيء يدعو إلى الإحساس بالقلق والاضطراب. فمنذ خمسة عشر عامًا لم يحضر إلى مقهى (المارونييه) زبون جديد. المنشأة تعمل بعدد محدود من الزبائن الشرّيبة هو فقط ثلاث دزينات (12×3) يتتابع حضورهم في نفس الأوقات المحدّدة لكل منهم على مدار اليوم، منذ لحظة فتح الأبواب إلى لحظة إغلاقها، ويبلغ عدد الحضور المتجمّعين معًا في المقهى ذروته، في نهاية فترة ما بعد الظهيرة. كان (بالمونت) هو الزبون الصباحي، لا يجلس إلى مائدة بل يجلس منفردًا على مقعد مرتفع أمام نضد الشراب، ليسند مرفقيه على هذا النضد الذي تفصل الزبائن عن أرفف زجاجات الخمور، ويقف خلفه إلى الجهة الأخرى منه خادم البار، هناك عند زاوية النضد، إلى جوار زجاج نافذة المقهى، يفرد صحيفته فوق نصف متر مربع من النضد، ويبدأ في القراءة. كان يحتسي قهوة بالقشطة مع قطعتي سكر. منذ خمسة عشر عامًا، خمسة أيام في الأسبوع، قبل أن يذهب إلى عمله، كان يحتسي ذلك الفنجان من القهوة، أثناء قراءته الجريدة اليومية، في زاوية المنضدة، خلف زجاج نافذة المقهى، معطيًا ظهره إلى الشارع. نفس الشيء كل الأيام.

t.me/qurssan

هذا الصباح حدث أن شغل هذا المكان شخص آخر. شخص لم يره أحد من قبل في هذا المقهى. اعتقد (بالمونت) على الفور عندما رآه يشغل مكانه، أن هناك لا شك خطأ ما، خطأ نتج عن صدفة عبثيّة. إن أجسام المجرّات الكونية، تخضع لقوانين دقيقة تنظّم حركتها، ولكن يحدث أحيانًا وعلى فترات متباعدة، خطأ ما، يؤدي إلى انحراف أحد الأجسام الكونية مسافة شديدة الضآلة تقاس بالشعرة، ولمدة قصيرة جدًا قد لا تتعدّى بضع دقائق. ويعرف علم الفلك والأبراج، أكثر منا في هذا المجال. لكل هذا اكتفى (بالمونت) هذا الصباح باتخاذ موقع آخر على النضد، معطيًا ظهره لا للشارع، ولكن لصالة المقهى التي كانت لا تزال خالية في هذه الساعة المبكّرة.

كان يحدث في العادة عندما ينتهي من احتساء فنجان القهوة، ومن طي جريدته اليومية، أن تظهر سيدة عجوز معروفة باسم (أديل) وهي تدفع باب المقهى، ثم تتّجه إلى المائدة الثانية من الصف الأيمن لموائد الصالة وتستقر على كرسي إلى جوارها، وتطلب زجاجة من نبيذ (الموزيل). لم يكن (بالمونت) يعرف عن هذه السيدة أي شيء أكثر من ذلك، لأن صوت هذه السيدة وهي تطلب تلك الزجاجة من النبيذ الأبيض، كان بالنسبة إليه هو العلامة الدالة على موعد مغادرته المقهى. كانت تلك هي اللحظة التي يحرّك فيها رأسه بعلامة التحية، دون أن تكون هذه التحيّة موجّهة إلى شخص بعينه، ثم يغادر المكان دون أن ينطق بكلمة واحدة.

كان صاحب المقهى يعرف كل الأشخاص المتردّدين على مقهاه، ويعرف كذلك مقدّما طلبات كل منهم، ولكنه كان ينتظر دائمًا، ولا يقدّم إلى كلٍ منهم طلبه إلا بعد أن يرفع الشخص صوته طالبًا مشروبه. كانت تلك هي عادته، كما أن لكل شخص عاداته. وهكذا فإن (بالمونت) وكنيته (سردين) كانت له أكثر من أي شخص آخر عاداته. ذكر صاحب المقهى هذه الملحوظة لمن كان إلى جواره، في اللحظة التي رأى فيها ذلك الشخص الغريب، الذي لم يره أحد من قبل في الحيّ، وهو يشغل المكان الذي اعتاد (بالمونت) على شغله. من الجائز أنه أحد مندوبي المبيعات.

t.me/qurssan

كان صاحب المقهى قد شعر بالضيق، عندما رأى (بالمونت) يدخل المقهى هذا الصباح، ليجد مقعده مشغولاً. كان إحساسه بالضيق هو بسبب أنه لم يعرف كيف يمنع الغريب عن شغل المكان المفضّل لأحد أكثر زبائن المقهى إخلاصًا. ولهذا فإنه كردّ فعل لتبرير موقفه، أو لكي يشتّت الانتباه، فقد بدأ على الفور في ملء فنجان القهوة بالقشطة، ليس فقط قبل أن يطلبه (بالمونت)، بل حتى أيضًا قبل أن يضع مرفقيه على الموقع الجديد الذي اختاره من النضد. ثم انحنى تجاهه، بل حتى توجّه إليه بالحديث قائلاً له (هل كل شيء على ما يرام هذا الصباح يا سيّد بالمونت؟). وهو ما حيّر السيد بالمونت المعني بالسؤال، فهزّ رأسه بما يفهم منه أن كل شيء على ما يرام.

في الحقيقة هناك كما لو كان ناقوس قد رنّ في أذني مسيو بالمونت. ففي أقل من خمس ثوان كان جزء من عالمه الخاص به قد انهار. مكانه استولوا عليه. صاحب المقهى قدّم له فنجانًا من القهوة بالقشطة حتى دون أن يطلبها منه. صاحب المقهى تحدّث اليه بصوت مرحّب. نظر السيد (بالمونت) حوله ليكتشف أن كل شيء عدا ذلك كان يسير في مجراه الطبيعي المعتاد. كان هذا هو ما يميل إلى قوله لنفسه. كل شيء طبيعي تماما كالمعتاد. ألقى (بالمونت) بنظرة إلى يساره، حيث كان الغريب مختبئًا خلف جريدته المفرودة صفحاتها أمامه ممسكا بها بذراعيه الممدودتين. (بالمونت) لم يره أبدًا من قبل. مجرّد مرور عابر لرجل غريب. غدًا سيكون الغريب من جديد بعيدًا عن هنا. بذلك سيعود إلى العالم نظامه المعتاد.

في الأيام العادية لم يكن صاحب المقهى من النوع الثرثار. هو رجل ضخم الحجم يرتدي دائما فوق ملابسه مريلة من المشمع الأزرق اللون. لم يكن ينطق بالكاد الا خمسًا وعشرين كلمة في النهار بطوله. لماذا هو اليوم يسلك سلوكًا مختلفًا، ويعسكر أمام (بالمومنت)؟ لماذا هو اليوم يجزّ على أسنانه فيُسمَع لها صوت صرير؟ لم يعرف (بالمونت) ماذا يصنع بنفسه. أثناء تقليبه المعلقة لإذابة السكّر في فنجانه، ترك بصره ينطلق حرًا حوله

t.me/qurssan

في تسكّع غير محدّد الاتجاه، أولاً فيما كان ينبغي له أن يكون الفراغ لولا وجود المريلة الزرقاء. ثم ثانيًا في كل المقهى. في المعتاد فإنه في مثل هذا الوقت أثناء احتسائه فنجان القهوة بالقشطة، كان معتادًا على قراءة جريدته.

توجّه إليه صاحب المقهى بالحديث:

(منذ مدّة وأنا أودّ لو تمكنت من توجيه سؤال إليك، هل أستطيع يا سيّد بالمونت؟)

ردّ عليه بالمونت بصوت منخفض

(بالتأكيد، تفضّل)

(كنت أريد أن أعرف السبب في أن الناس يطلقون عليك لقب سردين؟)

كان قد مرّ على صاحب المقهى خمسة عشر عامًا وهو قلق لهذا السبب. ولكنه فقط الآن هذا الصباح قرّر أن يشبع فضوله. منتهزًا فرصة هذه الهرجلة النسبية غير المعتادة في النظام اليومي، الحادثة الآن على نضد مشربه. لكن في الحقيقة لم يكن (بالمومنت) يعرف لماذا أطلقوا عليه هذا اللقب. هذه الكُنْيَة تعود إلى زمن طفولته. هو نفسه (بالمونت) يتساءل عن السبب الأصلي في إطلاق هذه الكنية عليه. لكن لا أحد كان يعرف، سأل والديه وجدّيه ولم يكن أحد بينهم يعرف. لم يكن هناك أي شخص يعرف. كان قد أطلق عليه هذا اللقب بدافع من قوى خفيّة تتولى هي دفع مجريات الأمور. حدث هذا في طفولته ثم التصق به اللقب في كل مراحل حياته، دون دوافع محدّدة إلا الاعتياد.

(لم يعد أحد على الإطلاق يناديك بالمونت بل الكل يقول سردين)

(هذا صحيح لم يعد أحد تقريبًا يناديني بالمونت)

خلال لحظة تمنى (بالمونت) رحيل الشخص الغريب بسرعة، أو حتى فقط على الأقل أن يطوي الجريدة التي يمسك بها. لم يكن هناك أبدًا أي

t.me/qurssan

شيء يثير الاهتمام حقا في هذه الجريدة. في هذه المقاطعة من الريف الفرنسي تحدث وقائع مهمّة، مثلما يحدث غالبًا في غيرها من المقاطعات، ولكن جريدة مقاطعتنا لا تتحدّث أبدًا عنها. إن الحياة المحليّة هنا في هذه المقاطعة لا تستحق أن تكتب عنها التقارير الصحفية. باستثناء الأحداث المتعلّقة بالرياضة، وبمشاكل الأشخاص المنتمين إلى فئة المحالين إلى التقاعد، وبالتحركات الخاصة بفرق المطافئ النشطة صيفًا لإخماد حرائق الغابات، وبعودة التلاميذ إلى المدارس بعد إجازاتهم السنوية. تظهر كل سنة نفس الأخبار، ونفس المقالات، بنفس الأسلوب، وفي نفس التوقيتات، مثل ما يحدث مع صاحب المشرب، ومع السيدة العجوز (أديل)، ومع باقي زبائن المشرب.

(بالمونت) لم يكن يقرأ الجريدة، الا ليتأكّد من أن الحياة لا تزال مستمرة كما هي، دون مشاكل وحوادث قد تعوق طريق استمرار نسق روتين الحياة المعتاد. كان هذا في الحقيقة داعيًا إلى الإحساس بالاطمئنان. هناك متعة هادئة في أن نرتاح يوما بعد يوم إلى الفكرة القائلة بأن لا شيء يتغيّر، وأن كل شيء باقٍ على ما هو عليه، ولا نحن أيضًا نتغيّر. وبالتالي يمكننا حتى أن نذهب إلى القول بخلود وأبديّة اليومي والمعتاد. فإذا لم يكن هناك أي حدث جديد، فإن هذا يعني كذلك أنه لن يحدث لنا أي شر. هذه هي نتيجة عملية حسابية بسيطة.

إن القهوة بالقشطة كان لها نفس المذاق المعتاد، ولكن كون (بالمونت) يحتسيها لأول مرة في مكان جديد، نتج عنه أن تولّدت في ذهنه أفكار لم تخطر على باله من قبل في الأيام السابقة، وذلك لأنه عادة ما كان ينشغل بالجريدة. ولكن فجأة هذا الصباح، دون أن يكون قد أعدّ نفسه لذلك، ودون أن يخطره أحد مسبّقا، حدث أن تُرِكَ لنفسه. كان لديه الحدْس الكافي الذي أخبره بأن هذا النهار لن يكون مثل كل النهارات السابقة، وبأن تتابع وتسلسل حركاته ومهمّاته سيكون مضطربًا حتى مساء هذا اليوم، وأن هذا الاضطراب قد يؤثّر حتى على مجرى أحداث اليوم التالي،

t.me/qurssan

بل قد يصل هذا إلى صبغ الأسبوع بطوله بشكل ما من أشكال الاعوجاج أو الانحراف، مع تبعات قد تقع حتى على يوم السبت، عطلة نهاية الأسبوع، وربّما أيضًا على يوم الأحد.

ترك (بالمونت) نفسه للطفو بهدوء فوق حلم اليقظة القلق هذا. ولم يكن هناك حتى ما يمنعه من الاعتقاد في أن هذا الغريب قد يعود إلى شغل المكان نفسه في الأيام التالية. يبدو على الغريب انه صلب الرأي عنيد، من نوع الناس الذين يحتقرون تمامًا تراكمات الثقافات المحلية، ويدينون الممارسات طويلة الأمد. كان كتفاه مرتفعتين وشفّته السفلى منخفضة. لم يكن يعير أدنى اهتمام لكل ما يدور حوله. رأسه لم يستدر نحو الباب في اللحظة التي دفع فيها (بالمونت) باب المشرب. أنفه لم يرتفع عن الجريدة عندما وضع (بالمونت) مرفقيه على النضد. أذناه لم تنتصبا لالتقاط الكلمات التي وجّهها صاحب المشرب في حديثه القصير إلى (بالمونت). كان يشرب القهوة السوداء في فنجان صغير مثلما هي عادة أهل المدن.

مقدِّرا أنه قد فعل ما في وسعه وزيادة، لتخفيف الضيق الذي يشعر به زبون قديم، عاد صاحب الحانة إلى التحصّن خلف صمته الاعتيادي. لم يكن ما يحتويه المريلة الزرقاء يشعر بأي قلق: وذلك لأن أصحاب المشارب والحانات قد سبق لهم أن رأوا كل شيء، وإن عاشوا كل التجارب، وبالتالي لم يعد هناك حقًا ما يمكن له أن يحرّك مشاعرهم. ومع ذلك فإنه هو أيضًا يشعر كما لو أن هذا اليوم لم يكن يشبه تمامًا غيره من الأيام. كان مستمرًا في مراقبة (بالمونت) بشكل قد يبدو غامضا، دون أن يصل إلى أيّة نتيجة.

لكنه افترض أن (بلمونت) يشعر بالخيانة، وبأن أحدهم قد سلبه أحد حقوقه. في حديثه الداخلي يراجع صاحب المشرب نفسه قائلاً إنه كاد أن يطلب من الغريب ألا يجلس في المكان في زاوية النضد لأنه محجوز لغيره. لكن بصفته صاحب حانة فهو يضع في اعتباره قبل أي شيء آخر، حرية

t.me/qurssan

حركة زبائن المكان، فلأول من يحضر حريّة اختيار مكانه. وعلى من يأتي بعد ذلك الاختيار بين الأماكن التي تكون ما زالت متاحة أمامه. ولم يحدث أبدًا أن تدخّل في العادات الخاصة بزبائنه. لكنه الآن أمام ملامح الحزن البادية على وجه (بالمونت)، قد يشعر ببعض الندم، لكن ليس إلى الحد الذي قد يجعله يشعر بالحرج بشكل واضح ومحدّد. ثم وضع ذراعيه متقاطعتين فوق صدره.

كان (بالمونت) في حلم يقظة موضوعه زوجته. فإن امرأة متزوّجة من رجل على هذا القدر من النظام والانضباط، يمكنها أن تنظّم حياتها هي الأخرى، وأن تنظم لنفسها حياة مزدوجة محاطة بسياج مثالي متين، وبشعور تام بالأمان، دون أدنى إحساس بالخطر. فبالكاد يكون (بالمونت) قد غادر المنزل، الذي يسكنه مع زوجته في ضواحي المدينة، حتى يكون الجار في السكن، قد انزلق إلى داخل فراشه، ثم إلى داخل زوجته. كان هذا موضوع شك لم يخطر حتى تلك اللحظة بباله قطّ. كان ردّ فعله الأول إزاء شكوك من هذا النوع هو أن يدفعها بعيدًا عنه. كان يعتقد أنه من البله والغباء التفكير في مثل هذا الموضوع.

لكنه مع ذلك ورغما عنه كان يعود بهدوء إلى نفس الفكرة ليضيف إليها أبعادًا جديدة. كان يحاول أن يتخيّل كيف يمكن للأشياء أن تتطوّر، ومن يكون هو بين الجيران، والأصدقاء، والمعارف، ذلك الذي يمكنه أن يحوز إعجاب زوجته. رغم أنه لم يكن هناك بعد التفاصيل التي يمكنها أن تثير الشكوك في سلوك زوجته، أو التي يمكنه أن يعتبرها على قدر من الأهمية، ولكن مع ذلك فهناك أحيانًا في بعض اللحظات بعض التفاصيل التي قد تضع بذرة شك داخله.

في تلك اللحظة، ورد على ذهنه خاطر، كان بالنسبة إليه نوعًا من التعذيب الذي قد يكون مبالغا فيه، ورغم ذلك فهو خاطر تغذّى سريعًا بقدر من الذكريات المبهمة، ومن الرؤى المُلْغِزة، ومن الكلمات الغريبة، كل هذا الخليط جاء إلى ذهنه دون ترتيب، جاء يتخبّط ناهشًا في اللحم الحيّ

t.me/qurssan

لكيانه الحائر. حقيقة القول هي أنه لم يكن يعرف بدقّة في أي شيء كانت تجوس أفكاره. أخذ جرعة من فنجان القهوة بالقشطة، التي أصبحت في تلك اللحظة باردة وبلا طعم. لم يكن يشعر أنه في حالة صحيّة طيّبة. كان الشتاء يقترب من نهايته. لم يكن ضياء النهار قد أصبح قويًا بعد. كان كل الناس الذين يعرفهم حوله يدّعون أمامه أنهم متعَبون. كان الكل ينتظر قدوم الربيع.

انتقل نظر صاحب المقهى بطريقة آليّة إلى الساعة المعلقة على الحائط، ثم تجهّمت نظرته. فهو يعتقد أنه كان على (بالمونت) الرحيل قبل عشر دقائق. ثم نظر إليه ليجد أن هناك علامات توعّك تبدو على وجه زبونه الصباحي، حتى أنه لم ينهِ قهوته الصباحية. كان صاحب المقهى قلقًا على حالة زبونه الصحيّة، وهو شيء طبيعي بعد أن تردّد الزبون على مقهاه لمدة خمسة عشر عامًا. لكن صاحب المقهى لم يذكر لزبونه أي شيء وذلك لأن هذا الصباح يكفيه ما حدث فيه فعلا من ارتباك حتى هذه اللحظة. من ناحية أخرى، يبدو دون أدنى شك، أن (بالمونت) لم يكن هذا الصباح راغبًا في الكلام. يبدو (بالمونت) تائها في قلقه وهمومه.

شعر (بالمونت) كما لو أن الزمن أصبح ثقيلا في مروره. ماذا كان ينتظر؟ هل كان في انتظار وصول (آديل)؟ هو لم يكن واثقًا في نفسه. كان لديه إحساس بأنه بمجرّد خروجه من المقهى سيكون مدفوعًا إلى العودة إلى المنزل. كان يبحث لنفسه عن ادّعاء يمكنه أن يتحجّج به. بالأحرى كان يبحث عن عذر. ماذا ستقول زوجته عندما تراه عائدًا إلى المنزل هكذا في منتصف الفترة الصباحية، وهو وقت لم تكن تتوقّعه فيه؟ وهو ماذا يمكنه أن يقول لو اكتشف أنها في الفراش مع عشيقها؟ كلمة (عشيق) رنّت بشكل غريب في أذنيه، كما لو كانت كلمة غير مألوفة. كانت لديه الرغبة في أن ينطقها مجزّأة، وأن يسمعها وهو يقولها بصوت مرتفع.

ولكن كان هناك صاحب المقهى واقفًا أمامه، وقد ثبّت عليه نظراته التي تجعله يبدو كما لو كان شخصًا مجنونًا. وهناك أيضًا الزبون الآخر

t.me/qurssan

الدخيل. جمع (بالمونت) بين هاتين الكلمتين في ذهنه، كلمة (عشيق) ثم كلمة (دخيل)، وحاول أن يمزج بينهما، محاولا أن يستخلص منهما رموزًا وعلامات، وأن يستنتج بينهما علاقات منطقية. في حين كان الغضب ينمو داخله. لم يكن غضبًا عنيفًا، وإنما كان غضبًا آسفا. وهو ردّ فعل أقرب إلى الجُبْن مما جعله يشعر داخله بالخزي والعار.

في نفس الوقت هو لم يستطع أن يمنع نفسه من الشعور ببعض الدفقات القصيرة جدًا من الغضب. كان متردّدًا. كان يريد أن يستبين حقيقة هذا الأمر. أنصت إلى صوت سعال صاحب المقهى. من الغريب أن صاحب المقهى لم يكن يسعل أبدًا. على أية حال هو لم يسمعه أبدًا وهو يسعل. طوى الرجل الغريب (الدخيل) جريدته. لم يلتفت (بالمونت) أبدًا من قبل إلى صوت طيّ الجريدة. كان يطوي كل يوم جريدته دون أن يلتفت إلى صوت الطيّ. كانت تلك هي اللحظة التي اعتاد أن يلتفت فيها إلى (آديل) العجوز وهي تفتح باب المشرب. رنّ صوت قطعتي عملة معدنيّتين تركهما الغريب فوق النضد. كان الحساب دقيقًا. سحبهما على النضد نحو صاحب المقهى مع كلمة ودودة. في المقابل نطق صاحب المقهى بشيء ما لم يلتقطه (بالمونت). تمكن فقط من ملاحظة أن الصفحة التي طوى الغريب جريدته عليها هي صفحة الوفيّات.

قال صاحب المشرب (هل هي صورة مدام آديل تلك التي نراها في الصفحة؟ هل ماتت؟)

ردّ الغريب (نعم هي ماتت، لقد كانت عمّتي وسندفنها اليوم)

لم يكن صوت الرجل يدلّ على شخص متأثّر بأحزانه. ولم يكن في المقابل هو صوت شخص يتعالى أو يتباعد مدّعيا التأنّق. كانت حادثة. وهكذا فإن هذا اليوم سيظل متفرّدا في تتابع الأيام المتشابهة. أحس (بالمونت) بالارتياح. لم يعد يفكر في زوجته.

قال صاحب المقهى (هل رأيت يا مسيو بالمونت، لقد ماتت مدام آديل)

t.me/qurssan

في هذه اللحظة كان (بالمونت) يفكر في نبيذ لاموزيل الذي اعتادت مدام (آديل) على احتسائه، فهو لم يكن أبدًا قد التفت إلى شكل تلك المرأة. كان فقط يعرف أن لها الصوت المميّز للسيدات المتقدّمات في السن، وأنه كان يغادر المقهى في لحظة طلبها كأس النبيذ من صاحب المقهى. وأن كل ذلك كان يتم بشكل آلي. أو بالأحرى مثل رزنامة حائط.

قال صاحب المقهى (إنها كانت زبونة هنا)

قال ابن الأخ (كنت أعرف)

تحرّك (بالمونت) ثلاث خطوات ليلقي نظرة على صفحة الوفيّات في الجريدة، ليشاهد صورة مدام (آديل). تنهّد كما لو كان قد تمكن من الفرار من خطر عظيم. هناك شيء ما في داخله يقفز من السرور. أخيرًا وبفضل رحمة السماء سيتخلّص من همومه. مدّ يده نحو ابن الأخ، وبصوت مختنق قال له:

(عظيم أيها السيّد، عظيم)

لم يفهم (بالمونت) على وجه الدقّة ما كان للتوّ قد قاله. ثم وجّه بهزّة رأس تحيّة إلى صاحب المقهى كما لو كان يقول (إلى الغد). ردّ عليها صاحب المقهى بنصف ابتسامة حسب عادته.

t.me/qurssan

ـ ٢ ـ

حلم رديء

لم يكن (مالون) يتخيّل، ولا حتى في الحلم، أنه ستكون لديه ذات يوم، الرغبة في قتل زوجته لأنّه كان عاشقًا لها. وكانت درجة عشقه لها لا تزال بنفس القوة بعد عشرين عامًا من الزواج مثلما كانت في اليوم الأول منه. لم يكن هذا العشق قد كلّفه أيّ مجهود. كان يحبّها تلقائيًا وبشكل طبيعي، وذلك لأنه لم يكن يستطيع بخصوص هذا العشق، أن يفعل أي شيء آخر. ثم استيقظ هذا الصباح وفي رأسه فكرة أن يقتلها. لم تكن تلك الفكرة ترتكز على أي شكوى منها أو اعتراض عليها. كانت جوديث تشبع احتياجاته من جميع الأوجه. كانت مخلصة له كزوجة. هل كانت لها بعض المغامرات العاطفية التي لم يجد في نفسه الشجاعة على انتقادها؟ عندما نحبّ امرأة نحبّ كل ما فيها. إخلاصها أو حتى خيانتها. فهي هي نفس المرأة التي نحبّها سواء أخلصت أو خانت. هي لا تستطيع في الحالتين الا أن تكون هي نفسها. كان (مالون) يعشق زوجته بقدر ما يستطيع الزوج عشق زوجته. كل هذا لا يمنع أنه فجأة أحسّ برغبته في قتلها.

t.me/qurssan

كما يحدث كل صباح، أعدّ القهوة، ثم وضع قطعتين من الخبز المستدير في الفرن الكهربائي، ثم وضع عليهما طبقة من الزبد، ثم فتح برطمان المربّى. عندها ظهرت جوديث في المطبخ، فترك لها الوقت الكافي حتى جلست، وقد أعطت ظهرها للفرن المتصّل بأنبوب الغاز، وهو أكثر مكان مريح في المطبخ. أخذ (مالون) نفسًا طويلاً ثم غمغم قائلاً:

(جوديث، هناك شيء أريد أن أقوله لك)

عادة في الصباح لم يكونا يتبادلان الحديث إلا عن أشياء تافهة، كأن يتساءل أحدهما فقط عن مدى عمق نوم الآخر. أو عن أحداث قليلة الأهمية حدثت في الليلة الماضية، كأن تكون دراجة بخارية قد مرّت في ساعة من الليل، محدثة من الضوضاء ما أيقظ احدهما دون الآخر، أو كأن يشتكي أحدهما من آلام في الذراع بسبب وضع خاطئ أثناء النوم.

اندهشت جوديث قائلة (ماذا هناك؟)

قال (اسمعي، ليس من السهل أن أختار الكلمات المناسبة، ولا أعرف بعد كيف أعلن عليك هذا)

سألت (هل هو شيء خطير؟)

قال (نعم رغم كل شيء)

قالت (إذن لا تتركني ثانية واحدة أخرى في حالة الجهل هذه)

قال (انظري، لقد استيقظت هذا الصباح، ولدي رغبة في قتلك، لماذا لا أعرف، ولكنها رغبة حقيقية وقوية جدًا)

قالت وهي مأخوذة بعض الشيء (ماذا فعلت لك؟)

قال (لاشيء في حقيقة الأمر، وهذا هو فعلاً ما يقلقني)

قالت (لقد حلمت بكابوس لم تعد تذكره. في رأيي هذا هو ما حدث لك، حلمت بأنك تقتلني، وقد بقيت الصور في ذاكرتك)

t.me/qurssan

كان ذلك ممكنًا كأحد التفسيرات المتاحة. بدأت (جوديث) في تناول وجبة إفطارها بشهيّة وهي مطمئنة. أنهى (مالون) فنجان قهوته. كان واقفًا ولم يجرؤ على الجلوس. حسب نفسه مريضًا. يكفي أحيانًا أن يتمزّق جدار وعاء دموي في الرأس، حتى تختلط الأفكار الطيّبة مع الأفكار الخبيثة، فتتأثر دائمًا الطيّبة منها بالخبيثة، أما العكس فلا يحدث أبدًا.

في الحقيقة لم يحدث أبدًا أن شغلت عقله أفكار رديئة. كان رجلاً بسيطًا ودودًا مع كل الناس، كريما يقدّم الكثير من الخدمات للجميع، كما أنه رجل مجتهد في عمله. لم يكن من المعروف عنه أيّة نقيصة. لم يكن حتى يراهن على سباقات الخيل. لم يكن يذهب حتى إلى صيد السمك. لم يكن يحب حتى مشاهدة مباريات كرة القدم. لا لم يحدث أبدًا أي شيء من هذا كله، ولم يكن معروفًا عنه إلا الانشغال بدواخله، وبزوجته، وبمجموعته الخاصة من بطاقات البريد التذكارية. لم يكن يشرب الخمر. كان مدخّنا فقط في مرحلة شبابه. لكنه منذ سنوات عديدة لم يلمس السيجارة. ومع كل هذا فهو لم يكن رجلاً مثاليًا. لا يوجد رجل مثالي. لكن كان ينبغي البحث لفترة طويلة قبل أن نتمكّن من أن نعثر له بمبرّر منطقي على نقيصة.

في ذلك اليوم أثناء وجوده في العمل كان في سبيله إلى أن يضع في اعتباره الأوجه العديدة لمشروعه الجديد. حتى زملاء العمل وجدوه في ذلك اليوم مختلفًا عن عادته. في منتصف فترة ما بعد الظهيرة، اتصلت به (جوديث) تلفونيًا لتسأله عن موقفه بعد مرور تلك الساعات من رغبته في قتلها. وحيث إنه رجل يتمتع بقدر كبير من الأمانة، وأنه ليس من اللائق أن يخفي شيئًا عن المرأة التي يحبّها، لم يشعر بأي حرج في أن يؤكّد لها أنه بمرور الساعات منذ الصباح وحتى منتصف بعد الظهيرة، فإن رغبته في قتلها أصبحت أكبر وأكثر وضوحًا مما كانت عليه.

سألته جوديث (بأيّة طريقة تودّ أن تقتلني؟)

t.me/qurssan

قال (لاأعرف بعد ولا أستطيع أن أتخيّل كيف يمكنني قتلك فأنا لم يسبق لي من قبل أن قتلت أحدًا)

قالت (لكن لماذا أنا؟)

قال (هذا هو السؤال، الذي لا أعرف له إجابة، فأنا لدي رغبة شديدة في قتلك، وفي نفس الوقت أحبّك، وأشعر بالسعادة في الحياة معكِ. فإذا قتلتك فهذا يعني أنني أقتل سعادتي. أنا لم أعد أفهم نفسي)

في المساء عند عودته إلى المنزل وجده خاليًا. على مائدة المطبخ وجد أن (جوديث) كانت قد تركت له وجبة عشائه التي يكفي لتسخينها أن يدخلها بضع دقائق في جهاز التسخين بالموجات الكهربائية القصيرة (الميكرو/ ويف).كانت هناك كذلك ورقة صغيرة عليها رسالة قصيرة تخبره فيها أنها ترى أنه من دواعي الحذر أن تعود بعض الوقت إلى منزل والديها. وتعده بأن تتصل به تلفونيًا قبيل موعد فيلم السهرة في التلفزيون.

شعر بأن مغادرتها للمنزل قد جرحته. لم تكن (جوديث) أبدًا مخطئة في أن تحمي نفسها منه. أين هي تلك المرأة التي تقبل أن تقضي الليل مع رجل تعرف أن لديه رغبة في قتلها؟ على كل حال كان (مالون) يشعر أنها أساءت استغلال أمانته معها وصراحته في أن أفضى إليها بمكنون قلبه. كان يمكنه بكل بساطة الاحتفاظ بمكنون قلبه لنفسه. خاصة لأن هذا المكنون لم يكن أكثر من مجرّد فكرة طارئة خطرت على باله. حتى أن تلك الفكرة لم تكن قد تحوّلت بعد إلى مشروع قتل. هو حتى لم يبدأ بعد في الإعداد لخطّة القتل. كل ما في الموضوع أنه شعر فقط برغبته في قتلها.

كان من الممكن أن يستيقظ من نومه ولديه فكرة قتل أي شخص آخر. قتل الجار مثلاً. أحد الجيران المزعجين الذين يتسبّبون في الكثير من الضوضاء. الذين يشعر نحوهم بشكل غامض بقدر من اللوم والمؤاخذة. لكن لم يحدث في أيّة لحظة أن تخيّل أن يراهم يختفون. وبقدر أقل أن

t.me/qurssan

يكون هو شخصيًا مسئولاً بأي شكل من الأشكال عن هذا الاختفاء. إنه من الصعب جدًا أن تحيا ولديك رغبة في قتل شخص ما. تحقّق (مالون) من أن هذا ليس اعتباطيًا بمقدور أي شخص. هو منذ صغره يعتبر نفسه شخصًا اعتباطيًا، وأنه أي شخص. فهو تقريبًا فاشل ودون أيّة موهبة، هو شخص نكرة، قيمته بين البشر دون المتوسط البشري، وهو من النوع الذي يعلن ماضيه المنعدم البريق عن مستقبله المظلم.

اتصلت به (جوديث) في الساعة السابعة مساء. حاولت أن تتحدّث إليه بصوت هادئ مرتاح، ولكنه خمّن توتّرها وقلقها.

سألَتْه (ماذا فعلت لك؟ هل فعلت شيئًا أغضبك؟)

أجابها (لا طبعًا، لم يحدث أي شيء)

ثم كرّر عليها ما سبق أن قاله لها في اتصال ما بعد الظهيرة. ثم دون أن يلومها على حذرها منه الذي أدّى إلى ابتعادها عنه وتركها شقّة الزوجيّة، وصف لها مشاعر الألم التي اجتاحته، عندما اكتشف خلو المنزل منها.

صارحته قائلة (خشيت أن تنزلق إلى الفعل، وفكّرت في هذا طوال النهار، ورأيتك وأنت تخنقني أثناء نومي، أنا أعرف أنك لست بقادر على إتيان فعل كهذا، اعذرني ولكني ارتعبت، من المؤكد أنني تصرّفت بشكل خاطئ)

قال (ليس تمامًا يا جوديث، ربّما تكونين محقّة في وجهة نظرك، ربّما أكون خطرًا عليك في الوقت الراهن)

قالت (أنت لست بقادر على أذيّة ذبابة)

قال (لم تكن لدي أبدًا أدنى رغبة في قتل ذبابة، هذه هي المشكلة. فلو أنّك كنتِ ذبابة لبقيتِ في أمان إلى جواري. تنقصني الكلمات حتى أشرح

t.me/qurssan

لكِ مشاعري. كما لو أنه كان هناك صوت بداخلي يتحدّث إليّ، ويطلب منّي أن أقتلك. هذا الصوت أسمعه دون توقّف طول الوقت. يكرّر لي أنه من الأفضل أن أقتلك)

قالت (سينتهي بك الحال إلى أن تطيع هذا الصوت)

قال (هل هذا هو ما تعتقدينه؟)

قالت (إن هذا هو ما أنا مضطرة إلى الاعتقاد فيه. يجب أن تفهمني. أنت تقول لي أشياء حقًا مقلقة جدًا. وأنا أشعر بالضياع بسبب تلك المسألة. ولم أعد أعرف ماذا يجب عليّ أن أفعل)

لم يكن محتاجًا إلى من يقنعه بأنها على حق في تفكيرها بهذه الطريقة. كان هذا هو ما يقوله لنفسه بشكل موضوعي. هي محقّة فعلاً إذ كان من الممكن له أن يقتلها في هذا المساء نفسه. ولم يكن حتى سينتظر إلى هذه الليلة. بمجرّد استقبالها له عند عودته من عمله، كانت ستُقْتَل. كان يفكّر في هذا الموضع طوال طريق عودته من العمل. كان يفكّر فيه أثناء صعوده درجات سلّم المنزل. كان يفكّر فيه أثناء إدخاله مفتاح الشقة في قفْل الباب. عندما وضع قدمه في ممر مدخل الشقة، رأى نفسه أنه يقترب تمامًا من تحقيق الهدف، أنه يقترب تمامًا من اللحظة التي يتخفّف فيها من الأحمال. لحظة الارتياح والتخلّص من الأوجاع. كان سيقتلها. لم يكن لديه ما يفعله أفضل من ذلك. كان يجهل حتى تلك اللحظة الأسلوب الذي سيستعمله في القتل.

ولكن حيث إنه كانت لديه نيّة قتلها، فإن الفكرة الخاصة بأسلوب تنفيذ القتل كانت ستأتي حتما وحدها، كانت ستَنْبُت في رأسه بالضرورة. هذه الأشياء تأتي وحدها دون أن تحتاج إلى أن نستدعيها. هذه الأشياء تأتي عبر الظروف والملابسات، أثناء التحرّكات الخاصة بالموقف. فهناك مثلا القتل باليد العارية دون أي سلاح. أو هناك القتل بتضييق الخناق على

t.me/qurssan

الرقبة باستعمال وشاح رقبة. أو بتحطيم الجمجمة باستعمال مقعد خشبي أو تمثال صغير من الحجر الصلب. أو الإمساك بسكّين كان متواجدًا بالصدفة على المائدة. أو الضرب بقبضة اليد حتى الموت. أو الخنق بالضغط على الرأس باستعمال مخدّة النوم. أو بالإغراق في مياه حوض الاستحمام. لم يكن يفكّر بالتحديد في وسيلة واحدة من بين كل تلك الوسائل. لكن كل ما كان يراه حوله في المنزل، حتى الأغراض والأشياء الأكثر براءة، كانت توحي إليه بالكيفية التي ستتحول بها إلى أداة قتل.

سألته جوديث (هل ستستطيع أن تقاوم رغبتك تلك؟)

بمنتهى الأمانة كان من المستحيل عليه أن يجيب على هذا السؤال. لكن كان يبدو له أحيانًا أنه يمكنه أن تكون له القوة لمقاومة تلك الرغبة. لكن تلك القوة مهما كانت حسنة النيّة، ليست بمأمن من انخفاض حاد مفاجئ في النظام، ليست بمأمن من الحوادث العارضة. في النهاية حسنًا فعلت (جوديث) بمغادرة المنزل.

قالت (بشكل مؤقّت)

حتى يمرّ الوقت الكافي لكي يعيد النظر في أفكاره. كان من السهل عليه إدراك كم كانت خائفة. ليس لأن صوتها كان مرتجفًا. لكن لأنها كانت مترددّة، تبحث عن كلماتها، بل إنها حتى تلعثمت، ثم إنها استعملت طبقة صوت منخفضة على غير عادتها. كان حزينًا أن يعترف بينه وبين نفسه، بأن زوجته تتألّم بسببه. كانت مشاعر الحزن تلك أكبر من المشاعر الموجودة داخل الرغبة في القتل. مرّت الليلة و(مالون) غير مرتاح. عندما استيقظ بعد بضع الساعات من النوم المضطرب، لم يدرك على الفور أن (جوديث) كانت قد عادت أثناء الليل، وأنها نائمة على نفس الفراش إلى جواره. كانت رأسها مضغوطة أسفل وسادة الفراش. بدأ يرتجف لأنه أدرك أنه ما زالت لديه الرغبة في قتلها.

t.me/qurssan

كانت تلك الرغبة الآن أقوى وأكثر سيطرة عليه مما كانت حالتها بالأمس. كان يفضّل لو كان قد مات أثناء الليل، بدلاً من الاحساس الذي طغى عليه الآن، بسيطرة الرغبة في القتل، التي يشعر أنه لن يستطيع مقاومتها طويلاً. تعجّل القيام من الفراش ومغادرة حجرة النوم. أغلق على نفسه الحمّام، وأغرق رأسه تحت تيار الماء البارد. ما كان على (جوديث) أن تعود اليوم. كان قد شعر نحوها ببعض الغضب عندما علم بذهابها إلى منزل والديها، ولكن بعض العقل السليم الذي احتفظ به، قال له إن ذهابها إلى منزل والديها هو التصرّف المناسب، إذ لم يكن لديها أي حلّ آخر. لكن لماذا إذن عادت؟ أثناء الليل. لم يفهم تصرّفها هذا. ربّما حدث بعد مكالمتهما التلفونية أن قدّرت أنه لم يعد هناك خطر كبير. هي تعرفه جيدًا ولذلك اقتنعت أنه غير قادر على الانقياد للعنف.

ورغم الإغراء بأن يذهب إليها ليسألها عن تفسير سبب وجودها فإنه رفض أن يفعل. من المؤكد أن الليلة كانت مؤلمة بالنسبة لها. لذلك فضّل أن يتركها تستريح في سلام. ارتدى ملابسه وذهب إلى عمله دون حتى أن يحتسي قدح القهوة. عندما وجد نفسه في الشارع، استدار وعاد ليصعد جزءا من السلّم جريا. استولت عليه من جديد وبشكل أقوى الرغبة في قتل (جوديث). لم يعد يفكر في أي شيء آخر. عندما وصل إلى عتبة باب شقته، خرج أولاد الجيران للذهاب إلى المدرسة. حيّوه بمرح قبل أن ينزلوا مسرعين درجات السلّم. كان حدوث هذا كافيا ليخلق لديه قدرًا من التشتّت، الذي حوّله عن رغبته في قتل (جوديث).

ترك مفتاح شقته ينزلق في جيب معطفه، واتخذ من جديد طريقه إلى عمله، وروحه تشعر بقدر من الخفّة. مشي بخطوات واسعة. ذلك أن الموضوع يتعلّق بالابتعاد مسافة كبيرة قدر الإمكان، عن الخطر الذي أصبح يمثّله هو نفسه من الآن فصاعدًا تجاه زوجته، التي أصبح يعرف أين يجدها وأين يقتلها. قرر أنه أثناء النهار سيتصل بها تلفونيًا. سيترجّاها أن تعود إلى والديها. سيعدها بأن يستشير طبيبًا. اليوم يمكن أن تعالج كل

t.me/qurssan

الأمراض، بما فيها أمراض الحساسية والأفكار المسبّقة الثابتة التي تتحكّم في الأشخاص. يوجد لكل سؤال جواب، ولكل داء دواء، مهما كان الاختلال في أجسام الأحياء.

لم يكن لديه الانطباع بأنه مجنون. فالجنون لا يأتي بين عشية وضحاها. بل تسبقه كميات من العلامات المنذرة. نحن لا نستيقظ ذات صباح نعاني من الجنون. بعد أن نكون قد عشنا طبيعيين لمدة أربعين عامًا. كان قد ظهر دائمًا كواحد من أهدأ الرجال. لم يكن أبدًا يغضب. كان نموذجًا للتوازن والصفاء الذهني والسيطرة على الذات. ومن الحكمة كذلك. تمكن من تمييز حدوده. على العكس من عدد من معاصريه، الذين يفسدون حيواتهم، وحيوات أولئك المحيطين بهم، بمتابعتهم لطموحات لن تسمح لهم إمكانياتهم بتحقيقها. التعساء. هو لم يطلب أبدًا من نفسه تحقيق المستحيل. هو ليس حسودًا وليس غيورًا. كانت حياته تكفيه وترضيه. لم تكن لديه أبدًا مشاكل. على الأقل حتى صباح الأمس. عندما استيقظ ولديه رغبة في قتل جوديث. فكرة مخيفة. فكرة لم يقبلها.

لكنه رغم ذلك كان يعرف أنه سيقتلها. فإذا لم يحدث هذا اليوم فهو سيحدث غدًا. فإذا لم يحدث هذا غدًا فهو سيحدث بعد غد. هو سيقتلها لأنه يجب عليه وجوبًا مطلقًا أن يقتلها. لأن رغبته في قتلها تتعدّى بمراحل قوة إرادته. رغبته تغبّش قدرته على حسن التقدير. هي تفرض نفسها بقوة. هو لم يعد يرى إلا هذه الرغبة. الشارع الذي يصعد فيه إلى المحطّة يأمره بقتل جوديث. تعيد السماء ما سبق وأن قاله الشارع. كانت هناك إعلانات تجارية وأشجار وأرائك للجلوس في الشوارع وموائد في المقاهي كانت كلها تحثّه على قتل جوديث. وكان هو يعتقد أن السماء والشارع وأرصفة المقاهي والأشجار كلها مُحِقّة. كان ينبغي قتل جوديث. كانت هذه الحقيقة واضحة وضوحًا حاسما لا يتزعزع.

t.me/qurssan

كانت تتبقّى لديه ذرّة من ضمير. ليست كافية لمنعه من قتل جوديث. لكن ربّما كانت كافية لتأجيل موعد التنفيذ. وحيث إنه كان يمر أمام محطّة القطارات، فبدلا من التوجّه إلى موقف الباصات، وهو ما كان يفعله في نفس هذه الساعة كل يوم خلال العشرين عامًا الماضية، دخل إلى بهو المحطّة ونظر في جدول مواعيد مغادرة القطارات، وأخذ تذكرة في قطار يغادر إلى باريس، ووصل إلى رصيف القطار. في لحظة وصول القطار السريع إلى الرصيف. قذف بجسمه أمام مقدّمة القطار الذي قطعه إلى نصفين متساويين. وفقًا لتقرير الطبيب الشرعي. كل الناس اعتقدوا أنها حادثة. وجود تذكرة قطار في جيبه كان دليلهم إلى استبعاد فكرة الانتحار. دليلهم على نيّة مغادرة المدينة إلى باريس. خاصة أن أهل المدن الجنوبية - رغم ارتفاع مستويات المعيشة - ظلوا معروفين ببخلهم وتقتيرهم فيما يتعلق بثمن تذاكر وسائل النقل العام التي يتجنّبون دفعها إلا إذا كانوا مضطرين.

عندما أرادت الشرطة إخطار الأسرة، وجد رجالها بابًا مغلقًا في عنوان السكن الذي تحمله بيانات البطاقة الشخصية للمتوفّى. أكد الجيران للشرطة أنهم رأوا الزوجة مساء اليوم السابق. وأنها لم تخرج من الشقة منذ ذلك الحين. جيء بمتخصّص في أقفال البيوت. اكتشفت الشرطة وجود جثة جوديث فاقدة الحياة. كانت قد ماتت مخنوقة. تعود لحظة الوفاة - وفقًا لتقرير الطبيب الشرعي - إلى حوالي الساعة الثانية صباحًا. حين تمّ إخطار والدي جوديث اللذين يقيمان في الطرف الآخر من فرنسا، قالا إنهما لا يفهمان ماذا حدث. وفقًا لهما فإن ابنتهما و(مالون) كانا يكوّنان نموذجًا لزوجين دون مشاكل. لا شكّ في أنهما كانا متحابين. كانا قد ذهبا في زيارة إلى والدي جوديث بمناسبة إجازة عيد الفصح الأخير، ولم يكن هناك ما يشير إلى وجود أي مشاكل بينهما. أقسمت الأم على أنه لو كان هناك أدنى شك، لتحدّثت إليها به الابنة. لم

t.me/qurssan

تكن الأم تجد أي تفسير. لم ترغب في تصديق الخبر. بدأت هنا في البكاء وحاول رجل الشرطة مواساتها. لكن لم يكن هناك أي عزاء للأم. اعتقدت الأم أنها نائمة تحلم حلمًا رديئًا. طلبت الأم من رجل الشرطة بالحاح أن يوقظها من نومها. طلبت منه أن يقول لها إنها فقط في سبيلها إلى المعاناة من حلم رديء. وأنها عندما يوقظونها ستجد أن كل شيء على ما يرام. ولكن هيهات.

t.me/qurssan

ـ ٣ ـ

حلّ عليّ الدور

بمجرّد دخولها إلى المشرب، أدركت (ناديج) أن هذا الرجل هو رجل حياتها. رغم أن عددًا كبيرًا من الرجال قد دخل إلى هذا المقهى خلال أربعة أعوام، أي منذ أن بدأت تعمل في تقديم البيرة إلى زبائنه. رجال من كل صنف، ومن كل الأعمار. من بينهم من كان قويّ البنية، ومن بينهم من كان وسيم الشكل. بعضهم كان خجولا. بعضهم كان مثقفًا من رجال الفكر. ولم يكن لقاؤها بأيٍ منهم قد نتجت عنه الحالة الشعورية التي هي عليها الآن. هنّأت نفسها على ذهابها إلى مصفف الشعر البارحة، وعلى ارتدائها تنّورتها الجلدية، وعلى استعمال حذائها ذي الرقبة المرتفعة والكعب العالي. بذلك كان لها مظهرها المتألّق. (مثيرة جنسيًا) كما كان بعض زبائن المقهى الطيّبين يقولون.

ثم فجأة شعرت بأنّها لم تعد لديها نفس ثقتها بنفسها، التي كانت للتوّ تشعر بها. فالرجل يقول (صباح الخير) لكل الناس. هو إذن رجل مهذّب. ارتجفّت قليلاً، ولم تعد تجرؤ على النظر اليه لتفحّصه، بنفس الدرجة الواضحة من حب الاستطلاع. لم تعد بالمثل تجرؤ على أن تسأله (ماذا

t.me/qurssan

تريد أن تشرب؟)، فهي صيغة سوقيّة مبتذلة. يمكن بالأحرى الاحتفاظ بها للزبائن المعتادين اليوميين. اكتفت في اللحظة الحالية بالنظر إليه وهو يجلس على المقعد المرتفع الموجود في صف المقاعد أمام النضد. ثم وهو يضع حقيبة وثائقه أمامه على النضد. كان يتصرّف بهدوء وبطء، مثل أي رجل جديد قادم من بعيد. ابتسمت ولكن ليس بالطريقة التي اعتادت عليها. فالمخمورون المعتادون غالبًا ما يشجّعون فتيات الخدمة في المشارب على التصرّف بطريقة سوقية، وعلى استعمال لغة مبتذلة توحي بأخلاقيات فاحشة. لكنها اليوم تريد أن تبدو أقل إيحاء لزبائنها مما توحي به عادة طبقًا لتلك الصورة التقليدية.

قال الرجل (كأس بيرة)، وهو ينظر إلى يديه المتقاطعتين على النضد أمامه، خافضًا بصره. لم تجد (ناديج) الكلمة المناسبة، التي يمكن لها أن تعبّر عن رغبتها المخلصة الحييّة في الانصياع لخدمته. لكن دبّت فيها روح من الانتعاش والحيوية لخدمته عن طيب خاطر. دبّ فيها كذلك قدر من الإحساس بالسعادة. قدّمت له كأس البيرة. دفعت الكأس نحو يديه. نحو أصابع يديه الطويلة الرشيقة التي لا يبدو فيها أي خاتم يدلّ على ارتباطه. في نفس الوقت كانت تبحث عن حجّة لبدء حوار معه. لم يكن الحديث في موضوع الجو المصاحب لهذا الفصل من العام مناسبًا، وذلك لأن الجو هذا العام كان معتادًا في مثل هذا الوقت من العام. لم يكن من المناسب كذلك أن تلقي عليه أسئلة شخصية مباشرة. شعرت بقدر من اليأس بسبب عجزها عن بدء الحوار. ذهبت إلى أقصى طرف النضد وقلّبت صفحات مجلّة من المجلات الموجودة دائمًا في ذلك المكان.

لم تكن تقرأ وذلك لأن هذه القصص المتعلقة بنجوم الغناء والتمثيل أصبحت الآن تجعلها تشعر بالملل. ففي سن الثلاثين كانت لديها رغبة في أن تعيش حياتها. هي تتعفّن ببطء في هذه الحفرة على حافة مجرى القناة المائي، هذه الحفرة المسمّاة حانة، وهي مجرّد ثقب في الأرض. هي لم تكن تشكو أبدًا فالمهنة جيّدة. والمكسب المادي لا بأس به. وصاحب الحانة يثق

t.me/qurssan

بها. هي تقريبًا لم تكن تراه أبدًا. فكل ثلاثة أو أربعة أيام يحضر المحاسب (مسيو تِبات) لتحصيل الدخل. يراجع الفواتير، ويجري بعض الحسابات، ثم يوقّع ويضع ختم مكتب المحاسبة، ويلقي نظرة على حجرة مخزن زجاجات الخمور. كان كل شيء دائمًا في حالة من النظام التام. لم يكن هناك سنتيم واحد في غير مكانه. لم تكن هناك عبوّة بيرة معدنية واحدة في غير مكانها. كانت (ناديج) تفخر بدقة حساباتها.

انفجرت مائدة المخمورين بالضحك الذي هزّهم جميعًا. كانوا جميعًا متقدّمين في السن، هؤلاء المعتوهين، ولكنهم كانوا يتسلون بدعابات تليق بطلبة المدارس الثانوية. أدار زبون النضد رأسه نحو (ناديج). هذه الأخيرة رفعت كتفيها مقتربة منه، ثم قالت له بصوت منخفض ولكن دون ملامح احتقار على وجهها (لا تلتفت إليهم مسيو، لأن الناس هنا في هذه المناطق ليسوا متحضّرين تمامًا). اختلس الرجل نظرة إليهم ثم تصرّف كأنه يفهم كل شيء. انتهزت (ناديج) فرصة ذلك النوع من التواطؤ المفترض بينهما، وعادت إليه في وضعية المواجهة، وقد وقفت خلف مضخة مكبس جهاز ضخّ البيرة. نفخت صدرها. كان لديها ما ينبغي أن يكون لامرأة جديرة بهذا الاسم. في بعض الأمسيات كانت بعض الأيدي المخمورة تمتدّ إليها. لم يكن أصحاب تلك الأيدي بقادرين على مقاومة الإغراء. كانت في العادة تحتجّ لكن دون عنف شديد. كان يمكنها أن تفهم الدوافع.

قالت (أنت لست من هذه المناطق)

شعرت فجأة بأن الكلمات تهرب منها. في نفس اللحظة شعرت بالندم وبالرغبة في لوم النفس. وضعت يدها اليمنى في الحوض الذي تغمره المياه الباردة لعلها تفيق وتعود إلى الواقع. بدا لها في الحقيقة كما لو أنها قد تملّكتها الحمّى، التي قد لا تصل في الوقت الحالي إلى درجة الوله التام، لكنها لم تكن بعيدة عن الاعتقاد أن الموضوع في الحقيقة هو وله تام، أو شيء قريب الشبه جدًا من الوله التام.

t.me/qurssan

ثم وكأنها أرادت أن تمحو الكلمات التي كانت قد نطقت بها للتو، قالت (لا أريد أن أكون متطفّلة، ففي هذه المناطق، يعرف كل الناس بعضهم بعضًا، خاصة أولئك الذين يلتقون في حانة، يعرفون جميعهم بعضهم بعضًا، وبدافع من الملل يحب الجميع الثرثرة. اعذرني)

هزّ الرجل رأسه. ثم كانت له ابتسامة بدت حزينة. وهي كانت تعشق الرجال الحزانى. بالنسبة إليها الرجل الحقيقي يجب أن يكون حزينًا. ولكن ليس حزينًا تمامًا. لا ليس مثلا إلى درجة الاكتئاب. هي قد عرفت رجالاً يبكون في كؤوس البيرة، وتسيل دموعهم فوق قصدير النضد. أولئك الذين لا يملّون أبدًا من الشكوى. هؤلاء الرجال غير الحقيقيين يكونون مصادر ألم مثل جراح مفتوحة. ولكن رجل حقيقي حزين هو شيء آخر. إنه رجل يبحث عن العزاء في عاطفة تكون عادة أكثر نُبْلاً. سبقت لها مشاهدة عيّنات من هذه النوعية من الرجال في بعض الأفلام السينمائية. الرجال الذين تسيل الدموع على خدودهم في الوقت الذي يكونون فيه يمارسون الحب مع السيدات اللائي أحبّوهن أكثر من أي شيء آخر في حيواتهم. كم يبدو هذا جميلاً. الرجال الذين يرون سيدات حيواتهم يبتعدن في قطار أو على دراجة، ثم تفرّ الدموع من عيونهم. كانت هذه هي نوعية الصور التي اعتادت على بعثرة كيان (ناديج). لم يحدث لها مثل هذا إلا في الأحلام. هنا وهي وحدها في هذه المناطق الريفية التي تقسمها القناة إلى جزءين. كان الحلم هو أن تصبح ذات يوم امرأة حياة رجل حزين. أن تعيش قصة حب جميلة. وليس من الضروري أن تتبعه إلى آخر الدنيا، أو أن تستقر معه في المدينة، كما يحدث عادة في الروايات. لا ولكن يمكنهما أن يسكنا عندها، حيث تستأجر بيتًا صغيرًا على بعد أقل من كيلومتر واحد من الحانة. ليس بعيدًا عن محطة القطارات. البيت محاط بألف متر من الخُضرة والزهور والأشجار. البيت محاط بجنّة صغيرة.

لم تستطع أن تحجم عن سؤاله (هل أنت تمرّ مرورًا عابرًا بالمنطقة؟)

t.me/qurssan

لم تكن لديه رغبة في الإجابة. لم تكن تتوقّع هي الأخرى أن يردّ. كانت تتكلم فقط لمجرد أن تقول أي شيء. أعطت لنفسها الحق مرة أخرى في سؤاله. هذه المرة سألته إن كان يعرف المنطقة. تولّد لديها الانطباع أنه رفع كتفًا واحدة، ثم ابتسامة ثانية حزينة. هذه الابتسامة لم تكن تتعلق إلا بها. تخصّها هي وحدها. كان بامكانها في هذه اللحظة أن تقفز عليه وأن تفرقه بقبلاتها. وأن تهمس إليه بأسرارها. كلمات لم تقلها أبدًا من قبل لأي شخص. ذابت وهي واقفة في مكانها. تحوّلت إلى سائل. إلى حد الإحساس بالألم. تكتب الجرائد أحيانًا عن الوقوع في الحب من أول نظرة. مثل الصاعقة الساقطة من السماء تضرب الشخص في لحظة. لم تعتقد أبدًا أن هذا جائز الوقوع في الحياة الحقيقية. يجوز أن هذا يحدث في فيلم سينمائي. في الجرائد أيضًا يمكن لهذا أن يحدث فالجرائد هي الأخرى مثل السينما. لأنه ينبغي على الصحافيين أن يضعوا الكثير من الحبر على الأوراق. لكن في الحياة الحقيقية يكون الناس مفرطين في العادية. في الحياة العادية لا تقع للناس إلا مغامرات عادية.

قال الرجل بابتسامة حزينة (أنا المحاسب الجديد).

شعرت بأن القدر يتدخّل ليلعب لعبته. هذا الرجل لم يكن يمرّ مرورًا عابرًا. فإنه سيعود ليمرّ عليها كل ثلاثة أيام كما كان مسيو (تِبات) يفعل. وهكذا فهي ستراه من جديد مرات عديدة. وبالتالي فستكون لديها مرات قادمة لا يمكن أن تحصى عددها لتجرّب فيها حظّها معه. كان هذا رائعًا.

قالت (لقد أعددت لك كل شيء كالمعتاد. لكن هل حدث مكروه لمسيو تِبات؟).

قال (لا لم يقع له أي مكروه اطمئنّي).

قالت (لقد رأيته الأسبوع الماضي، ولم يقل لي شيئًا عن غيابه).

قال (لقد حدث هذا سريعًا).

t.me/qurssan

كان صوته على درجة استثنائية من الرقة. حتى أن (ناديج) ترنّحت. لقد تطوّرت القصة إلى أن تصبح أسطورة جنيّات من تلك التي تحكى للأطفال. لم ترد أن تأمل في أي شيء. ولكنها شعرت أن حياتها تأخذ منحىً جديدًا.

قال الرجل (في الواقع فإن مسيو تِبات أصبح مديرًا للمجموعة، وقد كلّفني بأن أخبرك، بأن هذه الحانة قد بيعت، وأن الملاّك الجدد سيضعون أيديهم عليها في نهاية الأسبوع القادم).

غمغمت (ناديج) وهي على وشك أن تفقد توازنها (لم أسمع أبدًا بهذا، ولم يأت أبدًا أحد لزيارة الحانة واستطلاع إمكانياتها).

قال الرجل (إنه الموقع الذي أثار إهتمامهم، فهم سيزيلون الحانة. وقد جئت لأبلغك بالاستغناء عنك. أريدك أن تطمئنّي فقد قررنا تعويضك بمبلغ مناسب، صدقيني لن تُغْبَني حقك).

ثم بدأ في فتح أقفال حقيبة مستنداته. كانت حركاته رشيقة ومحدّدة. كان صوته على الدوام من النوع الهادئ الذي يدل على احترام صاحبه لمن يتحدّث إليه. صوت من النوع الذي يحضّ على الوقوع في الحبّ. فَرَدَ أمامه على النضد بعض الأوراق التي تبدو كما لو كانت عقود عمل.

همست بطريقة بدا عليها القلق (وأنا ماذا سيكون مصيري؟)

قال (مصير جميل بنفس درجة جمالك. وبما أن لك كل تلك الخبرات التي يشير إليها ملفك الوظيفي، فلن تكون لديك أية مشكلة للحصول على عمل جديد. وفي حالة احتياجك إلى مساعدة، من الطبيعي أن نساعدك، وقد أبدى مسيو تِبات التزامه بذلك)

قالت (كان هذا المكان يروق لي كثيرًا).

قال (الدنيا تتطوّر يا آنسة، وعلى الشركات أن تتأقلم مع التطوّرات).

قالت (كنت أحقق الكثير من المكاسب).

t.me/qurssan

قال (ليست هذه هي المسألة).

قالت (والزبائن؟).

قال (سيذهبون إلى أماكن أخرى وسيتأقلمون عليها).

كانت قد أدركت منذ اللحظة الأولى لهذا الحوار، أنها بشكل عام، تناقشه وتطيل الحوار، بغرض الإنصات إلى صوته. كان هذا شيئًا مهمًا بالنسبة إليها. كان شيئا لطيفا محببًا. كان يتحدّث إليها وحدها. ورغم أنه كان يقول لها (لقد فصلتُكِ من العمل)، فهي لم تفهم إلا أنه كان يتحدّث إليها وحدها. يتحدّث إليها شخصيًا بصوت لطيف حنون. بصوت مشحون بالعاطفة، كما لو أنه كان قد قال لها (لقد أحببتُكِ) كما لو أنه فعلاً قد وقع في هواها. كان هذا بالنسبة إليها واضحًا إلى حد الجنون. كان هذا سحريًا كما يقال في الإذاعات. ليس هذا إلا السعادة المطلقة كما يقول المحبّون في كل مكان.

قالت (كان على مسيو تِبات أن يصارحني مسبّقا، حتى أكون قادرة على عمل إعادة حسابات).

قال (مسيو تِبات مشغول جدا، كما أوضحت لك، ثم إن المسألة تمّت بمنتهى السرعة، ثم إننا لا نستطيع أن نقف في وجه تيّار الزمن).

كانت يداه رائعتين. كان يفردهما على النضد القصديري فوق أوراق العقود. لاحظت فجأة ظهور قلم حبر يمسك به بين أصابعه.

قال (وقّعي هنا، وأيضا هنا).

كان بإمكانه أن يجعلها توقّع على أي شيء أرادها أن توقّع عليه. لم تبدُ عليها أيّة مظاهر قد تدلّ على صعوبة إقناعها. حتى لو كان قد طلب منها التوقيع على أمر إدانتها والحكم عليها بالموت، لوافقت في التوّ واللحظة على التوقيع. دون تردّد ودون حتى أن تطلب منه أي إيضاح. كانت مستعدّة لكل شيء ومتأكدة أن كل شيء يأتي منه سيعجبها. عندما أتمّت توقيع كل

t.me/qurssan

الأوراق التي أراد أن توقّعها، أعاد ترتيب أوراقه داخل حقيبته، بقدر من الاستعجال لم تفسّر الدافع وراءه. لم يعد يبتسم. لم يعد يبدو عليه نفس القدر من الحزن. مع ذلك كان لا يزال جميلا. لا يزال جميلا جدًا. أصبح إلى حدٍ ما دون مشاعر مثل لوح خشب كما يفعل عادة الناس الذين يملكون المال. لم يكن على ما يبدو أكبر منها كثيرا في السن. ثلاث أو أربع سنوات. سيكونان هما الاثنان زوجين جميلين. هذا هو ما كانت تفكّر فيه أثناء قيامه بإغلاق حقيبته.

مدّ لها يده وحيّاها بطريقة جافة نوعا ما.

قالت وهي تشعر فجأة بالقلق (هل سأراك مجدّدا؟).

قال (لا أرى الفائدة من رؤيتي مرة ثانية، ويجب عليك أن تكوني قد غادرتِ هذا المكان قبل نهاية الأسبوع القادم، وفي هذه الأثناء سيظهر الملاك الجدد بلا شك بين يوم وآخر. الاثنين القادم سيأتي فريق عمل لتفريغ المخزن والمقهى من محتوياتهما).

قالت (ليس هذا ما كنت أنتظره).

لكنها وجدت نفسها لا تزال واقعة تحت تأثير سحره. لم تكن تشعر نحوه بأية مشاعر سلبية. هو فقط يقوم بوظيفته. كما كانت هي تقوم بوظيفتها. هو يقوم بوظيفته بشكل جيد، وهي تقرّ له بذلك. هو في عمله يتبع الأصول. يعطي لعمله كل الوقت اللازم. احتسى قدحًا من البيرة بدلاً من أن يسارع بالدخول في الموضوع البغيض الذي جاء من أجله. كان رجلاً طيبًا وهي لم تنخدع فيه عندما رأته لأول وهلة. تبعته بنظرها أثناء عبوره القاعة عند مغادرته المكان. كانت تودّ لو أنه عاد مرة أخرى، على الأقل من أجل إلقاء نظرة أخيرة على واجهة الحانة التي أصبح من المقدّر لها أن تختفي. لكنه لم يعد بعد ذلك البتّة. مع ذلك فإن إعجابها به كان يتزايد. إنه رجل يعرف هدفه جيدا ويسير نحوه في خط مستقيم. مثل أبطال الأفلام السينمائية. أمام رجل مثله تحوّلت هي إلى خرقة من مزق ملابس،

t.me/qurssan

وفقدت كل إرادتها، ولم تعد تعرف أين هي. كانت على وشك أن تصاب بالجنون فهي لم تعد تعرف هل تبكي أم تضحك. عادت إلى النضد لتكتشف أنه لم يترك عليه قيمة المشروب الذي احتساه. هذه التفصيلة جعلتها تبتسم قليلاً. بشكل ما هو أيضًا فقد صواب التفكير. أخرجت حافظة نقودها من جيبها، وأخذت منها قطعتين معدنيتين من النقود ووضعتهما في الخزينة. شعرت بقدر لا بأس به من السعادة أن رجل حياتها جعلها تدفع له ثمن مشروبه، ثم إنها تفضّل أن تكون حساباتها دائمًا مضبوطة.

t.me/qurssan

ـ ٤ ـ

فطيرة مستديرة باللحم أو الأبله

هناك بعض الشتاءات التي تأتي أحيانًا لتُجْهِز على كل ما يتبقى لدى الناس من النوايا الحسنة. في شهر ديسمبر هذا هبطت درجة الحرارة إلى خمس عشرة درجة تحت الصفر. (بوب) منذ أسبوع يشعر أنه لن يستطيع أن يحتمل أن يستمر الطقس هكذا مدة أخرى. كان يقيم متجوّلا في قطعة أرض لم تكن ملكًا لأحد. قطعة من الأرض المشاع تقع على حافة ضواحي المدينة. قطعة أرض تكفي مساحتها لأن تشغله بها ولأن تلبّي احتياجاته. بشرط ألا يتوحّش المناخ كثيرًا كما يفعل في هذا الشهر. لم يكن له مأوى يقيم فيه، بل كان ينام تحت قبّة السماء. كان هذا هو موسمه الثاني عشر تحت قبّة السماء. لم يكن يتشكى من حالته. كان قد عاش أيامًا أفضل لكنه لا يشعر بالندم عليها. لم يعد يعرف أيّة خيبة من خيباته العديدة كانت قد أدّت إلى الوضع الذي يجد نفسه فيه الآن مقيمًا في الشارع. هذه أشياء لا نحب أن نتذكرها. على أيّة حال كان (بوب) يتقبّل مصيره. هو لم يعد يطلب شيئًا. لكن فقط يسأل السماء التي لا يزال يعتقد فيها بشكل غير واضح، أن تكون رحيمة به وتترك له ساقيه القويتين، وذلك لأن لذّته

t.me/qurssan

الوحيدة في الوقت الحالي، هي أن يتنقل ماشيًا عبر مسافات طويلة، أو أن يظل يلفّ ويدور في حلقات متصلّة حول بعض الأحياء التي يحبّها. لم يكن يستطيع أن يظل ساكنًا هادئًا في مكانه. هذا هو ما كانوا يقولونه عنه، إنه دائمًا على الطريق. لم تكن لديه رغبة في الاستقرار في مكان واحد. بعض زملائه ينامون في منازل مهجورة، أو في بعض المباني المتروكة بلا عناية في المناطق التي كانت صناعية سابقًا. كانوا يعيشون فيها مثلما يفعل ناس الطبقة المتوسّطة من أهل المدن، الذين يخرجون من منازلهم في ساعات محدّدة، ويعودون اليها في ساعات محدّدة. كانوا يعيشون حيوات منظّمة. أما هو فكان يفضّل حياة التصعلك، أن يقضي ليلة هنا وليلة هناك، تقوده إليها نزواته وفقًا لما يتراءى له من خيالات، أو يضطره إليها ما قد يشعر به من إرهاق جسماني مُلِحّ. كان ينجح دائمًا في العثور على أركان وزوايا هادئة يمكنه أن يستريح فيها لبعض الوقت.

هو لا يمكنه أن يتذكر السبب الذي من أجله كان قد دخل في ذلك المنزل. ربّما كان السبب هو شعوره ببرودة الجو. كانت قد مرّت عليه عدّة أيام لم يشعر خلالها بالدفء. رغم أنه كان معتادا على التكيُّف مع مقتضيات الأمور في حالة مواسم الشتاء الباردة. عند مروره أمام النوافذ لمح الأسرة كلها مجتمعة حول مائدة العشاء. على الأقل ستة أو سبعة أشخاص. كانوا يضحكون. تسرّب إلى الحديقة دون التفكير في أي سوء. إلى جهة اليمين من باب المنزل الرئيسي كان هناك بابٌ آخر متروكًا نصف مفتوح. لم يفعل أي شيء أكثر من دفعه بيده. كان مرأب السيارة. صعد سُلَّما من ثلاث درجات ليجد نفسه في بداية ممر يؤدّي إلى قاعة الطعام التي يأتي منها صوت الضحكات. أقل ما يمكن أن يقال هو أن ظهوره المفاجئ في صالة الطعام أدّى إلى تجمّد جميع الموجودين وتوقّفهم عن الحركة وصمتهم التام.

منذ كم من السنوات لم يعد يرى داخل المنازل؟ أول ما شعر به هو الدفء. هبط عليه الدفء وأحاط به تمامًا من كل جهة كأنهم قد أصبحوا

t.me/qurssan

فجأة في فصل الصيف. كان هذا التأثير فوريًا. ثم كان هناك أولئك الناس الذين نظروا إليه بنظرات خائفة.

أعتقد أن من المناسب أن ينبّههم فقال (لا تخافوا)

جحظت عيون الأطفال. شعر أن أصغر الأطفال كان على وشك البكاء. كرّر عليهم ما سبق أن قاله عن أنه ليس هناك ما يدعو إلى الخوف منه. حرّك يديه أمامهم ليبيّن لهم أنه لم يكن مسلّحًا. حاول أن يبتسم لكنه لم يتمكن من الابتسام. رأى أن الأم قد أخذت في يدها يدَ طفلها. بدت على الأب ملامح العنف والشراسة. تجهّم وجهه أثناء بحثه عن الموقف الذي سيتّخذه. كان هناك أيضًا رجل آخر وامرأة أخرى. قدّر أنّهما قد يكونان من بين الأصدقاء أو الجيران أو أبناء العم.

قال الأب وهو يرفع ذقنه (ماذا يحدث؟).

قال بوب (لاشيء، شعرت ببرودة الجو، ووجدت الباب مفتوحًا، فدخلت لتدفئة جسمي).

قال الأب (حسنًا فعلت).

في منتصف المائدة رأى طبقًا به قطع من اللحم المطبوخ، وطبقًا آخر به رقائق من الفطائر المحشوّة لم تقطّع بعد.

سأل بوب (وهل هذه الرقائق المحشوّة لا تزال ساخنة؟).

سأل دون أن يقدر على تحديد السبب الذي من أجله كان قلقًا من مسألة سخونة أو برودة الرقائق. كان سؤالاً به الكثير من الفضول، وكذلك ربّما به بعض الجنون أو الحماقة. لم تكن لديه أبدًا الرغبة في معرفة أي شيء قبل هذه الأمسية، ولكنه الآن أمام تلك الرقائق المحشوّة ذهبية اللون في مواضع، وبنيّة اللون في مواضع أخرى، المنتفخة بكل أشكال البخار الدافئ الساخن الحارق، لم يتمكن من كبح جماح خيالاته.

قال الأب (الرقائق خرجت بالكاد من الفرن).

t.me/qurssan

أضافت الأم موضّحة بقدر من الافتخار. بل أيضًا بقدر من الاحتقار لجهل بوب الواضح (إنها من رقائق اللورين).

كانوا مندهشين إلى درجة أن فاتتهم دعوة (بوب) إلى تناول قطعة من فطيرة اللورين. أدركوا ذلك لاحقًا في مجرى تطوّر الأحداث. كانوا مندهشين إلى درجة الصمم والبكم. لكنهم لم يخطر على بالهم أنه يمكنهم التخلّي عن قطعة ساخنة من فطيرة اللورين. صحيح أنها فطيرة ليّنة من الداخل ولكنها إلى حدٍ ما تحتاج إلى قضم طبقتها الخارجية. كان (بوب) قد عرف هذا النوع من المتع في وقت ما من حياته. ربّما عرف هذا النوع من المتع في حياة أخرى. فإذا كان في هذا المساء قد حدث بشكل مفاجئ، أن كانت له رغبة في الحصول على قطعة من هذه الفطيرة، فإن هذا بلا أدنى شك لم يحدث بدافع من محاولة العثور من جديد على هذه المتع القديمة، ولكن فقط بدافع من الإحساس بالجوع الذي يجتاحه. إذ إن أغلب المواد الغذائية التي يمكنه في العادة أن يعثر عليها في صناديق القمامة، كانت مُجَمَّدة بسبب برودة الجو المحيط بهذه الصناديق، وغير قابلة للاستهلاك الآدمي.

قال (أشعر ببعض الضعف).

وذلك في محاولة منه لتفسير سبب وجوده هنا في قاعة الطعام. في الواقع أنه شعر كأن هذا الدفء الداخلي يجتاحه. حتى أنه كاد أن يشعر بالاختناق. كان قد قال في نفسه إنهم سيدعونه إلى الجلوس معهم حول نفس المائدة.

ثم أضاف (إن الجوَّ بارد جدا في الخارج. بين خمس عشرة درجة وعشرين درجة تحت الصفر. لم تكن لديّ نيّة الدخول في منزلكم. إنّها محض مصادفة. لقد حدث هذا هكذا. عندما تقيم في الشارع مدّة طويلة بطول المدة التي قضيتها فيه، تأتي لحظات لا ندرك فيها، إن كان ما نفعله هو الخير أوالشرّ. كان الباب مفتوحًا فدخلت. لو كان الباب مغلقًا لما

t.me/qurssan

تمكنت من الدخول. كنت قد لمحتكم من النوافذ. وجدت أنه من الجميل اجتماع كل أفراد العائلة هكذا حول المائدة. وكلّكم تضحكون. هذا هو ما جذب انتباهي. أنا اسمي بوب).

يبدو أن هذا كان هو السبب. إذ يعجبه الاحساس بسعادة الآخرين. لكن من جهة أخرى هو لم يشعر أبدًا بالتعاسة في الشوارع. كان يعرف كيف يرضى. الشتاء كان أصعب. لكن الأمر لم يكن يمتد لأكثر من بضعة أسابيع. بعد خمسة عشر يوما سيتحسّن الجوّ. في الربيع سيجلس إليَّ مقعد في ميدان محطة القطارات، ويراقب الناس الذين يستفيدون من أيام الدفء الأولى. سيرى الزهور وهي تنمو، الشمس وهي تلقي بضوئها على المزيد من المساحات، ظلال الأشجار وهي تزداد كثافة. سيصبح العالم أكثر حنانًا. وسيصبح هو سعيدًا بكل ذلك، لأن منظر الناس السعداء يسعده. هذه حقيقة.

سأل الأب وهو يدفع مقعده ليقف في مكانه (هل أستطيع أن أفعل أي شيء من أجلك؟).

قالد بوب دون مشاعر سيّئة النيّة (ابق جالسًا في مكانك لو سمحت).

عاد الأب إلى الجلوس من جديد. وجّه بعض النظرات إلى أصدقائه أو أقاربه. تقلّصت يده بعض الشيء وهي تمسك بالمنشفة.

قال بوب (لديّ فقط الرغبة في مشاهدتكم جالسين جميعكم حول المائدة، ولا أستطيع أن أعبّر لكم عن تأثير منظركم هذا على مشاعري. إنه منظر مبهج. لديكم منزل جميل).

لم يكن يستطيع أن يمنع نفسه من ترك عينيه تسقطان بين لحظة وأخرى على فطيرة اللورين. كانت فطيرة رائعة. لم يسعده الحظ من قبل بمشاهدة فطائر على هذه الدرجة من الروعة. كان يتنفّس بعمق، ويبدو له أن رائحة اللحم والفطير قد نفذت إلى كل جسمه من رأسه إلى قدميه.

قال مبديا ملاحظته (ألا تخشون أن تبرد الفطيرة؟).

t.me/qurssan

طمأنته الأم قائلة (لا تقلق، يمكن إعادة وضعها لمدة خمس دقائق في المايكروويف، وستعود ساخنة كما كانت).

لكن لم يخطر على بال الأم أن تعرض عليه أن يتذوّق قطعة منها. بالطبع كان بوب قد أدرك هذا. كان عدد قطع الفطيرة كافيًا بالضبط قدر عدد الضيوف الملتفّين حول المائدة. كانت الأمور محسوبة. من جهة أخرى لو أنهم كانوا قد عرضوا عليه قطعة لكان قد رفضها على الفور. لم يُرِدْ أن يشك بأن هؤلاء الناس يظنون فيه أنه دخل إليهم ليحرمهم من جزء من وجبتهم. كان يشعر بالجوع. شعر بالجوع أكثر عندما شاهد الفطيرة. في البداية كان يريد فقط أن يرى المنزل من الداخل. هذا هو ما ذكره عدة مرّات. وما أكّد عليه. محاولاً أن يبعد نظره عن الفطيرة. وألا يعود يفكّر فيها.

تكلم الصديق أو ابن العم سائلا (هل تعرف من هو ذلك الشخص الذي تقحم نفسك في حياته؟).

وكان قد وضع ذراعيه متقاطعتين فوق صدره، وعاد بجذعه إلى الخلف قليلا، كما يفعل الناس الجالسون عندما يريدون أن يقيسوا بنظرهم قامة الشخص الواقف أمامهم.

غمغمت الأم (اصمت يا مارك).

لم يكن مارك من النوع الذي يترك الآخرين يوجّهون له الأوامر، خاصة لو رجاه أحد أن يصمت. كرّر سؤاله واضعًا فيه المزيد من الحدّة والعنف.

(هل تعرف من هو الشخص الذي تقحم نفسك في حياته؟).

قال بوب (لا).

قال مارك (السيّد هو رئيس الغرفة التجارية).

تدخّل الرئيس المقصود بالكلام قائلا بقدر من الجفاء (الزم هدوءك يا مارك).

t.me/qurssan

احتجّ مارك (لن ندع صعلوكًا متشرّدًا يفسد علينا سهرتنا، يجب أن نأخذ زمام المبادرة، فلتعطه ما يريده على أن يرحل من هنا على الفور).

قالت الأم (ولكنه لم يطلب شيئًا).

قال بوب (لم أطلب شيئًا).

عندما أراد (مارك) الوقوف، وبسبب عصبيّته واندفاعه، انقلب خلفه المقعد الذي كان يجلس عليه، طلب منه (بوب) بقدر من العشم، وبصوت هادئ وحازم، أن يستعيد مقعده على الفور ويجلس.

شرح لهم بوب (أريدكم أن تتصرّفوا كما لو أنني لم أكن موجودًا بينكم، أريد من جديد أن أراكم كما رأيتكم منذ لحظات عبر نوافذ قاعة الطعام. كنتم تضحكون جميعًا. أعتقد أنها كانت لحظة جديرة بالاحترام. لحظة تثير المشاعر).

كان يثرثر. اعتقدوا أنه يخرّف. اعتقدوا أنه مجنون.

قال بوب (حاولوا أن تسترخوا. أنا لا أريد بأي شكل من الأشكال أن أؤذيكم. من جهة أخرى، لا تزعجوا أنفسكم بي، واستأنفوا وجبتكم).

تضايق الرئيس قائلاً (ماذا تريد بالضبط؟).

قال بوب (لا أعرف، فليكن أن تأكلوا الفطيرة).

جاءت تلك الجملة هكذا رغمًا عنه. مع ذلك كان يضغط على نفسه حتى لا ينظر إلى الفطيرة. لم يكن يريد المزيد من التفكير في هذه الفطيرة. أراد أن ينساها. لأنها كانت تشعره بالجوع. لكنها ليست ما جاء يسعى من أجله في هذ المنزل.

قال الأب الرئيس (هل تريد أن تدفعنا إلى أكل الفطيرة؟).

قال بوب (لا أريد أن أدفعكم إلى أي شيء. أتمّوا وجبتكم هذا هو كل ما في الموضوع. عندما دخلت عندكم كنتم تستعدّون لتناول الفطيرة. نعم أم لا؟).

t.me/qurssan

أكّدت الأم (بالطبع).

أمسكت الأم بالسكين وشرعت في تقطيع الفطيرة. تابع (بوب) كل حركاتها بنوع من الاشتهاء المرعب. عندما جذبت الأم الجزء الأول المقطوع من الفطيرة، ووضعته في طبق زوجها الرئيس، استغرق بوب في تأمّل اللون الوردي الداكن للحم المفروم المستوي على النار إلى درجة تامة، والعجينة الصفراء المنتفخة التي اكتسبت قدرًا من الصلابة بالاستواء في النار. عندما انتهت الأم من تقطيع الفطيرة وتوزيعها، لاحظ (بوب) دون إحساس بالمرارة، أن الطبق الذي كان يحتوي على الفطيرة أصبح الآن خاليًا.

تساءل بلطف (ألم تبرد قليلا؟).

قال الرئيس (إنها جيّدة).

كان منظرهم مفرحًا. سكب (مارك) نبيذًا أبيض في الكؤوس. أبدى أصغر الأطفال سنًا بعض الاستياء والتردّد إزاء قطعته.

قالت الأم لتشجّعه (أكمل أكلك يا ميشال).

قال الطفل (لا أحبّها).

قالت الأم (اضغط على نفسك. إنه الجزء الذي يخصّك ويجب أن تأكله).

نظرًا للظروف المحيطة بهذه الوجبة، لم يجرؤ الطفل على العناد. فبعد أن ألقى نظرة ماكرة على (بوب)، غرز أطراف شوكته في قطعته، ثم بدأ في أكلها بما يوحي بالغصب. كان الرئيس هو أول من أنهى قطعته، رغم أنه لم يكن متسرّعًا في الأكل. لم يكن قد لمس بعد كأس النبيذ الخاص به. لم تكن تلك هي حالة (مارك) الذي كان يُتبع كل قضمة من الفطيرة باحتساء جرعة من النبيذ الأبيض. شعر (بوب) بأن (مارك) لا يزال على قدر من العصبية. كان بودّه لو تمكن من طمأنته. لكنه لم يجد الكلمات المناسبة.

t.me/qurssan

بدأ الرئيس بالكلام (اسمع يا بوب، أستطيع أن أخمّن أنك رجل شجاع. هل أنت رجل شجاع يا بوب؟).

قال بوب (نعم أعتقد أنني رجل شجاع) وهو يتألّم إذ يرى آخر قطعة من الفطيرة وقد اختفت من طبق الطفل.

قال الرئيس (بودّي أن أفعل شيئًا ما من أجلك. نحن نعرف أن حياتك شاقة. وأن هذا الشتاء مخيفٌ. ولا أريد أن يكون مجيؤك إلى هذا المنزل دون فائدة لك. فنحن ناس لنا قلب. أقترح عليك أن أقدّم لك أسبوع إقامة في فندق. في الدفء. وبنصف إعاشة أي إفطار ووجبة أخرى. هناك فندق جرمين ربّما تعرفه. إنه بسيط جدا وشعبي ولن تشعر فيه بالضيق)

في المدينة كان كل الناس يعرفون (جرمين). حتى (بوب) كان يعرفها. في أيام الأعياد، عندما كان الناس كرماء، وكان هو بفضل ذلك قد كسب بعض المال، كان يذهب إلى هناك عند جرمين ويقدّم لنفسه قدحا أو قدحين من مشروب (قهوة كالفا)، في حانة تقع عند مدخل الشارع المؤدّي إلى المذبح، وتعمل بشكل أساسي بفضل زبائنها من عمال الجزارة وصبيِة الجزّارين، من الذين يستيقظون مبكرا، أو ينامون متأخرًا، الذين يذهبون إلى تلك الحانة حيث ينهون يوم عملهم الشاق في الساعة الخامسة صباحًا بكأس من الكونياك. كانت جرمين تؤجّر الغرف بالساعة أو بالأسبوع.

أكّد عليه الرئيس (هل فهمت ما قلته لك؟).

لاحظ (بوب) أن الرجل يتمتّع بعينين زرقاوين صافيتين تدلان على الأمانة الواضحة. تقريبًا هو لم يعد يفكر بعد في الفطيرة. وإن كانت بقاياها في الطبق المسطّح الذي يتوسّط المائدة وفي الأطباق الأخرى لا تزال تشاغله وتغريه بشكل غامض. هناك قطعة ضئيلة الحجم جدًا من اللحم قد سقطت فوق المفرش، إلى جوار واحدة من ملاعق الحلويّات. لو كان يجرؤ، لاقترب بيده منها، ورفعها إلى فمه على طرف أحد أصابعه. كان هذا مشروعًا يتميّز بقدر من الغباء والحماقة يدعو إلى الذهول.

t.me/qurssan

غادر الرئيس المائدة. تركه بوب يفعل ذلك. خرج الرئيس من الباب الخلفي المؤدّي إلى المطبخ. ثم بعد دقيقة عاد إلى صالة الطعام وهو يمسك بحافظة أوراق بين أصابعه وعلى وجهه ابتسامة عطوفة. ألقى اليه مارك بنظرة ثقيلة توحي باللوم والعتاب، لكنه تجنّب أن يظهرها بوضوح. شعر بوب بالندم على أنه أفسد أمسية مارك. ثم شعر أنه كان على وشك أن يعتذر لمارك. إلا أنه لم يجد الكلمات المناسبة. كان في الحقيقة قد اعتاد على كلمات الشكر وبالتالي كان قد نسى كلمات الاعتذار.

وجّه الرئيس هذا الأمر إلى بوب (افتح يدك).

وضع الرئيس في يد بوب خمس ورقات مالية وهو يغمز له بعينه، وهو ما يعني أن بوب يستطيع أن يضعها في جيبه. لكن هذا الأخير ظلّ دون حركة، صامتًا، متسائلاً عمّا حل به فجأة.

انتهى بوب إلى أن نطق بصعوبة (لست في احتياج إلى نقود).

قال الرئيس (لا أريد لك أن تقضي هذه الليلة في العراء في هذا الجو البارد. فكلنا هنا حول هذه المائدة نجد أن شخصيتك جذّابة ودودة. ولا نريد لك أن تكون قد أتيت إلينا دون فائدة. يجب أن يتعلم الجميع كيف يساعد بعضهم بعضًا. عليك الآن أن تسرع بالذهاب إلى جرمين. إن فندقها ليس بعيدًا جدًا عن هنا. لن يستغرق منك الذهاب إلى هناك أكثر من ربع ساعة مشيًا على الأقدام. أو من الجائز أن نفترض أنه يستغرق نصف ساعة فأنا لست متأكّدًا).

أشار بوب (على الأرجح أنه يستغرق نصف ساعة).

فهو في هذا المجال يمكننا أن نثق في أنه يعرف الموضوع الذي يتحدّث عنه. ثم تكلّف الرئيس عناء مصاحبة بوب حتى باب الخروج. قبل المرور بالباب اعتقد بوب أنه من الجائز أن يعودا إلى صالة الطعام، فقد أنصتا إلى صوت أصغر الأطفال سنا وهو يتقيّأ في طبقه قضمات فطيرة اللورين التي أجبر نفسه على أكلها.

t.me/qurssan

قال بوب (لا أريد أن أضايقكم ولكن هكذا تحدث الأشياء. صحيح أنه تصرف غبي من طرفي. أنا أشكركم على كل ما فعلتم من أجلي. إلا أنني أؤكّد لكم أنني لست في حاجة إلى هذه النقود).

أحسّ بوب أنه هكذا قد قال كل شيء. أعتقد بوب أنه تصرّف بطريقة لطيفة مهذّبة. هو في زمن سابق كان شخصًا معقولاً. ويبدو أن بعض الشيء من هذه المعقولية كان لا يزال متبقيًا لديه.

قال الرئيس (أتمنى لك حظًا سعيدًا).

لكن الرئيس لم يمد يده ليأخذ يد بوب في يده. بل تراجع بخطوة إلى داخل منزله. هبط بوب درجات سلّم مدخل المنزل الثلاث، محتفظًا داخل ملابسه ببعض الدفء الذي شعر به داخل المنزل. عاد من جديد إلى الشارع. أنصت إلى صوت باب المنزل وهو ينغلق بهدوء خلفه. أنصت إلى صوت الأقفال وهي تدور في الباب. مرّ من جديد أمام النافذة. عبر إلى الجهة الأخرى من الشارع وانتظر لحظة، كأنه يستعيد هدوءه بعد معاناة عاطفية عنيفة. كان جسم الرئيس لا يزال واضحًا في الإضاءة القادمة خلال إطار النافذة. رآه بوب وهو يتفحّص الشارع وقد أدار رأسه بحركة عنيفة.

لم يكن قد ابتعد بأكثر من مئة متر عندما توقّفت سيارة شرطة إلى جواره، وخرج منها ضابطان، وفي قبضتيهما أسلحة. احتجزاه ملتصقًا إلى جدار وقد أمسكا كلاهما بياقة معطفه. في عشر ثوان كانا قد أدخلاه في سيارة الشرطة، بقسوة شديدة ودون أية مراعاة له، وقد أطلقا سيلاً من السباب المعتاد والإهانات التقليدية. خلال تلك المجموعة من الحركات العنيفة اصطدم رأس بوب بمقدمة المقعد الذي دفعوه إليه. انطلقت السيارة مرة أخرى. *كان هناك ضابطان آخران داخل السيارة. أعلاهما* رتبة كان يتطلّب تفسيرًا من بوب. كان يتحدّث إليه عن مبلغ من المال. كان يتحدّث إليه عن جنحة سرقة بطريق الكسر. عن جريمة اختطاف رهائن

t.me/qurssan

وتهديد بطلب فدية. عن استعمال العنف. عن أطفال صغار تركت فيهم هذه الأفعال جروحًا باقية على مدى العمر. يبدو أن الرئيس لم يحرم نفسه من أي شيء، ولم يتحرّج على الإطلاق من ذكر كل هذه القائمة الطويلة من الأفعال المجرّمة.

وضع بوب الخمس ورقات نقدية على المائدة الصغيرة داخل سيارة الشرطة، فوجّه إليه الضابط ذو الرتبة لطمة عنيفة على وجهه. وضع الضابط النقود في جيبه دون عدّها من فرط الثقة. كان زملاؤه يمرحون. حاول بوب أن يقصّ عليهم أقصوصة الفطيرة، لكنهم لم يكونوا يبدون أي اهتمام. أمّا هو فكان يعتقد أنها ذكرى جميلة. لم يكن لديه الا شيء واحد يتأسّف عليه: فبسبب تدخّله في شئون أهل المنزل، فمن المحتمل أن تكون الفطيرة قد فقد حرارتها المحبّبة. بالتالي فإن الرئيس وأسرته لم يستمتعوا بها بالدرجة التي كانوا يأملونها. توقفّت السيارة في موقف سيارات المتاجر الصغيرة. دفعوه فيما بينهم في ظلام الليل الذي لم يكن يضيئه الا مصباح نيون أحمر خافت لعلامة ضوئية لأحد المتاجر. تكاثرت الضربات الساقطة عليه بشكل بدا منظّمًا. كان ينصت إلى أنفاسهم المقطوعة. بعض الضربات آلمته بشدة. في منزل الرئيس كان قد استردّ دفء جسده. لم تكن برودة الجو مما قد يخفّف إحساسه بالألم. اعتقد بوب أنه كان يستحق هذا العقاب لتصحيح سلوكه. لم يكن يشعر بأيّة ضغينة تجاه رجال الشرطة. هم يقومون فقط بأداء مهام وظيفتهم. فإذا سمح كل الناس لأنفسهم بدخول منازل ليست لهم، دون أن يكونوا مدعوّين إليها، فلن تصبح الحياة قابلة لأن تعاش. كان هذا شيء يسهل فهمه. لم يتساءل إلى متى يستمرّون في توجيه اللكمات إليه. لكنه أغلق عينيه. وعاد إلى تخيّل الشارع. كانت صورة جميلة تذكّره بذكريات طيّبة. في الحقيقة هو لم يعرف أيّة ذكريات على وجه الدقّة. نحن عادة ما نكون على مسافة بعيدة جدًا من أسعد ذكرياتنا.

t.me/qurssan

ـ ٥ ـ

تاريخ انتهاء الصلاحية

في شبابها كانت (مانون) تمتلئ أفكارًا تجعلها تتخذ قرارات رسمية. فلم يكن هناك مثلاً أي موضوع يستطيع أن يهرب من جدل معتقداتها اليقينية. كانت تفكّر طويلاً في كل شيء، من مسألة المدّة اللازمة لاستواء المعجينة في الفرن، إلى مسألة خلود الأرواح. يجب أن نذكر أنها بحكم كونها حاصلة على دراسات عليا في الفلسفة، كانت لديها بعد مسألة اعتناق المبادىء التي تدافع عنها، مسألة نزاهة تطبيق هذه المبادئ على حياتها الشخصية. كان هذا هو السبب الذي من أجله قرّرت، بعد أن كانت قد خاضت غمار مناقشة قاسية، أدّت إلى إحساسها على الأقل على المستوى الذهني، بالإصابة بقدر من الضرر، وكان هذا قد حدث يوم بلوغها سن التاسعة عشرة، قرّرت أن تنقش على جلد بطنها وشمًا وذلك بكتابة حروف يبلغ ارتفاعها سنتيمترًا واحدًا، العبارة التالية (تاريخ انتهاء الصلاحية) ثم في سطر أسفلها وضعت التاريخ الذي ستكون قد بلغت فيه سن الخمسين. يوم 14 سبتمبر. وقد دارت هذه القصة بكل أطراف المدينة.

t.me/qurssan

هي بحسب اقتناع شبابها قدّرت أن المرأة بعد سن الخمسين تصبح غير قابلة للاستهلاك. وقد ظنّت كذلك أنه بدءًا من هذا السن لا تكون لدى المرأة في الحقيقة الرغبة في أن تستهلك. وقد ذكرت بعض الأمثلة المستمدّة من الواقع. سيّدات من المحيطات بها وقد أصبحن مفرطات في البدانة، أو مفرطات في النحافة، أو مفرطات في الذبول وظهور التجاعيد عليهن. هناك نهاية لكل شيء، نهاية للبشر كما هي للبيض. في أعماقها وبصفتها ابنة لأب كان أحد أشهر الفائزين في الألعاب التلفزيونية، ولأم كانت تطرّز وسائد على شكل قلوب، كانت قد ولدت على استعداد لتذوّق الجمال، وعلى شدّة التدقيق فيما يتعلق بملابسها، وعلى عصمة من الضلال والخطأ فيما يتعلق بأشياء الحياة. فبداية من طفولتها المبكّرة، كانت مثل والدها قادرة أن تجد إجابة على كل سؤال، وكانت مثل والدتها قادرة أن تضيف الأجواء العاطفية والرمزية إلى كل ما هو ذي نفع مادي.

كانت وهي طفلة قادرة على تفكيك وإعادة تركيب قصص أساطير الجنيّات والسحرة، وعلى وضع بابا نويل في خلفيّات متاجر أزمنة الحضارات الأثرية القديمة، وعلى إعطاء تعريفات جديدة للتيّارات الأساسية في التفكير العائلي، وكان من السهل عليها وهي طفلة أن تحلّ كل الألغاز الشيطانية للكلمات المتقاطعة دون الاستعانة بالقواميس. في سن السابعة كانت قد استقرّت على النظام الذي يلزمها للأسلوب الأمثل في غسل وتصبين ودعك وتنشيف الأجزاء المختلفة من جسدها. وهو النظام الذي لم تنحرف عنه أبدًا طوال حياتها. وبنفس هذه الطريقة أعطت شفرة خاصة لكل نوع من أنواع أنشطتها اليوميّة، بحيث يصبح كل نوع من أنواع هذه الأنشطة قابلاً للتوالد يومًا بعد يوم دون توقّف، وبمتتالية لا يمكن أن يعكّر صفوها أي شيء.

كانت فلسفتها تهدف إلى تحسين أحوال الحياة العادية، وترتكز في نفس الوقت على التجربة والاستبطان والملاحظة العملية

t.me/qurssan

كانت تشرح فلسفتها قائلة: (نحن نشرب الماء في كوب، ونأكل الطعام في طبق. وليس هناك ما يمنع من أن يحدث العكس، أي أن نأكل في كوب ونشرب في طبق، ولكن لا يخطر أبدًا على بال إنسان عاقل أن يأكل في كوب وأن يشرب في طبق. وعندما نقوم بإعداد المائدة، فإن الطبق والكوب والشوك والملاعق والسكاكين وممسحة اليد وباقة الزهور والنسيج الذي يوضع أسفل الطبق، كل شيء منها يوضع في المكان الذي يناسب وظيفته التي نحتاجه فيها. وبأسلوب آخر في التفكير، نحن لا نحصل أبدًا على لحم مسلوق بوضع اللحم فوق جهاز الشواء. نحن لا ننام أبدًا في فراش مثالي لو عكسنا وضع الملاءات والأغطية).

لم تكن إذن تتكلم باستخفاف. ففيما يتعلق بنظام الخدمات المنزلية، كانت تستنتج القوانين العامة التي تتحكم في عالم الخدمات المنزلية. وبشكل أكثر تواضعًا الدساتير التي تنسّق في انسجام تام ما بين كل الأنشطة البشرية، من الميلاد إلى الموت، فيما يتعلق بالمجموعات أو بشكل فردي، بين قارة وأخرى أو بين منزل وآخر في نفس التجمّع السكاني. كانت قد درست اليونانيين والألمان، العصريين والوجوديين، الذين ينادون بزيادة الإنتاج، والذين ينادون بالنفعية العملية، والشعراء بين كل أنظمة الطاعة الرهبانية. كانت كذلك تقرأ الجرائد اليومية، ولكن لتضعها تحت اختبار نقدي دون أي حلول وسط أو تنازلات. لم تلعب أبدًا ألعاب الحظ، وذلك لأنها كانت من بين الذين يعرفون أن الإنسان لا يكسب أبدًا معركته ضد الحظ والصدفة.

كانت قد تزوّجت لأن هناك سنًا للزواج. ثم حصلت على الطلاق، حيث إن الطلاق يجد حلا لعقدة الزواج. ولأن الأشياء تحدث كما ينبغي لها أن تحدث، فقد أصبحت أمًا لاثنين من الأطفال، ذكرًا وأنثى. بعد مولد الطفل الذكر كانت قد تدخّلت ثلاث مرات للإيقاف الإرادي لحالات حمل ذكور لاحقة، فقط لتحصل على التكافؤ بين الجنسين في ذرّيتها. أما فيما يتعلق بـ في حياتها، فقد انحنت كل ملابسات حياتها أمام إصرارها على تحكيم

t.me/qurssan

المنطق المثالي. ففي مواسم الشتاء كانت تفقد الكيلوجرامات التي زادها وزنها خلال مواسم الصيف. ثم إنها لم تحرم نفسها من المرور بين وقت وآخر بحالات المزاج المنحرف والاكتئاب. وهكذا فقد جرّبت كذلك حالات الهستيريا، والغضب، والغيرة، والقسوة، بالشكل الذي يسمح بأن تعيش كل الحالات التي يمكن لإمرأة أن تعيشها، مستفيدة من قدرة لا بأس بها على الشراء، وبمستوى ما من الثقافة. كان زوجها يرضيها، وكانت له عاشقة. ولكنها اختارت أن تخونه في سرّية تامة، بعد أن تأكدت بشكل عام، من أن شُغْل العشيق يُكمِل شُغْل الزوج.

كان عشاقها يندهشون من قراءة تاريخ انتهاء الصلاحية الذي كتبته بالوشم على بطنها. وحيث إنها كانت لها غطرسة المتخصّصين في العلوم التربوية، كانت تشرح لهم قائلة:

(إن المرأة التي تحب رجلاً يجب أن تقدّم له أفضل ما فيها. وحيث إن الجسد يشيخ، وحيث إن الجلد يجفّ، وحيث أن نبع الجسد ينضب، وحيث إن المفاصل العظمية تفقد ليونتها، فإن المرأة التي لديها بعضًا من الكرامة، ستحاول أن تتجنّب تقديم هذا المنظر الشائخ المنفّر إلى الرجل. ويبدو لي أن سن الخمسين هو السن المناسب لوضع الحد النهائي للأنشطة الجنسية).

وكان كل واحد من عشّاقها يقول لها (سأحبك يا مانون حتى لو أصبحتِ قبيحة المنظر).

هذه التأكيدات لا تكلف العشاق شيئًا، ولكنها تسعد النساء بنسبة كبيرة.

كانت تقول (لو أصبحت قبيحة المنظر، لوضعت نهاية لحياتي، ولما كنت أردت أن أُظْهِر في الضوء ما يدعوني إلى الإحساس بالخزي).

كانت تبالغ بعض الشيء لكنها كانت مخلصة فيما تقول. هل كانت قادرة فعلا على الانتحار؟ كانت قد عبّرت أكثر من مرة عن تلك الفكرة على

t.me/qurssan

الورق، وأرسلت بهذا المعنى عدّة رسائل إلى مجلات نسوية، طبعتها ونشرتها لها.

قبل أقل من اثنتي عشرة ساعة من موعد انتهاء صلاحيتها، تملّكتها الرغبة في أن تُستَهلَك للمرة الأخيرة. للأسف كان ذلك اليوم من أيام وسط الأسبوع، وكان عشيقاها في رحلات إلى خارج البلاد لأسباب مهنية. كان الواحد منهما يعطي محاضرات عن كيمياء أحد أنواع سكّر الدم، والآخر كان بطلا دوليا في البلياردو. كانا يسافران كثيرًا. كانت معتادة في إجازات نهاية الأسبوع على قضاء يوم السبت مع أحدهما ويوم الأحد مع الآخر، بشكل يدل على دقّة التنظيم. وحيث إنها كانت مخلصة لمبادئها فقد قررت ألا تعود إلى رؤيتهما بعد الرابع عشر من سبتمبر. كانت التضحية تستحق التقدير، بل حتى تدعو إلى التعجّب وجحوظ العينين، خاصة أنها كانت لا تزال تشعر في نفسها أنها لا تزال قابلة بشكل مثالي للاستهلاك. صحيح لم يعد الجسد كما كان في السابق، ولكن اللحم كان لا يزال يتسلق العظم بشجاعة، والثديان لا يشعران في الحقيقة بالإرهاق، والبطن لا يزال مستديرًا متمسكًا بمكانه، دون ترهّل أو ارتخاء أو رخاوة. وكان ما لاحظته بخصوص ردفيها لا يمثّل حقًا شيئًا يدعو إلى الخزي، لا من حيث الحجم، ولا من حيث الكثافة والقوام. أما الفخذ فصحيح أنه قد تجوّف قليلاً لكن عضلاته احتفظت بالرشاقة والتناسق المقبول، وبالصلابة التي توشك أن تكون رياضية.

ارتدت ثيابًا تدلّ على ذوقها الرفيع، وبالكاد وضعت بعض مساحيق التجميل على وجهها، ثم بدأت بالتنزّه على الأقدام في المنطقة التجارية بوسط المدينة. كان الطقس مناسبًا، وقرص الشمس لطيفًا كما هي الحال في منتصف شهر سبتمبر. كان تجوّلها بلا هدف قد قادها إلى الميدان الرئيسي الكبير، حيث تفترش المقاهي كل الأرصفة المجاورة لها بتنظيم جميل، وبألوان متعدّدة للستائر المفرودة على واجهات المقاهي لمن يريد الحماية من الشمس. استقرّت في مقهى تحت إحدى المظلاّت، إلى مائدة

t.me/qurssan

هي الأقرب من مائدة أخرى يجلس إليها رجل كانت قد لمحته، ولم ينفّرها منظره منه. بل في الحقيقة كان الرجل مُغْوِيًا لها إلى حد بعيد. ببعد عشر دقائق كانت ترى بوضوح أنه رجل جميل. كانت ترى أنه يجمع في نفس الوقت بين الحيوانية المحبّبة في الفراش، والعقلانية الذهنية لمثقف تلذّ صحبته. حيوان رقيق مثقّف. انسان في جسد ذكر، كما أنها هي كذلك إنسان في جسد أنثى. هو أيضًا لاحظ وجودها. بل إنه حتى ابتسم لها. ابتسامة رائعة حاذقة نافذة، وفي نفس الوقت تليق بوحش كاسر من آكلي لحوم البشر. استطاعت أن تكتشف فيه روحانية مغلفة بحساسية فائقة. كان كائنًا يمتد وجوده المادي إلى أبعاد ميتافيزيقية ما وراء طبيعية.

تخيلت أنه بعد أن يدعوها إلى مائدته، وذلك بعد أن تكون قد ذكرت أمامه ملحوظة عابرة تتعلق بالجوّ الذي لا يزال لطيفًا، ستتأكّد من انطباعها الأول المتعلق بكونه رجلا رائعًا. دون أي شك هو أصغر منها سنًا. لكنه ليس أصغر منها بكثير. لم تكن هناك خواتم حول أي من أصابعه، ولم تكن هناك سلسلة تتدلّى من عنقه، ولم تكن هناك ساعة يد غالية الثمن حول معصمه، هو أنيق ولكن في اعتدال وتحفّظ. صوته ساحر ولكن دون تكلّف، ودون تلك التموّجات في الصوت مثلما يفعل الحمام، تلك التموّجات التي غالبًا ما يعتقد الرجال أنه من الضروري اللجوء إليها ليوقعوا النساء في غرامهم.

سألها (هل أنتِ وحدك؟).

قالت (وحدي ودون ارتباطات).

بدأت المحادثة بينهما، وارتفعت ببطء إلى طبقات الأثير وهما يتبادلان الأفكار. أطلعها على بعض أسرار حياته دون لجوء متعمّد إلى الغموض. أزاحت هي الغموض عن نفسها بنفس الطريقة. أراد أن يفسّر لها أشياء تعرفها ولكنها تظاهرت بعدم معرفتها. فتحت له أبوابًا كان يعرف مسبّقا أنها مفتوحة أمامه. قالت له إنها درست الفلسفة. قال لها إنه أحب كثيرًا

t.me/qurssan

الفلسفة ويشعر بالندم على أنه لم يجد أبدًا الوقت الكافي لتعميق معرفته بها عبر قراءة ما ينشر في الجرائد والمجلات المتخصّصة. لم يشربا إلا الماء. وكشف كل منهما للآخر عن الأسباب المشتركة بينهما في تفضيل الماء. كان يعزف ويغني الدور المرسوم له في النوتة الموسيقية، وكانت تصاحبه بالعزف على نغم الاتفاق غير المشروط. تبادلا الأنخاب بقدحي الماء. كان في نظرها مثاليًا وكانت به فخورة.

كانت ساعة العشاء قد حانت فانتقلا إلى المطعم. أثارت الإضاءة بالشموع حواس (مانون). أدركت عيناها كيف أن (سباستيان) كان يتابع هو أيضًا رقص أضواء الشموع. وضعت يدها على مفرش المائدة بينهما، كما لو كان هذا قد تمّ عن طريق السهو. نظر إليها وحنّ إلى الإمساك بأصابعها، لكنه تردّد لحظة، ولم يجرؤ على مدّ أصابعه في اتّجاه أصابعها، رغم أن هذه الأصابع كانت قد تعدّت نصف المائدة الخاص بها إلى نصف المائدة الخاص به. بحركة واحدة فرد منشفته أمامه. هو لم يكن ضد قضاء السهرة في ملهى ليلي به مكان للرقص، لكنه اعترف لها بأنه لم يعد يذهب إلى مثل تلك الأماكن، فهي في رأيه صاخبة ومزعجة وخانقة.

قال (أحب النزهات على الأقدام في فينيسيا، وزيارة المتاحف حيث لا تعرض الأعمال الفنية في بعض الليالي إلا على ضوء القمر عند اكتماله. أحب رومانسية الرحلات النهرية على المراكب في نهر الراين. اشتريت لنفسي زوجًا من النظّارات المقرّبة على درجة عالية من الدقّة، حتى أتمكن بهما من متابعة هجرة الأوز البرّي. بدأت في دراسة كتاب عن الأعشاب، وفي عمل مجموعة من طوابع البريد. هذه هي المتع التي أخذت بعض الوقت في حياتي حتى أدركت قيمتها بالنسبة لي. ولكنك تعرفين ما هو معنى الحياة التي تأخذنا طول الوقت في دوّاماتها، فنصبح مشتتي الأذهان إلى درجة أن ينعدم لدينا صفاء التفكير).

قالت (أنت مثلي تمامًا)

t.me/qurssan

استسلمت تمامًا وأرادت أن تكون على الفور له. كانت تتمايل على مقعدها طبقًا لإيقاع صوته المحبّب الذي أسرها تمامًا واخترقها وفتّش دواخلها، وهو الصوت الذي كانت تدعوه في صمت إلى مضاجعتها. في نفس الوقت الذي بدأ فيه يتعرّض لمشكلة فلسفية تتعلق بالخالق. كان يستعمل دماغه في إجراء عمليات حسابية معقّدة. كانت لديه فكرة عن نظرية ميكانيكا الكمّ (الكوانتم)، حاول بها أن يثبت لها أن الخالق موجود وغير موجود في الوقت نفسه. وهو ما جعله يصل إلى نتيجة نهائية على قدر كبير من التعقيد والتناقض، وهي أن الاتفاق يمكن حدوثه بين المؤمنين وغير المؤمنين، وحتى بينهم وبين أولئك الذين هم بلا رأي محدّد. وهكذا أخذها معه إلى عالمه، وهو نفس العالم الذي تعيش هي فيه منذ طفولتها المبكّرة. والمعنى هو أن لكل شيء معناه ومكانه في هذا الكون. والمعنى هو أن لكل سؤال جواب. كما يحدث في برامج الألعاب في التلفزيون. اتخذ القلب شكل الوسادة حيث يمكن للعواطف أن تجلس.

بعد العشاء خرجا في هذا الجوّ الدافئ اللذيذ، لنزهة ليلية على الأقدام، عبر شوارع وسط المدينة، تحت أضواء النيون الملوّنة، وقد تعلقت بذراعه مثلما تفعل امرأة احتست قدرًا من الخمر. كانت تضحك. عبرت خيالها بشكل خاطف بعض صور العلاقة الجنسية التي يمكن أن تقوم بينهما.

اقترحت عليه (هل تحب أن تشرب كأسًا أخيرًا في شقتي؟ لديّ أصناف مختلفة من المياه الإيطالية والسويدية، ولديّ مياه من المرتفعات الثلجية، التي تتميّز بدرجة عالية من النقاء، وهي نادرة جدًا. أنا متأكدة من أنها ستعجبك).

كان موافقًا على ما ذكرَتْهُ بخصوص مياه المرتفعات الثلجية، فهو لم يجرّب أبدًا شربها. ويشعر أنها يمكن أن تكون تجربة رائعة. كانت تتساءل بينها وبين نفسها عن اللحظة التي سيقبّلها فيها. هل سيكون هذا في ركن

t.me/qurssan

مظلم في طرف الشارع حيث يبدأ ميدان؟ في السيارة؟ في مدخل البناية حيث تسكن؟ هل لديه فعلا هذا الصبر وعدم الاندفاع الجدير بسيّد عظيم؟ عادةً ما كان الرجال يهصرونها بين أذرعهم في أول فرصة سانحة، بمجرّد الخروج من المطعم، الأفظاظ الخشنين. كانوا يفرضون عليها أنفاسهم الملتهبة المتبّلة بالبهارات، التي تلتصق بها رائحة أجبان نهاية الوجبة، مع لمسة من وخم احتساء النبيذ. هي لم تكن على الإطلاق ضد هذه التصرّفات التي تستجيب لنداءات الطبيعة البشرية. لكن يبدو أن سباستيان كان من جنس آخر. هو كان مثلها يستطيع أن يسيطر على نفسه. كانت له اليد العليا على تصرفّاته وتلميحاته. كانت له القدرة على كبت غرائزه.

قدّمت له مياه المرتفعات الثلجية في كأس لاحتساء الشمبانيا. تذوّق الماء بطريقة احتفائية كما لو كان طقسًا من الطقوس. كان سباستيان يستنشق طراوة الماء بلذّة، أعجبه في الماء غياب أي أثر لأي لون أو رائحة. رفع الكأس إلى مستوى عينيه الزرقاوين. كانت مانون تكاد ترتجف. غرقت في النظرة العميقة الوضّاءة لهاتين العينين. كمية كبيرة من نقاء الثلوج صعدت إلى رأسيهما. ادّعت مانون أنها قد ثملت. ادّعت أنها لم تعد تعرف ما هي. ادّعت أن الأجراس الثلجية تدقّ في رأسها. ترنّحت في منتصف الغرفة. لم يحدث أبدًا من قبل أن كانت لديها كل تلك الرغبة في ممارسة الحب. تركت نفسها تسقط فوق الأريكة. أطلقت صيحة صغيرة. على أمل أن تلفت انتباه سباستيان.

انحسرت التنّورة إلى منتصف الفخذ. فكّت خلسة أزرار الجزء العلوي من قميصها. شعرت بشكل غامض بارتباكها. أعزت هذا إلى اندفاع الهرمونات. أعزت هذا إلى تشوّق امرأة سيطرت عليها الرغبة. لم تعد مستقبلية لها على تاريخ نهاية صلاحيتها إلا ساعة واحدة. هجمة جديدة حيرة لمدة ساعة واحدة. فكّرت في أنها ستكون ذكرى طيبة لمستقبل بعيد. فكّرت في أنها ستكون بها راضية. لقد أحبّت سباستيان لأنه رجل

t.me/qurssan

لا يتعجّل الأشياء. لأنه رجل يحترم طقوس المقدّمات. كانت مياة المرتفعات الثلجية قد وقعت وختمت بينهما عقدًا مكتوبًا بلغة شعرية.

قال سباستيان بلهجة قلقة (هل أنتِ تشعرين بوعكة؟).

قالت (فلنمارس الحب على الفور يا سباستيان. لا ينبغي أن ننتظر أكثر من ذلك. فليكن أحدنا للآخر هنا الآن. لقد حان الأوان).

أنصتت إليه وهو يتنفّس بعمق. كان جسمه قد بدأ يميل في اتجاهها. وضع كأس مياه المرتفعات الثلجية على المائدة المنخفضة. فتحت هي أزرار تنّورتها وبقية أزار قميصها استعدادًا له ولتوضّح له مدى العجلة وإلحاح الرغبة عليها.

قال (أعتقد يا مانون أنك ربّما قد أخطأتِ تفسير بعض تصرفاتي وأقوالي. إذا كان ذلك كذلك، فأرجوكِ أن تعذريني، أنا آسف).

هذه العبارات في الواقع أقلقتها وحيّرتها. إلا أنه عندما وقف رأت أنه كان قد بدأ في فكّ حزام الوسط المحيط بسرواله. ثم في فكّ أزرار السروال. شعرت بموجة حارة تغمرها. موجة تهزّ بشكل أساسي منطقة الحوض. شعرت بآثار تلك الموجة في فخذيها وساقيها بل حتى في رأسها. أنزل سرواله القصير الداخلي. أغلقت عينيها. أعادت فتحهما بعد خمس عشرة ثانية لتزيد من إحساسها بالمفاجأة. كان عضوه يليق بأمير، متصلّبًا مثل مقبض خشبي لمطرقة ومزوّدًا بطرف سميك يشبه مقبض اليد.

قالت في نفسها: (سأجنّ. هو يجعلني أجنّ).

ثم قرأت على بطن سباستيان، عبارة مكتوبة بحروف صغيرة من الوشم أعلى منطقة العانة (تاريخ انتهاء الصلاحية 12 سبتمبر).

قال: (كان هذا التاريخ هو أول أمس. أنا آسف. هذا هو أحد أخطاء شبابي. في ذلك الوقت كنت مهتمًا بالفلسفة. كنت سمعتهم يتحدّثون عن نظرية تبنّتها فيلسوفة شابة كتبت بالوشم على بطنها تاريخ انتهاء

t.me/qurssan

صلاحيتها. كنت متعطّشا إلى المطلق وإلى الحلول الجذرية. بدت لي تلك الفكرة ممتازة. أمضيت حياتي أعدّ نفسي لتلك اللحظة، ولا أستطيع أن أرضيكِ على حساب رضائي عن نفسي، وعلى حساب خيانة ثلاثين عامًا من الاقتناع والايمان حتى لو أردته فأنا لا أستطيعه. فالجسد يطيع العقل).

مانون لم تكن أبدًا طوال حياتها تريد البكاء. صحيح أنها بكت مرات معدودات، ولكن كان ذلك بسبب أن المرأة لا تستطيع أن تدّعي أنها حقًا امرأة إلا إذا بكت ولو عددًا محدودًا من المرّات، لعدد محدود من الأسباب. هذا المساء والساعة تدق معلنة نهاية فترة صلاحيتها، تكاثرت الدموع في عينيها. هذه الدموع جاءت من بعيد، هذه الدموع لم تكن محمّلة بأقل قدر من اليقين، هذه الدموع هي من نوع الدموع التي لا تعرف شيئا. هذا النوع موجود. رفعت قميصها بالكامل، وكشفت عن الوشم على بطنها. نظر سباستين في ساعة يده، ثم نظر إلى البطن بدافع من حب الاستطلاع ليفحص الكتابة.

قال مندهشًا (كانت هي أنتِ؟).

قالت (كانت...).

t.me/qurssan

ـ ٦ ـ

حكاية رخوة

هناك عدد قليل جداً من القصص الرخوة؛ فالكتاب يفضّلون كل ما هو صلب إرادي جسور مغامر. الحرب والانتصاب والقلب الميّت القاسي، والطاقة العاشقة، هذه الموضوعات تكوّن المادة الخام الأوليّة للكتابات الأدبية عظيمة القيمة. وهكذا فإنّ الناس يحتقرون القصص الرخوة. في الحقيقة هذه القصص لا تمثّل أيّة أهمية. وذلك لأن الرخو لا يسمح لا بالهجوم الواضح الصريح، ولا بالمقولات القاطعة، إنه لا ينتصب. لا يثب. لا يقفز. لا يقف في الصف الأول. لا يأخذ المبادرة. إنه ينحني أحياناً مائلاً للنظر في ماضيه. لكن برخاوة، ولا يرى في ماضيه الا كل ما هو رخو. فالرخو لا يكون أبداً في حالة استعداد. قد نحاول أن نساعده على اتخاذ وضع الاستعداد. ولكنه لا يتمكن أبداً من الاحتفاظ بهذا الوضع، ويعود بالتدريج إلى وضع الرخاوة. الرخو أبداً لا يعضّ. أبداً لا يقبض على شيء بقبّضه. الرخو لا يلطم بعنف ولا يوجّه نقداً لاذعاً. هو غير قادر على التعبير عن قسوة الحياة. عن ضراوة الشتاء. عن شقاء الحالة الإنسانية. إنه لا يعرف كيف يتدحرج على الأرض مثل البليّ الذي يلعب به الأطفال.

t.me/qurssan

إنه لا يتقدّم بسرعة مثلما يفعل بطل في سباق درّاجات، إنه لا يقاوم ضد عدو الوطن. إنه حتى غير قادر على اتّخاذ وضع الاستعداد مثلما يفعل الجنود وقوفًا في الصف.

لا يجب أن نخلط بين الحنون والرخو. فالحنون ليس رخوًا. وبالمثل لا ينبغي الربط بين الرخو وبين المرن القادر على الانحناء في وجه العاصفة. فالمرن والمنحني كلاهما يختزن داخله أثناء مرونته وانحنائه الطاقة التي تعيده فيما بعد إلى وضعه الأصلي. ليس فقط أن الرخو لا يمكن تشبيهه بشخص آخر. لكنه كذلك لا يشبه شخصًا آخر. هو يمتص فقط ولا يعيد ما امتصّه أبدًا. ليس لديه ردود أفعال.

كان (جي فوين) رخوًا منذ مولده. نزل من بطن أمه مثلما يحدث عندما تتدلق المربى من البرطمان المقلوب. لم تستلزم عملية الوضع أي مجهود. لم تستلزم أي دفع من جهة الأم. أحدث الطفل بقعة صغيرة على الملاءة، والصيحة الصغيرة التي أطلقها ليثبت أنه حيّ كانت في خفّة بخار الماء. أمّا المولّدة التي شهدت مولد أصناف عديدة من الأطفال فقد قالت في نفسها إنها لم تسبق لها في حياتها رؤية طفل بهذه الرخاوة. فيما بعد ثبت أن الطفل الذي بدا جسمه رخوًا من الخارج، كان كذلك رخوًا من الداخل. كان ذكاؤه رخوًا. كانت معارفه بقدر معارف غيره من الأطفال، ولكن تلك المعارف التي كانت له ظلت هي الأخرى في حالة من الرخاوة. لم تكن طبيعة تلك المعارف الرخاوة، وذلك لأن المعرفة تحتفظ بطبيعتها، ولكنها أصبحت رخوة بسبب أنها أصبحت معارفه هو وليست معارف أحد آخر. في المناقشات بينما كان هو أحد أكثر زملائه ثقافة، كان هو دائمًا الطرف المغلوب. لم يكن يرى جدوى للتفاعل وللمعارضة. بالطبع كان يحدث له أحيانًا أن يتفاعل، لكن هذا كان يحدث بشكل يدلّ على التخاذل وانعدام الطاقة لديه، كما لو كان في سبيله إلى ترك نفسه للانزلاق على منحدر أو لهبوط درجات سُلَّم أو لاستعمال وسائل النقل العام.

t.me/qurssan

ذات يوم قرر زملاؤه أن يلعبوا معه بتركه محبوسًا داخل كيس قمامة. فاتخذ داخل الكيس الوضع الذي سمح له به الفراغ داخل الكيس. وعندما كانوا يغلقون عليه أحد الصناديق كان يتحرّى أن يشغل كل أجزاء الصندوق حتى زواياه. كان يقبل كل الأشكال والأحجام التي يفرضها عليه أغياره. كان يقبل أن يكون لعبة أو مصدر تسلية. وعلى العكس من الاعتقادات المسبّقة السائدة، التي يروّج لها سيّئو النوايا، فإن النساء ينجذبن إلى الرجل الرخو. بالتالي لم يجد (جي فوين) أيّة صعوبة في الحصول على زواج، بل وحتى في الحصول على حفل عرس. تزوّج فتاة من طينة طيّبة، سمينة أكول، كانت أبدًا لا تقول (لا). لم يكن له أن يجد من هي أفضل منها، ولم يكن هو من اختارها. كانا قد وجدا نفسيهما ذات يوم جالسين جنبًا إلى جنب في سيّارة نقل عام. منذ تلك اللحظة لم يترك أحدهما الآخر. كانت لها بطاقة شخصية باسم محترم مسجّل فيها، لكنها تركت الناس يطلقون عليها اسم (مومون).

خلال أسابيع لم يتبادلا أية حوارات أكثر من خمس كلمات. بعد ظهر يوم السبت يدعوها إلى المطعم الموجود في مجمّع الخدمات التجارية. كانا هناك يستمتعان بتناول طبق البسلة بالمقانق، مع البطاطس المهروسة، والحلو هو طبق من الأرز باللبن. كانا يتفقان تمامًا على تفضيل هذه الأطباق. كانا يختاران دائمًا نفس الأطباق. وهو ما أدّى إلى تقوية المشاعر العاطفية بينهما. كانت تلك الوجبات تدور في جو من الصمت التام. كانت ذبذبات التواصل بينهما تجد طريقًا للتعبير عن نفسها في بعض التنهُّدات أو في أصوات تتعلّق بتنظيف الأنف من المخاط. عندما كانا ينظّفان أنفيهما في نفس الوقت، كانا يرفعان أعينهما عن الأطباق وينظران كل منهما إلى الآخر ويبتسمان.

ذهبا ذات مساء إلى السينما. كان الفيلم مملاً لذلك استسلما للنوم. مالت رأس مومون وهي نائمة على كتف (جي) مما أيقظه. عندما حاول أن يعيد رأس مومون إلى وضعها الأصلي، لامست يده صدر المرأة الشابة.

t.me/qurssan

أعجبه هذا التلامس. كان شيئًا ناعمًا دافئًا رخوًا. أدرك فجأة أن شيئًا ما قد بدا له، لكن ماهية هذا الشيء كانت لا تزال غامضة. شعر كما لو أن حرارة جسده قد ارتفعت فجأة بمقدار درجة مئوية أو درجة ونصف الدرجة. هو لم يرَ في هذا ما يضايق. لقد سبق له قراءة أكثر من كتاب عن الرجال والنساء، وهو يعتقد في هذه اللحظة أنه تمكّن من تمييز أعراض المشاعر التي تجتاحه وإدراك أنها من النوع الذي يسمّيه الشعراء الحبّ، وهي أيضًا ما يسمّيه العلماء باختصار لذّة جنسية.

فكّر في نفسه (أنا في لذّة جنسية).

وحيث أن ردود أفعاله لم تكن أبدًا مباشرة، انتظر حتى صباح اليوم التالي حتى يجعل مومون تشاركه أفكاره، حول موضوع تأثير هرمونات الغدد على الجسم. في صباح اليوم التالي شربا معًا أكواب الشاي، وقرقضا معًا البسكويت، وهما يضيعان داخل أفكارهما. الا أن عينيّ كلٍ منهما كانت تتقابل مع عيني الآخر بقدر من الإلحاح. كلما زادت ملاحظته لنفسه، زادت قدرته على إدراك رغبته فيها. هي أيضًا كانت ترغب فيه. بدا ذلك واضحًا في الطريقة التي كانت تقرقض بها البسكويت. ومع ذلك لم تكن هناك عجلة. كان لديهما الوقت الكافي لفتح علبة ثانية من علب البسكويت. كانا يذيبان هذه المتعة بجرعات كبيرة من الشاي باللبن.

عندما مالت الشمس للمغيب، تولّد لدى (جي) الانطباع بأن مومون قد قامت بعمل حركة غير اعتيادية. لذلك أدار رأسه نحوها. رأى أنها كانت إلى حدٍ ما قد أبعدت ما بين فخذيها.

غمغمت (يبدو أنه ينبغي أن يحدث ذلك الشيء).

سألها إن كانت هذه المرّة ستكون هي مرّتها الأولى.

قالت (أعتقد).

بيّت النيّة على أن يكون دخوله رخوًا. اختلط لحمه بلحمها. أعار كل منهما نفسه للآخر. غلّف كل منهما جسد الآخر وأحاط به. تمّت كل

t.me/qurssan

الحركات ببطء شديد كأنهما يقومان بعجن جسديهما في فطيرة كبيرة. ابتلع كل منهما أجزاء من جسم الآخر. انتشر جسد كل منهما على جسد الآخر. إذا كان هناك شاهد على هذا المنظر ما استطاع أن يؤكّد أيّ الجسدين دخل في الآخر. اتّحد الرخو بالرخو ملتصقين بعضهما ببعض، لامعين بإفرازاتهما ومنهكين مثل لقمة ممضوغة بلعاب كثيف. كان قد دخلها دون أن يعرف بالتحديد أين هو. لم يكن يعرف حتى ما هو ذلك الطريق الذي سلكه للوصول إليها. لم يكن الطريق مفتوحًا أمامه بل يمكن وصفه بطريق قابل للنفاذ. تشبّع كل منهما بالآخر، كما لو كانا قد قاما بعملية تليين بالملاط لأجزاء جسديهما واحدًا بعد الآخر. درسا العناصر المختلفة التي يتكوّن منها جسد كل منهما على حدة. اختلطا واندمجا وامتزجا مثل بياض البيضة وصفارها. قطفا زهور اللذّة عند القمّة التي بلغاها معًا. لم يقض الحب على رخاوتهما، بل صنع من كتلتين كبيرتين كتلة واحدة فقط لكنها كبيرة كبر حجمهما معا.

تزوّجا لأن هذه هي عادة سكان أقاليم الريف. أعلن العمدة أثناء الاحتفال أن زواجهما يوحّد بين مصيريهما. أقنعتهما هذه العبارة في طريقة صياغتها بهذا الشكل أنهما بالزواج قد حقّقا مكسبًا كبيرًا. أعادا التفكير في هذه العبارة مرّات كثيرة، خاصة في المساء وهما يجلسان أمام التلفزيون. عبارة توحيد المصائر تعبّر بشكل أفضل عن معاني الأشياء من كلمة زواج. هذه الفكرة جعلتهما سعداء بشكل دائم. هما لم يكونا قد اعتادا أبدا على مثل تلك العبارات الكبيرة. كانا قد وصلا في الحياة إلى هذه المرحلة باقتناع تام في أنهما لا يستحقّان مثل هذه الكلمات الكبيرة. وأنهما لن يستحقّاها أبدا. هذه الصيغة الرسمية كشفت لهما أن كلاً منهما يمتلك مصيرًا. في الحياة أن يكون لك مصير هو شيء مهم.

آخرون غيرهم كان من الممكن لهم أن يرفضوا إنجاب أطفال. تنبغي المفاضلة بين إنجاب الأطفال والمصير. أما هما (جي) و(مومون) فقد حبتهما الطبيعة بألا يكونوا من بين الناس الذين يقيمون حساباتهم على

t.me/qurssan

الأنانية. فإذا لم يحصلوا على أطفال فذلك لأنهم كان من المقدّر لهم عدم الحصول على أطفال. فيما عدا ذلك ففي هذا الموضوع يلعب الحظ دورًا كبيرًا. لكن في مثل هذه القصص الرخوة عادة لا يوجد أطفال. لكن إذا كانت مومون قد وجدت نفسها ذات يوم حاملاً. ففي هذه الحالة كانت ستقبل نصيبها. لكنها لم تكن أبدًا حاملاً، ولذلك فهي قد قبلت مصيرها. و(جي) هو أيضًا قَبِلَ مصيره. كانت الأمور قد تمّت هكذا. لم يسألا أنفسهما الكثير من الأسئلة.

توالت الأيام بشكل رخو. عندما كان الحنين يعصف بهما، وهو ما قد يحدث أحيانًا في حياة الناس الذين يحبّون بعضهم بعضًا، كانا يأخذان سيّارة النقل العام التي كانا قد تقابلا فيها للمرة الأولى. كانا يحاولان شغل نفس المكانين اللذين كانت لهما تلك الذكرى العطرة المقدّسة في عقلهما المشترك. لم تخطر على بالهما أبدًا فكرة أن يذهبا إلى فينيسيا ليبحرا في قوارب الجوندول، أو أن يرحلا معًا في قطار الشرق السريع. في وقت ما اختمر في ذهنهما مشروع الذهاب إلى باريس، لمشاهدة برج إيفل وقوس النصر. لكنهما في اللحظة الأخيرة لم يجدا الطاقة الكافية لتنفيذ المشروع. ثم قدّم (جي) باقة زهور إلى مومون. ثم قدّمت مومون صندوقًا من البيرة الجيّدة إلى (جي). ثم احتفلا بالعيد العشرين لزواجهما فوق أريكة الصالون. مع أسطوانة لموسيقى آلة الأكورديون دارت في خلفية المشهد. مع نسمة من الهواء العليل حرّكت ستائر الغرفة. انتظرا بهدوء وسكينة اللحظة التي يبدأ فيها عرض فيلم السهرة في التلفزيون.

مضغت مومون الكلمات (إنه جميل الحبّ)

وافقها. لم تكن مومون تتحدّث كثيرا. لكنها عندما كانت تقول شيئًا تكون عادة قد فكّرت فيه طويلا قبل أن تقوله. في عشرين عامًا كان وزن كل منهما قد أصبح ضعف ما كان عليه قبل الزواج. أفادهما الحب في ذلك.

t.me/qurssan

سألت مومون دون قلق أو انفعال (هل ما زلت تحبّني بنفس القدر الذي سبق وان أحببتني به؟).

أكّد لها (جي) بقدر كبير من التحفّظ والرزانة وقدر أقل من الدلال (أحبّك الآن أكثر من حبّي لكِ سابقًا).

لم يكن يبالغ فيما قاله. هو يعتبر أنه فعلاً لم يحبّها أبدًا بنفس القدر الذي يحبّها به الآن. في برنامج من برامج الطبخ في التلفزيون، اكتشفت هي أسرار طبخ اللحم المفروم بطريقة الشيف بارمونتييه، ومنذ تلك اللحظة وهي تعدّ له هذا الطبق مرة كل أسبوع في يوم الأربعاء. إنه بفضل هذا النوع من السلوك يتأكد الزوج من استمرار صدق مشاعر زوجته نحوه. ومع ذلك فإن تلك الأخيرة كانت قد نامت مرّة مع أحد ممثلي شركات التجارة الذين يطرقون الأبواب، ومرة ثانية مع أحد الجيران. كان يمكنها أن تعترف بذلك لزوجها. إذ إنه رجل يفهم الحياة. فكرت في ذلك لبضعة أيام، ولكن لم تأتِ الفرصة المناسبة.

على أية حال لم يكن هذان الرجلان قد حاولا معها إلا بدافع الفضول. فهناك سحر وجاذبية ما في المرأة الرخوة. كما أن هناك سحر وجاذبية ما في المرأة العرجاء. في عمق المسألة كان الرجلان قد ناما معها بدافع من الرغبة في الحصول على معلومات. لم يكن لديها ردّ فعل رافض حتى تدفعهما بعيدًا عنها. وهما من جهتهما لم يتركا لها وقتًا كافيًا. كانت هي من نوع النساء اللائي يتركن عواطفهن تنضج على نار هادئة. كانت تفكّر طويلاً فيما تفكّر، حتى تقتنع أنها تفكّر فيما تفكّر فيه فعلاً. حتى القرارات التافهة كانت تستلزم منها ساعات طويلة من التركيز. في الواقع هي كانت قد تركت لهما نفسها مأخوذة بالمفاجأة. فيما بعد لم تعد تفكر في تلك المسألة أبدًا. باستثناء تلك اللحظات التي كانت ذاكرتها تعود فيها بالصدفة إلى هذه المنطقة من الذكريات. بعد بضع سنوات، وعند عودتها من العمل، كان (جي) يجلس بارتخاء على الأريكة.

t.me/qurssan

تنهّد قائلاً: (اليوم أشعر بأني رخو).

لم تجد مومون أنه يبدو مريضًا. قد تكون بطنه منتفخة بعض الشيء. وجد بعض الصعوبة في خلع حذاءيه. ثم بدا من الواضح أنه تأخر في سرعة عملية خلع ملابسه عن معدّل سرعته العادية. هو لم يكن أبدًا رياضيًا. ثم إنه منذ فترة ما كان قد توقّف حتى عن الخروج إلى الشرفة التي كان معتادا فيما مضى على الجلوس فيها لاستنشاق الهواء بعد وجبة الغذاء أو العشاء.

قالت هي أيضًا بدافع من التعاطف والتعاضد (أشعر أنا أيضًا بأني رخوة إلى حدٍ ما).

ثم تداعت إلى جواره على الأريكة. استمتعا هناك لمدة بضع ساعات بحالة من الجمود التام عن الحركة. كانت تلك هي بداية النهاية. ينبغي قول هذا على الفور. شعرا بعد ذلك بأنهما يزدادان رخاوة يومًا بعد يوم. في بعض الأمسيات لم تكن لديهما الشجاعة حتى لفتح التلفزيون. وبما أنهما لم يستطيعا أن يحرما نفسهما من كل شيء، فقد حلاّ المشكلة بتركهما الجهاز يدور لمدة أربعة وعشرين ساعة في اليوم طوال سبعة أيام في الأسبوع. عندما انتهت من مطبخهما وثلاجتهما مواد الإعاشة من مأكولات، اتصلت مومون تلفونيًا بالبقالة، وطلبت من خدمة توصيل الطلبات إلى المنازل، بعض الأطباق المطبوخة الساخنة، وبعض قوالب الكيك والحلويات، وبعض صناديق البيرة وشرائح البطاطس الجافة، وبعض الخبز، بالاضافة إلى المأكولات الأخرى سهلة الإعداد.

لم يعودا يغادران الأريكة حيث كانا يشعران بالراحة. من وقت لآخر كان أحدهما يسأل الآخر عن الأخبار.

(هل ما زلت تشعر أنك رخو؟).

قد يأتي الجواب وقد لا يأتي. فإذا جاء الجواب يكون هذا في العادة بعد مرور وقت طويل على إلقاء السؤال. أغلب الأسئلة كانت تتعلق بمسائل

t.me/qurssan

منزلية، تشير إلى ثورتهما على ارتباك نظام حجرة الإقامة. لكن إرادتهما كانت أضعف بكثير من أن يتلوها فعل محدّد. الشيء الوحيد الباقي من بين الأفعال المقدور عليها هو الذهاب إلى دورة المياه وشغلها لفترة حيث تتساقط عنهما بقاياهما فقط بفعل الجاذبية الأرضية. في منتصف ليلة أسلم التلفزيون الروح. لم يكونا لا حزانى ولا قلقين. لم يكونا حتى مندهشين مما يحدث لهما. لم يشعرا بأنهما مريضان. لم يشعرا بأي ألم في جسديهما. كانا فقط يشعران بالمزيد من الرخاوة يومًا بعد يوم. لم يكن هذا سببًا كافيًا لإزعاج الطبيب. من جهة أخرى هما لم يفكرا حتى في اللجوء إلى طبيب.

استيقظ (جي) على الهدوء غير المعتاد وعلى رائحة احتراق خفيفة. كان لديه الإحساس بأن هناك عنصرًا ناقصًا من عناصر منظره اليومي. لم يكن قادرًا على تحديد ماهيّة هذا العنصر الناقص بسبب ما هو فيه من رخاوة زائدة. كانت مومون تتنفّس بالقرب منه. كانت مومون قد أصبحت قريبة الشبه بمستنقع صغير من اللحم والشحم، تختلط فيه هذه العناصر مع عناصر أخرى قماشية، وتتدلّى بعض هذه العناصر لتصل إلى خشب أرضية القاعة، حيث تبدأ في عملية الانتشار لتختلط بما في القاعة من بقايا ما استهلكاه من أطعمة. أثناء النهار سرحت عينا (جي) في عملية طَفْو فوق سطح جسده. كانت العينان تشبهان حبّتي فاكهة فوق مفرش من اللون الأبيض. كان يودّ لو قال لنفسه (كم هو صعب أن تشيخ)، خاصة بعد أن كان قد عاش حياة ناجحة ومُرْضِية تمامًا بكل المقاييس وفي كل المجالات. في الحقيقة كان يودّ أن يعبّر عن بعض الأسف. أو حتى مجرّد أن يشعر ببعض الغيظ والضيق. حتى فكرة الإحساس بالألم كانت تعجبه. فالألم ينقل الإحساس بوجود قدر من الانحطاط في القوى. إلا أنه للأسف لم يكن يشعر بأي ألم، وحتى مومون كذلك لم تكن تشعر بأي قدر من الألم. ولا حتى آلام مفاصل العظام وآلام الأعصاب.

t.me/qurssan

لم يكن يشك في أي شيء. لم يعد يفكّر في أي شيء. رغم أنه لم تعد لديه إلا خمس دقائق ليعيشها في حياته. تحول لون النهار إلى الأزرق، في الزاوية العليا من نافذة الحجرة. هذه الإضاءة النهارية لم تثر في نفسه شيئا محدّدا. لم تختلط تلك الإضاءة النهارية بالإضاءة الداخلية صفراء اللون لسقف الحجرة، لكن الأزرق تغلب على الأصفر وجعل حجمه يتقلّص. مات (جي) وهو يشعر أنه يغوص في شيء أكثر رخاوة منه. لم يكن هذا الشيء محبّبا أو غير محبّب. كان يودّ لو تحدّث عن شعوره في هذه اللحظة إلى مومون. افترض أنه سيغرق طويلاً في هذه الرخاوة التي ميّز فيها المادة الأوليّة التي كان قد صُنِعَ منها. عندما استيقظت مومون كان (جي) قد مات منذ ساعتين. كان ضوء النهار يملأ الغرفة. إضاءة سقف الحجرة كانت باهتة تمامًا في مواجهة الضوء النهاري. رأت (جي). كان لا يزال يبدو لها أكثر امتلاء بالحياة مما هو عليه حاله في الأحوال الاعتيادية وهو ما جعلها تتفاءل. ثم حدث أن ماتت هي الأخرى بنفس القدر من الرخاوة. ماتت مثل زوجها، وأصبح كل شيء مستتبًا.

t.me/qurssan

ـ ٧ ـ

ذكرى فريد

تغيّر فريد جدًا إلى درجة أن توني لم يعد يتعرّف عليه. كان توني يمرّ بفريد كل يوم عند ذهابه إلى الخبز. ثم اختفى فريد لمدة أسبوع. عَلِمَ توني أن فريد كان في رحلة إلى إفريقيا مع أحد أندية الرحلات. في المعتاد أنهما عندما يلتقيان كانا يبتسمان أحدهما إلى الآخر بشكل مَرِح، ثم يتصافحان باليد. ثم يتبادلان بعض الكلمات التي لا تعني أي شيء ولا تلزم أيًا منهما الا بالوعد باستئناف تبادل التحيّة صباح اليوم التالي. ورغم أنهما لم يكونا صديقين فإنهما كانا يعرفان أحدهما الآخر ولو فقط بالنظر.

ثم عندما عاد فريد ورآه توني لأول مرة، ورغم أن هذا قد يبدو غير قابل للتصديق، أصبح لون بشرة فريد أسود. هو ليس لون بشرة محترقة بفعل التعرّض لضوء الشمس، بل هو لون بشرة سوداء. عندما رأى توني أن فريد يأتي نحوه على نفس الرصيف مادا يده، قال توني لنفسه:

(إن هذا الآتي نحوي يبدو مثل فريد، لكنه يبدو أكبر حجمًا منه، ثم إنه لا يمشي بنفس طريقته).

t.me/qurssan

ومع ذلك فقد مدّ له يده بردّ الفعل المعتاد وقال:

(ماذا حدث لك يا فريد؟ إنك تبدو أسود اللون. أعرف جيدًا أنك ذهبت إلى إفريقيا، ولكني لا أفهم كيف أصبحت تبدو هكذا).

في الحقيقة إن تغيّر شكل فريد كان منظرًا مثيرًا جدا لانتباه الجميع، فقبل سفره إلى إفريقيا كان يمكنه أن يصبح أي شيء آخر عدا أن يصبح أسود اللون. كان وجهه مستديرًا وردي اللون. وكان شعر رأسه كستنائيًا فاتح اللون.

(بصراحة يا فريد، لم أكن قادرًا على تمييز أنك هو نفس الشخص، فأنا لم أرك أبدًا في مثل تلك الحالة. ولم أتوقّع أبدًا أن أراك في مثل هذه الحالة في يوم من الأيام. هل هو شيخ القبيلة الناسك وليّ الله من فعل بك هذا؟).

لم يكن فريد يرى أيّ ضرر من الاعتراف بأنه ضحيّة لأحد شيوخ القبائل. ثم هزّ رأسه موافقًا ومبتسمًا مثل عبيط القرية. كان قد ذهب لشراء الخبز وعاد ممسكًا قرب جسده برغيفين طويلين من نوع الباجيت.

تنّهد توني قائلاً (شيء مضحك إلى حد ما أن أراك بهذا اللون) ثم استأنف طريقه نحو المخبز.

ظلّ طوال اليوم يفكر في فريد. تذكّر أنه شاهد عدّة مرّات في التلفزيون برامج عن القدرات الخارقة لسحرة إفريقيا. بالنسبة إليه بعقليته العلمية الفلسفية كانت مثل تلك القصص تنتمي بالأحرى إلى عالم الخرافات الشعبية الفولكلورية. لم يقتنع ولا مرة واحدة بمصداقية ما كان يقدّمه علماء الأجناس من تفسيرات عن القدرات الخارقة لسحرة إفريقيا. كان هؤلاء العلماء يبدون مقتنعين بما كان يُقال لهم. إنها طريقة يحاول بها هؤلاء العلماء صبغ موضوعات دراساتهم بما قد يوحي بأنها جديرة بالثقة في جدّيتها. فعندما يدّعي أحد السحرة قدرته على تحويل أحد الأعداء إلى شجرة، ينبهر عالم الأجناس البشرية، وينشر الموضوع بقدر من

t.me/qurssan

الإعجاب والتقريظ. السحرة بشكل عام يقدمون على فعل الأعاجيب لكن توني لم يسمع أبدًا بقدرتهم على تحويل لون البشرة من أبيض إلى أسود. وذلك لأن المبالغات لها حدود حتى في إفريقيا.

في صباح اليوم التالي يصافح توني فريد مرة أخرى، ثم يقول له بصوت قلق (يا صديقي المسكين، أتمنى فقط أن أعرف منك أن هذا الوضع الجديد غير مؤلم).

طمأنه فريد وهو يبتسم بكل ما في فكّيه من طاقة على الابتسام قائلاً: (أشعر أنني في أحسن حال).

(لم تدرك ما حدث لك في حينها؟).

(لا).

(متى أدركت أنك قد أصبحت أسود؟).

(عندما رأيت نفسي في مرآة).

(هل كانت قد مرّت بضعة أيام على تحوّلك إلى اللون الأسود؟).

(من المؤكد).

(أصبحت أسود دون أن تعلم بذلك. هذا مروِّع. أن تعتقد أنك أبيض ثم تجد نفسك أسود).

غادرا دون حلّ لهذا اللغز. في المخبز أشار توني إلى هذه المعضلة. فكّرت مديرة المخبز وهي تتمخّط لأنها كانت مصابة بدور برد مع رشح من الأنف طوال العام.

قال (هل رأيتِ ما حدث لفريد؟ ماذا تعتقدين فيه؟).

قالت (أنت تعلم أننا بحكم كوننا في مهنة التجارة لا نستطيع أن نقول شيئًا).

قال (ومع ذلك فإن لونه أسود جدًا).

t.me/qurssan

قالت (أعتقد أن لونه هو اللون الأسود المعتاد)

توني لم يصرّ على موقفه. فالخبّازون لا يقولون أبدًا ما يعتقدونه في الحقيقة. فبالنسبة إليهم الزبون ليس شخصًا. وإنما هو عدد من العملات المعدنية على رخام النضد. ما يهمّ الخبّازون فيما يتعلق بالناس ليس هم الناس أنفسهم ولكن هي كمية الخبز التي يستهلكونها. هزّ توني رأسه ثم غمز بعينه. هو يفهم الخبّازة بالإشارة. لأن صمتها يعني الكثير. على أي الأحوال هذا هو ما يعتقده توني. كل الأيام كان طريق توني يتقاطع مع طريق فريد في الذهاب إلى الخبز الطازج. كان توني يمدّ له يده مصافحًا ثم يبدآن في الحوار. بعد مرور أسبوع شعر توني بأنه قد أصبح واثقًا من نفسه إلى حدٍ كافٍ ليعرض على فريد حقيقة أفكاره.

بدأ (هل تريد أن أقول لك يا فريد...

قال فريد دون أي شعور بالاندهاش (بالطبع أريد).

(لنتفق على أنك أسود، ولكن لنتفق كذلك على أن هذا لا يناسبك).

قال توني (ولكني مضطر إلى قبول الأمر الواقع).

(أعرف تمامًا ولكن هذا الوضع الجديد لا يناسبك، فأنت في الماضي كنت أفضل).

(كيف كنت في الماضي؟).

(كنت أفضل).

(ربّما أنك لا تحب اللون الأسود؟).

(لست ضد اللون الأسود يا فريد، فاللون الأسود جيد جدًا ولكن ليس فوق وجهك. أنت لم تُخلَق لتكون أسود. أنت أصبحت أسود بالصدفة. وبما أن هذا قد حدث لك أثناء رحلتك الإفريقية، فيمكنك أن تتحول إلى شركة السياحة لمقاضاتها. أو لطلب إصلاح الأوضاع وإعادتها إلى ما كانت عليه.

t.me/qurssan

أو لطلب الحصول على تعويض. لو كنت في مكانك فهذا هو ما كنت سأفعله).

لم يكن يبدو على فريد أنه يريد أن يترك نفسه يقتنع بكلام توني الخاص بالذهاب إلى القضاء. لم تكن لديه النيّة. كان ينصت إلى توني بابتسامة مهذّبة. أو بالأحرى كان يتركه يقول ما يعنّ له.

تحيّر توني قائلاً: (أنت لا تستطيع أن تظل بهذا اللون يا فريد. يجب أن تفعل شيئا. دافع عن نفسك. هاجم).

أصبحت نهارات توني مليئة بمثل هذا النشاط. فكلما زاد تفكيره في فريد كلما زاد غضبه. كان يتساءل لماذا يبدو فريد مستسلمًا لهذا المصير. لم يكن توني يرى أيّ مزايا يمكن لفريد أن يجد في البقاء أسود، بعد أن كان أبيض اللون طوال تلك السنوات العديدة. كان مصرًا على الحديث معه بجدّيّة. كانت مشكلة فلسفية. ليست أقلّ من ذلك. في اليوم التالي كان فريد هو السابق إلى الحوار

قال (توني لا تناديني فريد بعد الآن، فكما غيّرت لوني فقد غيّرت اسمي كذلك. ففريد لا يصلح اسما لشخص أسود اللون. منذ هذه اللحظة اسمي هو سولوموند) Seul·au monde وتعني وحدي في العالم.

(لا ليس هذا صحيحًا فاسمك هو فريد).

(لا فأنا في الحقيقة سولوموند. هل تريد أن ترى أوراقي الشخصية؟).

ثم عرض عليه بطاقته الشخصية وبها اسمه الجديد. وقد تطابقت الصورة الموجودة بالبطاقة الشخصية مع صورة فريد.

صرخ توني (هذا لا يمكن تصديقه).

في البلاد التي نعيش فيها حيث يسود المنطق في الكلام، تصبح الحوادث الأقل أهمية من هذه الحادثة مدعاة إلى الجنون. بمجرّد أن يلتوي النظام الروتيني المعتاد، فإن الرجل المحلّي يغرق في الكآبة. وهذا هو ما وقع لتوني. فبالنسبة إليه فقدت الحقيقة جزءًا هامًا من مصداقيتها.

t.me/qurssan

فإذا كان رجل أبيض يذهب إلى المخبز يمكن أن يُستبدل به رجل أسود يذهب إلى المخبز بين يوم وآخر، فهكذا يمكن أن نشكّ في كل شيء، وأن يحاول كل منا أن يحمي نفسه من خطر الوقوع ضحية تحوّل شكلي ظاهري إلى مسخ مسخوط، دون معرفة الصيغة التي أدّت إلى هذا التحوّل. تساءل توني بينه وبين نفسه إن لم يكن من الأفضل الآن تغيير الوقت الذي يذهب فيه إلى المخبز. كان هذا الموضوع يحطّم قلبه. التفكير في التحوّل الذي وقع لفريد وأدّى به إلى هذا الانسخاط. لم يعد توني في داخله يدعوه إلا بفريد المسكين، أو صديقي المسكين. لكنه منذ عشرين عامًا يذهب إلى المخبز في الساعة العاشرة صباحًا. هذه هي من العادات التي لا نغيّرها أبدًا. وإلا فإن الريف لا يعود ريفا، والخبز لا يعود خبزًا يوميًا.

في حالة من اليأس المسبّب، كان توني قد انتوى نسيان فريد. ونجح في تجاهله. حتى أنه قال في نفسه إن فريد لم يكن أبدًا موجودًا. إنه لم يكن إلا نزوة من نزوات خيالاته. خلال العشرين عامًا السابقة لم يكن من يقابله على الرصيف بين منزله وموقع المخبز إلا هذا المدعو سولوموند. فريد لم يكن الا خطأ نتج عن سوء التقدير. كان يعتقد أنه يراه. إلا أنه كان قد جانبه الصواب. فريد كان أسود من أصول سوداء. كان قد اعتقد أنه أبيض بسبب أنانيته. أنانية توني الذي - بسبب كونه أبيض - أراد أن يرى كل شيء أبيض. مثله تمامًا. كان قد بدأ في النظر إلى نفسه في المرآة بشكل متكرّر. تتنازعه مشاعر حزينة متزايدة، تتكوّن بالتساوي من الخوف والأسف. مرّت بضعة أشهر قبل أن يصل إلى حالة من الاستقرار في أفكاره، وقبل أن يعود إلى خفّة الروح التي كانت تميّزه، خلال الزمن السابق على رحلة فريد إلى إفريقيا. عاد الوضع إلى الاتزان بالتدريج. عاد إلى توني الاحساس بالسعادة عند لقاء سولوموند في الطريق. وعند مصافحته. وعند التحدّث إليه لدقيقة أو لدقيقتين. لم يعودا مطلقًا فيما بعد إلى الحديث عن ذكرى فريد. لم تعد هناك إذن مشكلة. لم يعد توني يتذكر حتى أنه ذات يوم كان قد حلم بأن رجلاً كان يلقاه كل يوم في

t.me/qurssan

الطريق إلى المخبز، قد مات في حادثة طائرة أثناء رحلته إلى إفريقيا، حيث كان يقضي إجازة لمدة أسبوع. كان الحلم واضحًا جدا لدرجة أن توني اعتقد أنه كان خبرًا حقيقيًا قرأه ذات يوم في صفحة الحوادث بالجريدة.

بعد مرور عامين أو ثلاثة أعوام، أعلن سولوموند إلى توني، أن سيغيب لبعض الوقت. أنه سيعود إلى قريته في إفريقيا لقضاء اجازته هناك. اغرورقت عينا توني بالدموع. هي دموع لم يكن لها أي مبرر على الإطلاق. أدرك توني غباء دموعه واعتذر عنها.

قال سولوموند (وأنا أيضًا أحبّك يا توني).

قال توني (احترس من السحرة الأشرار فأنا لا أريد أن يصيبك منهم مكروه).

لم يعرف على وجه الدقّة لماذا نطق بهذه الكلمات التخريفية. كان لديه الانطباع بأن الناس قد لا يعودون دائمًا من رحلاتهم. هم يذهبون ثم يتغيّر كل شيء. هم عندما يعودون لا يكونون نفس الناس الذين عرفناهم سابقًا لمدة عشرات السنوات. تبادلا المصافحة باليد من جديد بشكل أكثر حرارة مما كان يحدث عادة في النهارات السابقة.

قال سولوموند (إلى اللقاء).

هذه العبارة (إلى اللقاء) الممتلئة في نفس الوقت بالقوة والحزن، أعادت إلى توني ذكرى فريد.

قال سولوموند واعدًا (سأرسل إليك بطاقة بريديّة).

كل الناس الذين يسافرون يقولون دائمًا نفس الأشياء. فكّر توني أن فريد أيضًا كان قد وعده بإرسال بطاقة بريدية. انقبض قلبه. ابتعد سولوموند ورغيف خبزه تحت ذراعه. استأنف توني طريقه إلى المخبز. ليشغل رأسه بالتفكير في شيء ما حاول أن يقارن بين حالتين سائلاً نفسه إن كان هناك فرق بين رجل ذاهب إلى المخبز وبين رجل عائد منه. وقد دفع هذا التساؤل في ذهن توني بذكرى فريد إلى الماضي البعيد.

t.me/qurssan

ـ ٨ ـ

مسيرة بلا أخطاء

كان هناك رجل آخر في حياة مدام بيلفو غير زوجها مسيو بيلفو. كان مسيو بيلفو مدرسًا للغة الفرنسية، ولذلك كان دائمًا ما يصحّح لزوجته الأخطاء اللغوية التي كثيرًا ما كانت تقع فيها. كان هذا هو السبب الذي جعلها تشعر بالملل منه. في بداية زواجهما اعتقدت أنه كان بمقدورها أن تصل إلى مستواه اللغوي، بأن تتعلم منه بعض الالتفافات اللغوية المألوفة لدى كبار الكتّاب، وأن تستعمل بشكل سريع بعض تصريفات الأفعال الصعبة، وبعض التحويلات المستعملة في التفريق بين المبني للمجهول والمبني للمعلوم، بالطريقة التي تجعل الناس المثقفين العارفين باللغويات يتميّزون عمّن عداهم من الناس المحيطين بهم قليلي المعرفة. حتى أسلوب الربط بين نهايات الكلمات وبدايات الكلمات التي تليها لم تكن قادرة على إتقانه. هذا هو ما كان يؤدّي لدى زوجها إلى زيادة إفرازات غدده التربويّة التعليميّة.

فهو لم يترك أبدًا أية فرصة تفلت منه لتلقينها درسًا تربويًا جديدًا. بالتالي وعلى المدى الطويل شعرت هي بالمهانة والتحقير. كانت ابنة لعازف

t.me/qurssan

على آلة الأكورديون. فإذا كان في هذه الآلة الكثير من البساطة والمشاعر الطيّبة، فهناك كذلك وفوق كل شيء آخر الكثير من الزهو والافتخار. إنها نوع من الآلات الموسيقية التي تتألق فوق خشبة المسرح. تحت الأضواء الغامرة. في جو عام من الانتصار. خلال حوالي نصف قرن كان والدها هو الذي أحيا كل حفلات الرقص في المنطقة. عندما نكون قد ولدنا لأب جعل كل هؤلاء الناس يرقصون خلال كل هذه المدّة. يكون لدينا الحق الشرعي في الإحساس بأن لنا أهميتنا الخاصة. حتى أهميّتنا فيما يتعلق بالمجالات اللغوية. أهم ما في اللغة هو أن يفهمنا الآخرون. هكذا كانت هي تعتقد. في حين أن مسيو بيلفو لم يكن يفهمها.

كان يعاتبها قائلاً: (هذا ليس من اللغة الفرنسية في شيء، ما قُلْته للتو. فأنا لا أفهم إلا اللغة الفرنسية. عبّري عن نفسك باللغة الفرنسية عندها يمكنني أن أردّ عليكِ).

كان يتحدّث إليها بالصبر والتأنّي اللذين عادة ما نخصُّ بهما المتخلفين عقليًا وبسطاء التفكير وكذلك الحيوانات المنزلية عندما نتحدّث إليهم.

كان يقول لها موضّحا مقاطع الكلمات (كرّري خلفي).

كرّرت كل أنواع الأشياء موجبة العِبْرَة. قواعد الأجروميّة. طرق نطق الكثير من الكلمات المَرْبِكة. أبيات من الشعر لفيكتور هيجو. كانت استجابتها الظاهرة له تتساوى مع لامبالاتها العميقة بما يقوله. كانت تكرّر خلفه لكنها لم تكن تستوعب شيئًا. كانت تدور في رأسها ألحان موسيقية من عزف آلة الأكورديون لمقطوعات من التانجو ومن الفالس. مقطوعات قديمة في أغلب الأحيان، كانت قد استمعت إليها في طفولتها، عندما كان والدها يتدرّب عليها في صالة الطعام مع أفراد فرقته. هذه الموسيقى كانت تعود إلى رأسها في كل مرة كانت تشعر فيها بالحزن والتعاسة، لترفّه عنها بعض الشيء من الضيق الذي تتسبب فيه علوم ومعارف زوجها.

t.me/qurssan

رغم ذلك فقد حدث ذات يوم أن أرادت أن تنتحر بإلقاء نفسها في الماء. في اللحظة الأخيرة دفعتها يدان كبيرتان عَفِنَتان لإعادتها إلى أعشاب الشاطئ. بهذه الطريقة تعرّفت إلى (تارجيت) الذي كان رجلاً بدينًا جدًا.

قال لها وهو يضغط يديها بين يديه (لا ينبغي أن تموتي قبل أن يحين أجلك).

دعاها إلى احتساء قدح من القهوة. وفقًا له كان عليها أن تتعافى من تلك العواطف التي دفعتها إلى هذا الفعل. كان يقطن منزلاً صغيرًا إلى الجهة الأخرى من الطريق، حيث تتراكم في ثلاث غرف كل الفوضى الممكنة والمتخيَّلة التي يمكن أن توجد في مكان واحد. وأشياء أخرى أيضًا كان (تارجيت) على ما يبدو هو الوحيد في العالم القادر على إدراك فائدتها.

نبّهها قائلاً: (لا ينبغي الالتفات إلى عفش البيت، فأنت لا شك تعرفين معنى أن يعيش رجل وحيدًا في بيته).

ستعرف في وقت قصير أنه يحبّ الأكورديون، ولحم فخذ الخنزير المملح، والجبن الكاممبار. عرفت كذلك أنه لم ينجح في فعل أي شيء جيّد في حياته. هذا لا يثير فيه أي مشاعر بالخزي أو العار وإنما العكس هو الصحيح.

(إن رجلاً في مثل حجمي ووزني يتعب دون حتى أن يبذل أي مجهود في أي عمل. حتى الذهاب إلى النوم بكل هذه الدهون هو عمل مرهق).

بشكل تقريبي كانا يتحدّثان نفس اللغة الفرنسية. هو يرتكب نفس الأخطاء. ويتردّد أمام استعمال نفس الكلمات. ويتجنّب مراوغًا بحذر الصيغ التي تبدو له غريبة وشاذة. لكل هذه الأسباب أحبّته هي على الفور. حتى قبل مرور ساعة واحدة على تعارفهما.

t.me/qurssan

قالت له وهي تعدّ على أصابعها (مسيو تارجيت: أنت أنقذت حياتي. أنت ملاك أرسلته لي السماء. أنت تعجبني. يمكنك أن تفعل بي ما تريد).

كان قد شاهد الكثير من عجائب الوجود خلال حياته حتى أنه لم يعد هناك شيء يمكن أن يدهشه. وكنوع من المجاملة لها لم يجرؤ على أن يحتجّ عليها لقولها إنه ملاك من السماء. طبعًا نظرًا لما يعرفه هو عن نفسه بدت له تلك الفكرة غير مناسبة. ومع ذلك فإنه كان سيكره نفسه لو أنه عارض أي شيء تقوله تلك المرأة. فإنقاذها من الموت يعني الكثير لها. أما بالنسبة إليه فلم تكن تلك المسألة تتعدّى قدرته على منع ارتكاب المزيد من الأفعال الحمقاء.

قال لها (لقد جذبتك من الماء مجّانا أي دون أن يكون لي في ذلك أي غرض آخر. وما فعلته معك كان يمكنني أن أفعله مع أي شخص آخر. عندما نتمكّن من أداء خدمة لشخص قريب، خاصة في حالات شبيهة بحالتك، لا يصحّ تأجيل أداء الخدمة إلى اليوم التالي. لا تشكروني فإن السعادة هي لي أنا وليست لكِ أنتِ).

فيما بعد كانت تعود بانتظام إلى منزل (تارجيت) ممتلئة بشعور العرفان بالجميل. كانت تعود ثلاث مرّات على الأقل في الأسبوع. كانت تجلس إلى جواره. كان يقدّم لها فنجانًا نصف ممتلئ بالقهوة. ثم يجلسان لتبادل أطراف الحديث لمدة بضع ساعات. كانت موضوعات تلك المناقشات غير مترابطة ببعضها البعض. كان كل منهما يتحدّث مشيرًا إلى موضوعات تتعلق بماضيه. كانا يتبادلان الآراء المتعلّقة بالمجتمع وبسلوكيات الإنسان المعاصر. حكت له عن محاولات زوجها لمساعدتها على التعبير اللغوي السليم.

تذمّر تارجيت (لم أكن أبدًا أحبّ المدرسة. لم أكن سيّئا ولكني مع ذلك كنت دائمًا الأخير على الفصل. ولو كانت هناك أماكن أخرى أسوأ من الأخير على الفصل فهي كانت محجوزة لي. كانت أسوأ نتائجي دائمًا في

t.me/qurssan

عادة الإملاء. يبدو أن هناك بعض علماء اللغة الذين كانوا في ذلك الوقت قد قاموا بعمل دراسات حول أخطائي في الكتابة. كانت أخطائي تلك تتعدّى حدود الإمكانيات البشرية. كانت الأمور على ما يرام عندما أتحدّث. يبدو أنه من الأسهل إرضاء الأذن عن إرضاء العين).

كان قد أسعدها أن تذكر له أنها كانت تجد نفسها في نفس الموقف. فأخطاؤها هي كذلك كانت هي الأخرى مشهورة. كانوا يتحدّثون عنها طويلاً في سقيفة أفنية المدارس. ثم تحوّلت إلى موضوع للضحك بين المدرّسين كما لو أنهم الوحيدون الذين يعرفون كيف يسخرون. كان هذا يتفاوت بين الاحتقار وبين الرغبة في التحقير من الشأن أو الإهانة.

سألها (لماذا اتخذك هذا الرجل زوجة إذا كانت لا تعجبه طريقتك في الكلام؟).

قالت (يجوز بسبب أنه لم يكن في البداية يتركني أتكلم. كان هو المتحدّث الوحيد طول الوقت، فلأنه مدرّس فهو يعرف أشياء كثيرة كان يريد استعراضها أمامي. هو يعرف أنه يتحدّث أفضل من الآخرين فلماذا يتركهم يتحدّثون. هذا هو ما كنت قد أدركته).

كان تحليلها دقيقًا. ففي البداية كان لدى مسيو بيلفو الكثير ليقوله لها. الكثير من العلم لتشاركه فيه. الكثير من الثقافة التي يوزّعها حوله. حتى أن أيامًا بطولها لم تكن تكفيه للقيام بواجبه الرئيسي في الحياة. شعرت بأنها قد سقطت في دوّامة عنيفة من أضواء المعارف. ولم يكن بيلفو يفقد حماسه أبدًا. كانت لديه تفسيرات لكل شيء. كل شيء كان يوحي إليه بمؤتمرات يبدو له أنه من المناسب أن يحاضر فيها. علوم الرمزية السيميائية، وعلوم اشتقاق الكلمات، وعلوم الفصاحة، وعلوم اللسانيّات. كان يتلو من الذاكرة الأقوال المأثورة الأكثر شهرة، وأبيات الشعر من تراث اللغة الفرنسية القديمة. بئر من المعارف. كان يعطي الانطباع بأنه قد حفظ عن ظهر قلب مكتبات بأكملها. ليس هناك ما يمكن له أن يخرج عن

t.me/qurssan

حيّز أحكامه. كانت الأحداث السياسية الأكثر سخونة توحي إليه بعبارات من لغات ميّتة، لم ينجح كونها لغات ميتة في القضاء على هذه العبارات. كان يطالع كتابات اختفت من التاريخ ينجح في أن يجد فيها المزيد من الإجابات على الأسرار. كان يتحدّث رافعا التكليف وصيغ الاحترام عن الأرباب والأنبياء. ثم إنه عندما كان نادرًا ما يحدث - أثناء مؤتمراته تلك - أن يوجّه إليها سؤالاً في أحد الموضوعات وتبدأ في الإجابة عليه، بأسلوب الخجل الذي يحسّ به من يعرف أنه لا يعرف، ومن يعتقد أنه أقل في المستوى من المتحدّث إليه، كان لا ينصت إليها على الاطلاق بل يقاطعها مستأنفا الحديث عمّا كان يقوله قبل توجيه السؤال إليها.

قالت (هكذا كان هو. لم يدرك في الحقيقة أنني لا أتحدّث بفرنسية صحيحة لأنه لم يكن في الحقيقة يسمعني. وإنما أدرك هو هذا شيئًا فشيئًا وببطء. رغم أنه في يوم الزفاف اعترض على طريقة نطقي للكلمات في ردّي على أسئلة عمدة المدينة وكاهن الكنيسة. انتقدني بلطف موضّحا لي أسلوب النطق السليم للكلمات. كان محقًا فبدلاً من أن أقول نعم وي oui كنت أقول أوويه ouais

تبع ذلك أن قرّر تربيتها وتعليمها. لكنه وضع لها في ذلك الكثير من المنّ المشبّع بالتلذّذ بالأذيّة. لم يكن يدع لها أي شيء يمرّ. كان يكتب لها في كراسة كل أخطائها التي تقع فيها عندما توجّه حديثها إليه. كان يذهب إلى حد أن يضع لها درجات من عشرين على كل ما تقوله كل يوم. وهكذا كانت هناك نتائج في بعض الأيام 3 من 20 وفي بعض الأيام 9 من 20 في أحد الأيام نجحت في الحصول على 11 من 20 في ذلك اليوم لم تكن قد قالت أي شيء أكثر من جملة (الجو اليوم جميل). لماذا إذن حذف منها 9درجات؟

قال لها (صحيح إن الجملة سليمة لكنها تحتوي على تكرار مخلّ بالمعنى، وذلك لأنك استعملت الزمن المضارع، وكان هذا كافيًا على الدلالة على الزمن، وبالتالي لم يكن هناك داعٍ لإضافة كلمة اليوم).

t.me/qurssan

ومع ذلك فلتشجيعها فقد أعطاها الدرجة المتوسّطة، التي يحصل عليها التلميذ المتوسّط، 11 من 20 ولذلك كانت تشعر نحوه بالعرفان بالجميل. أمامه كانت تشعر كأنها تلميذة في المرحلة الابتدائية. كانت تخفض رأسها. كانت تسحق أصابعها. كانت تخشى ما هو أسوأ من ذلك، لكنه لم يفكر أبدًا في تركها واقفة في ركن الحجرة كعقاب لها. ومع ذلك فكل يوم سبت، كان يقدّم لها عددًا من التمرينات التي ينبغي عليها أن تنشغل بها طوال الأسبوع، لتقدّمها له محلولة في يوم السبت التالي. كان يقول إن هذا في مصلحتها.

كانت هي تحكي لتارجيت (أنت تفهم لماذا إذن لم أعد أرغب في فتح فمي معه بكلمة واحدة. كنت أحبّه حتى ذلك اليوم الذي أدركت فيه أنني لن أكون أبدًا - وفقًا له - متحدّثة جيدة باللغة الفرنسية).

(أرى - على العكس من ذلك - أنك كنتِ تحسنين التصرّف).

(كنت أحاول أن أتصرّف بالكلمات المتاحة كما يكون على ربّة المنزل أحيانًا أن تعدّ أطباقًا بما لديها في الثلاّجة. كنت أتحدّث بالطريقة التي علمّوني أن أتحدّث بها. فالكلمات المغنّاة مع ألحان الأكورديون لم يحصل مؤلّفوها على جائزة نوبل في الأدب. كان كل من أبي وأمي يتحدّث بنفس هذه الطريقة التي أتحدّث بها، ففي العائلة لم يكن يضايقنا إطلاقًا أن نتحدّث كما يروق لنا دون اعتبار للقواعد النحويّة. كنا نجد دائمًا أن هذا شيء عادي).

(هذه ليست أخطاء نحوية بل هي طريقة مختلفة في الكلام).

(بالنسبة لزوجي هذه جرائم. هو يقول إن اللغة مقدّسة وإنها أهم شيء في الحياة. لديه نظريات في مثل هذه المسائل. لو لم نكن نحترم اللغة، فهذا معناه أننا لا نحترم أنفسنا. هو صعب ولكن في النهاية هذه هي مهنته).

t.me/qurssan

طبعًا لم يكن التردّد على مكان إقامة تارجيت في مصلحة تحسّن لغة مدام بيلفو. كانت مستمتعة بأن تترك نفسها على حرّيتها. كل ما كان يبنيه مسيو بيلفو من ناحية كان تارجيت كفيلاً بهدمه من الناحية الأخرى. كانت مدام بيلفو تشعر بلذّة كبيرة في الحديث بلغة رديئة. في استعمال تعبيرات سوقية مبتذلة. في ارتكاب الفحش اللغوي. في احتكاكها بمنقذها كانت تتأكد من استعمالها للصيَغ الأكثر إثارة للريبة من صيغ تصريفات الأفعال. عند عودتها إلى منزل الزوجية كانت تحاول أن تسيطر على نفسها، إلا أن المزيد من الكلمات المسيئة حسب اعتقاد زوجها كانت تفلت منها. عندما كانت تشعر بالإرهاق كانت ملاحظتها لما تقول تضعف. بالتالي كانت كلماتها تزيد في فجاجتها. في تلك الحالات كانت علامات الألم تظهر على وجه زوجها. وكان يطرقع بلسانه في سقف حلقه كعلامة من علامات الاستهجان. لكن أخطاء زوجته زادت على الحدّ الذي كان يسمح سابقًا بمحاولة اصلاحها. لفعل ذلك كان عليه أن يظل منتبهًا لها طول الوقت من الصباح إلى المساء. حتى في أيام الآحاد وأيام الإجازات السنوية. لم يعد يجرؤ على دعوة زملائه المدرسين إلى منزله ليحتسوا معا قدحًا من أقداح فواتح الشهية.

سألها ذات مساء (هل تشعرين بوعكة؟).

(لماذا تسألني هذا السؤال؟).

(لدي انطباع أنك مختلفة. لستِ أنتِ نفس الشخص الذي عرفته سابقًا. أجدك عصبية، محمومة، مبتعدة. هل أسأت الاعتقاد؟).

أكّدت (أنا لا أزال كما كنت دائمًا. أحرّك الملعقة في الاناء لتحسين قوام الحساء).

لم يكن ما قالته يحمل أي معنى. كانت تدير الكلمات على طريقتها. فقط لأجل متعة أن تنصت إلى نفسها وهي تنطق بأي هراء. كانت تفكر في تارجيت. كانا قد أصبحا صديقين حميمين. لم تكن حواراتها معه تؤدّي

t.me/qurssan

أبدًا إلى حركات أو لمحات غير ملائمة أو زائدة عن الحد، أو إيحاءات أو إشارات إلى أيّة نيّة فجور. كانت سعادتهما المشتركة هي فقط في تبادل الحوار الضاحك أحيانًا، أو الذي يحنّ إلى الماضي في أحيان أخرى. لم يُخضع أي منهما الآخر لأي نوع من الحظر أو الرقابة الأخلاقية. كانا يلقّبان القطة باسمها. كان هذا طبيعيا. في بعض الأيام وبعد أن يفرغا من احتساء قدح أو قدحين من القهوة، كانا يفترشان الفوضى فوق فراش من القش، وهما يريحان ظهريهما على وسادة كانت في الأصل كيسًا يمتلئ بالدقيق ثم أصبح يمتلئ بالقماش. ثم يستأنفان الثرثرة دون الشعور بأي تعب.

كانا عندما ينتهيان من الكلام يبدآن على التوّ في الغناء. كانا يعرفان معا المئات من الأغنيات التي لا تموت، والتي كانت فقراتها الغنائية وكلماتها تأتي إلى ذهنهما دون ترتيب. كانا يحبّان جدًا هذه التسلية الموسيقية. من وقت لآخر في منتصف فترة بعد الظهر كان ينامان أحدهما بين ذراعيّ الآخر. فيما بينهما لم يحدث أبدًا ما كان له أن يحدث في المعتاد بين أي رجل وأية امرأة في حجرة مغلقة عليهما. كانا يشعران بالراحة في وجود أحدهما مع الآخر. لم يكونا يبحثان عمّا إذا كان من الممكن لهما أن يعثرا على مصادر أخرى لمزيد من السعادة.

حتى ذلك الحين كان تارجيت يعيش في بلادة مطلقة. ثم دون أن يشعر بأن أهميّته، وبدأ يشعر بالزهو لتمكنّه من الحصول على صداقة زوجة أستاذ مدرسي. بدأ يهتم بنظافته وبالاغتسال بالصابون. ثم بدأ في تغيير ملابسه على فترات متقاربة. ثم أصبح منزله يبدو أكثر تنظيمًا يومًا بعد يوم. تراجعت الفوضى. ذات يوم بدت المربّعات الزجاجية نظيفة في النوافذ. ذات يوم قدّم لها القهوة في أقداح جديدة. ثم تسلّح بما يلزم، مكنسة، ممسحة، وجردل ماء. وغسل أرضيّات المطبخ والحجرة والدَرَج. وكانت هي بالتدريج المجهود المبذول في تنظيف الشقة.

t.me/qurssan

قالت قلقة (أنت تقوم الآن بتنظيف الشقة؟).

(كان هذا ضروريًا، فهذا المنزل لم يعرف النظافة منذ عشرين عامًا. تأتي لحظة ينبغي فيها على المرء أخذ القرار. سنصبح هكذا أكثر إحساسًا بالراحة. وحيث إنكِ أصبحتِ تزورينني كل يوم فأنا أفضّل أن أستقبلك في مكان نظيف. كرامة الإنسان هي رغم كل شيء نصف قيمة هذا الإنسان).

ودون أن تعترف بهذا لنفسها شعرت بالفخر أن كان لها هذا التأثير على تارجيت. لم تطلب منه أبدًا أي شيء بإلحاح. على الأخصّ فيما يتعلق بهذه المسائل المنزلية المتعبة. لكن لو أن المبادرة جاءت منه فهذا ليس شيئًا مكروهًا. فالمسائل الصحية المتعلقة بالنظافة لا تعني الكثير لرجل وامرأة غير مرتبطين برباط شرعي. على العكس من ذلك حيث إنه من المعروف أن روائح منتجات التنظيف تحفّز الخيال. مثل رائحة ورنيش الأرض. مثل رائحة الكولونيا.

من الآن فصاعدًا ستكون ملاءات الفراش نظيفة. اشترى تارجيت أغطية فراشًا جديدة. ومناشف من النوع الإسفنجي. وبين يوم وليلة أصبحت أظافر أصابعه نظيفة. بدت ذقنه حليقة بشكل معتنى به. وتولّد لدى مدام بيلفو الانطباع بأنه قد فقد جزءًا من وزنه.

تساءلت (هل تتبع نظامًا غذائيًا لتخفيض الوزن؟).

(لا لا إنني فقط آكل كميّات أقل من الطعام).

أراد فقط أن يقدّم لزوجة الأستاذ صديقًا جديرًا بها. صديق له مظهر طيّب. صديق من طبقة راقية، إذا كان يستطيع فعلا أن يصل إلى هذا.

تساءل (ألست أفضل حالا بهذا الشكل؟).

(على أي الأحوال كنت يا تارجيت فأنت تعجبني. كنت تعجبني سابقًا وستظل تعجبني لاحقًا. لقد أنقذت حياتي. أنا لا أرى إلا هذا. ثم إنني أحب أن أبادلك أطراف الحديث).

t.me/qurssan

ولأنه كان رجلاً لا يكتفي بقطع أنصاف الطرق إلى أهدافه، بدأ في تنظيم أسلوب اللغة التي يستعملها. منع نفسه من استعمال الأساليب الاستخفافية المُنْحلّة. منع نفسه من استعمال التبسيط اللغوي المُخِلّ. ليست المسألة هي أن أصبح لديه الطموح في أن يتحدّث مثل ناس التليفزيون. لكن أنه قال في نفسه إن ذرّة من التحسين هي أقل ما يمكن أن يقدّمه إلى مدام بيلفو. لم يكن يخطئ الظن أنه كان قد وقع في غرامها. بحث عن اللغة الطيّبة، وبدأ في شراء الكتب، وحفظ عن ظهر قلب أساطير لافونتان وهو يضع قلم رصاص بين أسنانه. ثم إنه كان قد فقد عشرين كيلوجرامًا.

تابعت مدام بيلفو هذه التغيّرات الجوهرية دون أيّة تساؤلات. لم تفقد فترات ما بعد الظهيرة التي يقضيانها معًا شيئًا من جاذبيتها وسحرها. كانا ينتهيان غالبًا بالاستلقاء على الفراش، في الروائح العطرة للنسيج الناعم النظيف، مع بعض الحنيّة العفيفة، وبعض التنهدات النصف نائمة، وبعض التهاون غير المهذّب الذي لا تعقبه تبعات. عندما جاءتهم الفكرة أخيرًا، كانا لا يزالان يغنّيان، تختلط نظراتهما وتتشابك أيديهما. لم تكن مدام بيلفو مستعدّة للتضحية بهذا مهما كان الثمن. لم تكن أبدًا على هذا القدر من السعادة ومن الإحساس بالحرية. زوجها الأستاذ كان قد تخلّى عن ضرورة أن تتحدّث بفرنسية الأسلوب الأدبي. لم يعد يوجّه إليها الحديث إلا فيما يتعلق بالأشياء العارضة. كانت قد جعلته يصل إلى مرحلة اليأس منها. وكان قد استسلم لهذا. في بعض الأمسيات كان لا يزال يشعر برغبته فيها إلى حدٍ ما، أما هي فكانت قد فقدت تقريبًا تمامًا رغبتها فيه، وإن طاوعته فهي تفعل هذا متضرّرة متقزّزة. كانا معتادين دائمًا على ممارسة الحب دون تبادل الكلمات. دون حتى السماح لأنّة من أنّات اللذة بالتعبير عن نفسها. مسيو بيلفو لم يكن يطيق مثل هذه التصرّفات السوقية. لم يكن يعترض على أوامر الطبيعة ونوازعها، بل كان يتوافق مع متطلّبات اللّذة. إلا أنه كان يعترض على المظاهر الشبقية المصاحبة للممارسات.

t.me/qurssan

ومع ذلك فهو لم يكن مرتاحًا لها. رغم أنه يبدو له أنها منذ بضعة أشهر قد أصلحت إلى حد ما أسلوبها. لكنها كعادتها لا تهتم بأن تكون شبيهة بنساء الشوارع، وبأن تلاحظ التوافق الزمني لتصريفات الأفعال وقواعد وصل الكلمات واتفاق الصفة مع الموصوف في النوع. هي لا تزال تنزلق إلى استعمال التعبيرات الشعبية. الجمل التي تستعملها تنحرف كما لو كانت ورقة تشتعل فيها النار. لكنها تحيّره أحيانًا مثلاً عندما تستعمل عبارات مهذّبة فتقول (هل تسمح بتمرير الملح؟) بدلا من (اعطني الملح). هذا كان تقدّمًا. من المؤكّد أنه تقدّم غير كافٍ. لكن هذا يثبت أن نصائحه التربوية لها لم تكن دون أيّة فائدة.

في نفس ذلك الوقت كان تارجيت تحت الإضاءة في سقف مطبخه، يعطي ظهره لحوض غسيل المواعين، ويغرق في جوف الأدب الفرنسي القديم. كان يحفظ أشعار راسين وكورناي. كان يثقّف نفسه بعناد شديد في الكتب المرتجعة التي تنقصها أحيانًا بعض الصفحات. لكنه كان لا يزال بعيدًا عن تحقيق الهدف الذي وضعه لنفسه. كان يتخيّل نفسه وهو يداعب زوجة الأستاذ بأبيات من شعر فيرلين. تحوّلت علاقتهما لتصبح أكثر تنظيمًا، ولكن كذلك أكثر حريّة. كانت هناك لحظات للشعر، ولحظات أخرى للدعابات والمفاكهة. أصبحت تلك هي طريقتهما في الحب. كان كل منهما يقدّم تنازلات للآخر. ففي صحبة تارجيت لم تعد مدام بيلفو تحتقر الثقافة. لكن في الحقيقة لم يكن تارجيت يعرف الكثير. كان يكتشف ما يكتشفه غالبًا بالصدفة، ووفقًا لما ينصحه باعة الكتب المستعملة بقراءته. لكن ما يقرؤه كان يزيده حماسًا للقراءة. لم يكن يريدها أن تشاركه علمه الغزير، بل فقط أن تشاركه ثمار قراءاته اليومية، حتى لو كانت تلك المادة المقروءة لم تنضج بعد. كان يقفز بين العصور، يوما لدى هوميروس، واليوم التالي لدى سان أنطونيو. كانت مدام بيلفو منتشية لمعرفة أنها إلى هذا الحدّ كان تأثيرها قويًا على حياة هذا الرجل. دون أن تفعل له شيئًا. دون أن تسأله شيئًا. لكن فقط لمجرّد وجودها لديه.

t.me/qurssan

أبدت قلقها (لماذا تُتْعِب نفسك كل هذا التعب؟).

(هذا ليس تعبًا بل متعة. فكما أنني أنقذت حياتك، أنتِ كذلك بشكل ما أنقذتني من الوَسَخ الذي كنت فيه. لم أعرف أبدًا أنه يمكن للمرء أن يشعر أنه في حال أفضل فقط بالاستحمام. أو بالتحدّث بطريقة ملائمة. أو بالمزيد من المعرفة. هذا هو ما أدين لكِ به).

هبط الخبر السيئ عليها في نهاية العام الدراسي. كان مسيو بيلفو قد طلب نقله وحصل على الموافقة على طلبه. كان مبتهجًا جدًا لأنه سيذهب لتدريس في مدرسة ليسيه ذات سمعة عالية. لكنها في الطرف الآخر من فرنسا. بعيدًا عن هذه الحفرة المهجورة التي عاشا فيها حتى الآن. في الحقيقة كانت هذه ترقية جيدة. للاحتفال بهذه المناسبة، ذهب إلى المكتبة، واشترى لنفسه نسخة من الترجمة الجديدة لأعمال الشاعر (أوفيد). في حماسه كان يعظّم نفسه، ويتحدّث عن الوفرة التي سينعمان به. يستيقظ أثناء الليالي ليقرّظ نفسه، مادحًا قدراته وقيمته الحقيقية التي آن لها أن تحصل على ما تستحقّه.

تعجّب في الصباح متحدّثًا إلى صورته في مرآة الحمّام (أعتقد أنني هكذا قد أنجزت طريق حياتي بلا أخطاء).

ثم استدار لزوجته قائلاً: (ها أنتِ ترين أنه يمكنكِ أن تفخري بي، فأنتِ لستِ زوجة لرجل عادي).

كانت تحاول أن تتجاوب معه. إلا أن قلبها كان في مكان آخر. كان زوجها في سبيله إلى وصف حياتهما الجديدة في تلك المدينة الجديدة الجديرة بالطبقة التي ينتميان إليها، التي قال عنها (إن المعروض فيها من المادة الثقافية يتميّز بغزارة استثنائية)، حيث سيكون لهما أصدقاء جدد، من بين صفوة رجال التربية والتعليم في البلاد.

(هل تدركين أنني سأعمل في نفس المؤسسة التي عمل فيها ريمون لكمان، قبل أن يُتَوّج في الأكاديمية الفرنسية بفضل عمله المعنون خبزنا اليومي).

t.me/qurssan

كان يتخيّل نفسه وقد اشتبك في مناقشات أدبية مع الزميل البارز في الوظيفة الجديدة. كان هو الآخر يشعر بالضعف تجاه محاولاته في الخلق الأدبي. كانت له محاولات في كتابة الرواية. هو لم ينجز بعد إلا عنوانها. لكنه لم يكن متحمّسا من الناحية الذهنية لإتمام هذا العمل في الوقت الحالي. محاولاته السابقة كانت تقوده من الإحساس بخيبة الأمل إلى الإحساس بالمرارة. كانت زهرته لا تنمو في تربة فقيرة لا تساعد على النمو.

كرّر كثيرًا (لم يكن لي مستقبل هنا).

في لحظة اعتقدت مدام بيلفو أنه سيجنّ. هي لم تسبق لها رؤيته في حالة كهذه. كرّر كثيرًا بعض المقولات باللغة اللاتينية لم تفهمها. بدأ في توجيه عبارات الاحتقار إلى زملائه الذين سيتركهم. رغم أنهم من بين قدامى أصدقائه. شعر فجأة بأنهم كلهم من متواضعي المستوى العلمي غير الأكفّاء فارغي الرءوس. ثم بعد ذلك استكمل النقد بتعميمه على كل شيء يحيط به، أولاً المدينة، ثانيًا القطاع الريفي الذي تقع فيه، ثالثا المنطقة الجغرافية من فرنسا بأكملها. ثم أخذ زوجته بين ذراعيه، وأعلن عليها والدموع تملأ عينيه.

(الآن ينبغي عليك أن تبذلي المزيد من الجهد. فهناك في المكان الجديد يجب أن تشرفيني. نحن أمامنا طول الإجازة الصيفية لنحقق التقدّم المرجو. سوف أنظّم لك دورات مكثّفة. سنكون من بين الرابحين).

ثم لقّبها بـ (يا عزيزتي). وهو اللقب الذي لم يستعمله أبدًا إلا بكل حذر وحيطة. ذلك أنه كان يعتبره من الناحية العاطفية لفظًا سوقيًا هزليًا. لم تنفعل به مدام بيلفو عاطفيًا ولم تهتز له مشاعرها. هي في الحقيقة لم تعد تنصت إليه البتّة. كانت تفترض أنها ستصبح من جديد إلى حدٍ بعيد تعيسة. صحيح أن العالم حولها لا ينهار، ولكنه يترنّح ويتمايل. وهي كذلك معه تترنّح وتتمايل. أتعس هذا الخبر تارجيت. وانخرط كلاهما في البكاء.

t.me/qurssan

هي قالت له إنها لن تتبع زوجها. وأنها ستستقر معه في منزله الصغير، وأنهما سيعيشان معًا بالتحايل على الظروف وبالأغنيات. كانت تصاحب هذه الجمل المنطوقة بسحّات من الدموع.

ندب تارجيت حظه قائلاً: (إنها نائبة من نوائب الدهر).

وكان قد بدأ يستسيغ الصيغ اللغوية البرّاقة.

بحثًا عن مخرج لهذه الأزمة التي فرضها عليهما هذا الموقف الظالم تجاههما. تارجيت - الذي تميّز دائمًا بالحلول العملية لغيره من البشر - قال إنه مستعد للاكتفاء بأقل القليل، لكنه ليست لديه أيّة رغبة في أن يفرض هذا الوضع على امرأة.

احتجّت مدام بيلفو قائلة (سأكون بخير معك هنا. لن أطلب أي شيء أكثر من هذا من الحياة).

(هذا صعب جدًا مدام. ففي الشتاء يكون المنزل سيئ التدفئة. ودخلي يسمح بالكاد بالقوت اليومي لشخص واحد. أنتِ لستِ معتادة على وضع بهذا الشكل. أنتِ زوجة أستاذ وتستحقّين وضعًا أفضل من هذا).

تملّكت منها الرغبة في العناد. وأقسمت له أنها ستكون بخير معه. وأنها ستكون قادرة على تصريف أمور حياتهما معًا. وأنه لن يحدث لهما أي مكروه، مادام كانا يعيشان معًا، يتحدّثان ويغنيان ويشربان القهوة، وهو ما كانا يلتذّان بفعله منذ مدة حوالي عامين.

قال (لا لا إن زوجة أستاذ يجب أن تعيش في مستوى معيّن من الحياة، أمّا معي فأنتِ لن تكوني إلا متشرّدة بائسة، من مخلوقات الشوارع).

(يمكنني أن أتعوّد على هذه الحياة بالتدريج).

لكنها وقعت هنا في خطأ من أخطائها اللغوية المعتادة. ولأول مرة يجد تارجيت نفسه يصحح لها خطأها. لأول مرة يسمح لنفسه بأن تكون له سلطة عليها. كان هذا التصرّف البسيط هو ما حدّد مستقبل علاقتهما. إذ

t.me/qurssan

ظلّت مدام بيلفو زوجة للأستاذ. شعرت بالندم على فقدان كل لحظات السعادة مع تارجيت. ظلّت لمدة طويلة تشعر بأنها مرهقة. كانت تعدّ نفسها لقضاء بقية حياتها في تعاسة. أحيانًا كانت تقول في نفسها إن الفرصة حتما ستأتي لرؤية تارجيت مرة أخرى. لن تعدم فرصة العودة إلى المنطقة لتحية والدها ووالدتها وعازفي الأكورديون في النواحي. بعد انتقالها إلى سكنها الجديد كتبت رسالة إلى الصديق الذي أنقذ يومًا حياتها. لم تحرم نفسها من الوقوع في كل الأخطاء الإملائية والنحوية التي تحب الوقوع فيها، والتي سبق أن تناقشا فيها مطوّلا. كان هدفها أن تمازحه وأن يتذكرا معًا أيّامهما وتواطؤهما. الأيام التي كانا ينامان فيها على مرتبة الفراش المملوءة بالقش. الزمن الجميل الذي يسعدهما أن يعودا إلى ذكرياته.

فكر تارجيت في إلقاء نفسه في مياه النهر، كان هذا هو أبسط حل حيث إن النهر يمر إلى جوار منزله. لم يكن عليه إلا أن يعبر الطريق ثم يضع نهاية لأحزانه. عادت إلى ذهنه صور اليوم الذي أنقذ فيه مدام بيلفو من الغرق. حتى تلك اللحظة لم يكن جرؤ على لمس جسم امرأة. وبصورة خاصة لمس جسم امرأة ترتدي ملابس أنيقة. امرأة جميلة. الظروف الطارئة المستعجلة والصدفة سمحت له بالاحتكاك بهذه البشرة وهذا الجسد وهذا الدفء الذي كان قد يئس تمامًا من معرفته. لم تحتج النساء له أبدًا. بل في الحقيقة هنّ كنّ يهربن منه. وهكذا اتخذ قراره أنه لن يلمس واحدة. بالتالي لم يحلم طبعًا بالاحتفاظ في منزله بواحدة. أو بأن يثير شغف واحدة. تقبّل وحدته وكان بها راضيًا. كان يشغل وقته إمّا بالنوم أو بمراقبة مياه النهر جالسًا خلف نافذة المطبخ. ذلك اليوم الذي التقى بها فيه للمرة الأولى كان يوم حظه.

أعاد قراءة رسالتها التي تعترف له فيها بأنها أحبّته. وبأنها ما زالت تحبّه. وبأنها ستظل تحبّه. أدرك من كميّة الأخطاء الموجودة في الرسالة أنها أخطاء متعمّدة. شعر بالتعاطف مع الأستاذ الشجاع الذي استطاع أن يتحمّل امرأة مثلها. إعادة قراءة هذه الرسالة جعلته يغيّر تفكيره فيما

t.me/qurssan

يتعلق بالقرار بوضع نهاية لحياته. اكتفى بالقرار بإغراق كل كتبه وكرّاساته. حتى بإغراق كتاب الدليل إلى كيفية التحاور مع امرأة والحياة معها. والروايات ودواوين الشعر وقواميس اللغة. لم يحتفظ إلا برسالة مدام بيلفو، مطوية إلى أربعة أجزاء وموضوعة في جيب قميصه. إلى جوار قلبه. ثم قرر وضع الرسالة في الدرج إلى جوار السكاكين وفتّاحات زجاجات الخمر. ثم قرر أنه في حالة عودة مدام بيلفو في يوم من الأيام فإنه سيتعامل معها كامرأة فقط وليس كامرأة الأستاذ.

t.me/qurssan

ـ ٩ ـ

ليلى

(بولدوف) ليس لقبًا حقيرًا أو مهينًا. ثم إن هذا اللقب منتشر في المنطقة وتحمله عائلات شريفة. مع هذا فإن أوريلي بولدوف لم تكن تحتمل اسم عائلتها. ولهذا فإنها في سن السابعة عشرة، قبلت الزواج من رجل يكبرها بأعوام كثيرة، يحمل لقب (بيزرت)، هو بول بيزرت. رجل يعمل في مجال الصناعة. أرمل. وسيم. لكنه كان شاهق البياض مثل زهور الكاميليا، وبحالة صحية ضعيفة بشكل غامض، بسبب العديد من الأمراض التي أصابته في طفولته، والتي لا يحب أن يتحدّث عنها أحد أمامه.

منذ اللحظة التي حملت فيها رسميًا اسمها الجديد (أوريلي بيزرت)، شعرت المرأة الشابة بالسعادة لتخلّصها من اسمها القديم. لم تعد تفوّت أيّة فرصة في تقديم نفسها باسمها الجديد. تشعر أن نطقها الاسم الجديد يرنّ في أذنيها كما لو كان اسمًا لإحدى النبيلات. كانت قد بدأت في ترك بطاقة بيانات تعريف شخصيتها وكروت الدعوات بالاسم الجديد في كل مكان.

t.me/qurssan

(قولوا لهم إنكم قد جئتم من طرف أوريلي بيزرت).

هكذا كانت قد بدأت تتصح جاراتها الجدد، بالذهاب إلى متاجر بعينها، كانت هي راضية عن نوعية خدماتها وبضاعتها، ليس فعلاً بغرض تقديم خدمات لهن بقدر ما كان غرضها الحقيقي هو متعة نطق اسمها الجديد. بدا لها أنها فعلاً قد غيّرت جلدها. بين وقت وآخر كانت تمرّ ببيت أسرتها لتحية والديها وأخوتها، لكنها أصبحت الآن تراهم كغرباء، تراهم كأفراد أسرة (بولدوف). في المدرسة عندما كانت طفلة، عانت كثيرًا من سخرية زملائها. كانوا يطلقون عليها ألقابا مثل (بولدوف العَفنَة)، أو (طبق من البولدوف)، أوف بالفرنسية تعني بيض. كان يحدث أحيانًا أن تنزلق إلى حقيبتها المدرسية زجاجة شامبو بالبيض منتهية الصلاحية. كانت دائمًا ما تقع ضحية لمثل هذه الدعابات وغيرها. بعض الدعابات لم تكن على هذا القدر من البراءة، وتتضمّن تلميحات جنسية، مما جعلها تكره - بشكل نهائي لا رجعة فيه - لقب عائلتها.

بعد مرور عام على زواجها اختفى زوجها بشكل غامض. كانت الشرطة تحاول تتبّع أثره. وُجّه اليه الاتهام بقتل زوجته السابقة. تم استجواب أوريلي. نشرت الجرائد صورتها واسمها الجديد كزوجة للمتهم. اعتقدت أن العار سيقتلها. ورغم شهرة المنطقة بهذا النوع من الجرائم، إلا أن التهمة الملقاة على عاتق زوجها أثقلت كاهلها هي الأخرى. السؤال هو هل تخلص من زوجته الأولى ليحصل على مبلغ التأمين على الحياة؟ لا يمكن لأحد أن يتخيّل دافعًا آخر أكثر منطقية عدا هذا الدافع لمثل هذه الجريمة. في حدود هذا الدافع يمكن للبعض أن يجد له عذرًا مقبولاً. هذا النوع من جرائم القتل يطبّق حرفيًا أحد مبادئ الفلسفة الرأسمالية. هذه الجريمة هي أقرب إلى معاملة محاسبية. التضحية بامرأة مقابل الإبقاء على ثروة. لو كانت أوريلي أكثر قدرة على السخرية، بل أكثر وقاحة، لوجدت في هذه الجريمة قدرًا من المجد والفخر والكبرياء. إلا أن أوريلي التي كانت حسّاسة وسريعة التأثّر، عانت بشدّة من هزال وضعف عام لا يمكن وصفه.

t.me/qurssan

كان ألمها ومعاناتها هو خلاصة كل الآلام والمعاناة التي وردت في كل كتب وموسوعات الطب. في الثامنة عشرة من العمر كان لديها الانطباع أنها قد عاشت مئة عام. خاضت غمار ثلاثة حروب. تحمّلت تبعات ثمانين مرضًا مميتًا. كانت تبكي بالدموع. وكانت تبكي بالدم. كانت تبكي بكل ما هو سائل في جسمها. عندما تولّد لديها الانطباع في أنها بدأت البكاء بلحمها وبعظامها، قرّرت أنه قد آن الأوان للرحيل. الرحيل بعيدًا إلى مكان لا يعرفها فيه أحد، ولا يمكن لأي أحد فيه أن يربط بينها وبين أي شيء آخر. لم تعد لديها إلا رغبة واحدة، أن ينساها الجميع. وهذا هو فعلاً ما فعلته.

عاشت في بوردو، ثم في آنجيه، وذلك قبل الذهاب إلى باريس. ظلّت على قيد الحياة بفضل بعض الأعمال الصغيرة ذات المرتبات القليلة. موظفة خدمة في مطاعم الوجبات السريعة. موظفة خدمة في محطات البنزين. بائعة حقائب يد في الأسواق. سكنت شققًا مفروشة بائسة. عندما حدث أحيانًا أنه لم تكن معها أي نقود باتت بعض لياليها في قاعات الانتظار في بعض محطّات القطار. اضطرت أحيانًا إلى المبيت لدى رجال يثيرون الشكوك من سيئي المظهر والمخبر. وهكذا عرفت تدخين الأعشاب وعرفت الخمور. هكذا ببطء وهدوء لكن دون الوصول إلى المخدّرات. أصبح ضوء النهار يسيء إليها. أصبح ضوء النهار يسحقها. أصبحت تفضّل الليل على النهار. كانت أحيانًا تطلق العنان لأحزانها. كان هذا يحدث أحيانًا بقوة إلى درجة أن تنكمش على نفسها وتتقوقع في الركن الأكثر إظلامًا من الحجرة. هناك كانت أحيانًا تكتب على أجزاء ممزقة من الأوراق، أشعارًا تتحدث عن كل الأشياء الليليّة ذات اللون الأزرق المخضر. كانت هذه الأشعار تأتي إلى رأسها على خلفية من موسيقى تدور هناك، عندما تكون مخمورة، في الخلفية من رأسها. في النهاية أنتجت مجموعة من الأغنيات المحبِطة، كانت تدندن بها طوال النهار، للترويح عن نفسها ونسيان عزلتها، التي بدت لها عزلة كبيرة.

t.me/qurssan

ثلاث أو أربع مرات قابلت فيها رجالاً وبدت لهم كأنها مغرمة. ثم كانت لذلك تخرج لفترات طالت أو قصرت من عزلتها في الأخدود، حيث وَضَعَها القدر مرتبكة متعثِّرة. كانت كذلك لفترة خليلة لقسّ شاب كاثوليكي أعزب، كان قد التبس عليه الأمر في غبش ظلام الشارع وخلط بينها وبين إحدى بائعات الهوى في المنطقة. كان أحد قسس المدرسة القديمة، ورغم أن أساليبه تدعو إلى الشك فيه، لكنه تعاطف معها، وتعامل معها بإنسانية وحنيّة كما لم يفعل أحد سواه. حكت له قصّتها بعد أن أعادت ترتيبها بسبب أنها كانت تريد إخفاء بعض أجزائها. عندما عادت بعد ذلك إلى السقوط في الهزال والضعف العام، ذهبت لطرق أبواب الكنيسة طالبة الإغاثة والعون، دون أن يؤدّي تصرفها هذا إلى الإحساس بأي ضيق أو حرج. لم يكن القس يرفض أبدًا استقبالها والاستماع إلى شكاواها بصدر رحب. تحوّل ليصبح بمثابة أبٍ لها. لكنها ظلت أنثى بالنسبة إليه. وجدت لديه ذات مرة آلة بيانو إلكترونية. حاولت أن تستعملها في إعادة صياغة بعض الألحان التي تدور في رأسها. استغرق ذلك بعض الوقت منها. لكنها لم تكن تتعجّل هذه المسألة حيث إنها لم تكن لديها فكرة محدّدة عمّا يمكن أن تفعله بهذه الموسيقى في المستقبل القريب. أصبحت تذهب كل ليلة للعزف على البيانو. ذات ليلة طلب منها القس أن يبقى إلى جوارها منصتًا إليها. عزفت أمامه كل الألحان التي لديها. كان العدد الكلّي للمقطوعات هو ثمانية ألحان لأغنيات.

قال (هذه ألحان حزينة. لكنها مضبوطة من الناحية الموسيقية. سأصلّي من أجلك ومن أجل موسيقاكِ).

ذهب إلى فراشه. حيث لحقت به ليستأنفا صلاتهما معًا.

في تلك الفترة من حياتها كانت تعمل في قسم ترتيب الحجرات في أحد فنادق حيّ بيجال. لم يكن القس يتحدّث معها أبدًا في أي موضوعات دينية. لكنها من ناحيتها قدّرت أنه ينبغي عليها - مجاملة له - أن تحضر

t.me/qurssan

القدّاس ولو مرة واحدة في الأسبوع. قد يساعدها ذلك في الحصول على سكينة الروح. كان عذابها لا يزال ينخر في روحها وجسدها بقسوة. لكن حياتها كانت قد انتظمت. على الأقل بحسابات الأيام والساعات. كان هذا الانتظام هو أفضل المتاح لها لاستعادة ثقتها في نفسها. ثم حدث بفضل علاقاته المتعدّدة أن تمكن القس من أن يعثر لها على حجرة خادمة في الطابق الأخير بعمارة سكنية على بعد مئة متر من الكنيسة. هكذا كان يتردّد عليها بسهولة كلما كان يرغب في رؤيتها. وهي كانت تذهب إلى الكنيسة في كل مرة كانت تحتاج فيها أن تجرّب لحنًا جديدًا.

بعد مرور عامين على هذا الوضع لم تعد تعرف نفسها إذا نظرت إلى وجهها في مرآة. فقد استعادت صحتها وجمالها وابتسامتها. عندما حان وقت إحالة موظّفة استقبال الفندق إلى التقاعد، كانت هي (ليلي) التي أخذت مكانها. في تلك اللحظة فقط جرؤت على الكتابة من جديد إلى والديها لتخبرهما بأن أخبارها جيّدة. عند كتابة اسم العائلة (بولدوف) على المظروف ارتعشت أطرافها. هي لحظة إدراك أنها بسبب هذا الاسم الذي رغبت في الهروب منه، وقعت في التعاسة والتدهور والانهيار. ومع ذلك فهي تشعر أنها لا تندم على أي شيء. فمهما كان الثمن هي لن تعود إلى استعمال اسم (بولدوف). كتبت الاسم على المظروف لكنها لم تنطقه. هي لا تريد أن تستمع إليه منطوقًا. على الأقل هي لا تريده مرتبطًا بها. الاسم المكتوب أمامها أقل استفزازًا منه منطوقًا أمامها. لكن من يستطيع حتى فقط أن يقرأه دون أن ينجذب في التوّ واللحظة إلى السخرية منه؟ لم تضع على خلفية المظروف عنوانها الحالي. هي لن تتحمّل أن يصلها الردّ من والديها، ويصيح ساعي البريد في بهو الفندق (رسالة لأوريلي بولدوف). في الفندق يلقبّها كل الناس بليلي. هي لا تريد أن تخاطر بموضوع قد يكون من جديد جالبًا للسخرية منها.

في الشتاء التالي قابلت (بولوخ). عازف بيانو لمقطوعات متنوّعة في أوقات محدّدة وموسيقى في باقي الوقت. كانت أعياد رأس السنة تقترب،

t.me/qurssan

وليلي قد اعتادت بعد الانتهاء من عملها، على الذهاب لاحتساء بعض كؤوس الشراب في حانة، تقع في منتصف المسافة بين البناية التي تسكنها والفندق الذي تعمل فيه. كانت تجلس في المشرب لتتشغل بهدوء في إغراق أحزانها الظاهرة القابلة للإغراق. في بعض الأحيان كانت تتابع بنظرها رجلاً، وذلك لأن امرأة طبيعية التكوين لا تستطيع أن تمنع نفسها من متابعة رجل بنظرها. بولوخ كان نشيطًا في احتساء البيرة. هو مثلها قادم من منطقة فقيرة في مزارع كرومها. بالتالي كان يحتسي البيرة بدلاً من النبيذ. ومن المعروف أن احتساء هذه المشروبات السوقية المبتذلة تعمل على تسهيل اللقاءات بين الجنسين. إن محتسي البيرة لا يعقّدون الحياة. هم يتبادلون أطراف الحديث كما لو كانوا أصدقاء قدامى بحيادية، متبادلين النظرات فوق مستوى الكؤوس التي في أيديهم. حتى لو أنهم لم يتجاوروا فوق النضد إلا منذ دقيقة واحدة. في ذلك المساء انتحل بولوخ لنفسه قصّة كان هو بطلها، قصة كلب هجرته صاحبته. كانت لديه دورات مزاجيّة زُحَليّة متقلّبة. تلى عليها أشعار فرلين، ووجدت ليلى أن هذا جميل.

استكملا سهرتهما في حجرة ليلي في جو من الثقة المتبادلة. حكى لها عن حياته المهنية في استوديوهات التسجيلات الموسيقية وفي الحفلات الموسيقية. ذكرت له أنها تكتب كلمات أغنيات وتلحّنها. أراد أن يستمع منها إلى نموذج أو عيّنة. فعلت ما طلبه منها وهي متشوّقة لمعرفة رأي شخص آخر غير القس. كانت هذه هي الفرصة التي قد لا تتكرّر. غنّت بصوت منخفض نظرًا لوجود الجيران وللساعة المتأخّرة. احتسى ستّ جرعات من البيرة قبل أن ينطق ليعلن رأيه. بعد ثلاثة أشهر وقّعت ليلى عقدها الأول وسجّلت أسطوانتها الأولى. عندما استشيرت في الاسم الفنّي الذي سيوضع على غلاف الاسطوانة اختارت (ليلى). وافق المنتج والأخصائيون التسويقيون على الاسم. كان اسم ليلي مناسبًا جدا لها. كان اسمًا متّفقًا في تناغم مع طراز أغنيّاتها ومع طبيعة صوتها وتكوينها الجسماني. حملت

t.me/qurssan

النسخة الأولى من أسطوانتها الأولى إلى القس الذي ما عادت تراه كثيراً في الآونة الأخيرة. بارك المشروع. ثم شكرا السماء على طريقتهما.

أثناء إعادة ارتداء ملابسه قال القسّ

(ها هي أخيراً الفرصة قد جاءت كي تخرجي من العذاب الذي كنتِ تعيشين فيه. الربّ يرسل الينا جميعًا تجارب شاقة. تجربتي أنا هي أنني لن أتمكن من رؤيتك مجدّدا بالمعدّل الذي كنت أتمنّاه. لكني سعيد من أجلك. أنت تستحقين النجاح الذي جاءك. أنتِ فتاة شجاعة).

أقسَمَتْ له أنها ستعود إلى زيارته كلما أمكنها ذلك. قالت له ما كان ينبغي عليها أن تقوله له. فدون مساعدته ما كان لها - دون أي شكّ - أن تصل إلى الحظ الذي صادفته الآن في مجال الأغنية والذي قد يقودها إلى النجاح. كانت تشعر بالسعادة الغامرة لكن دون خُيَلاء وكبرياء وزهو فارغ. كانت قد قامت من كبوة وصلت بها إلى الحضيض. وهو ما يعني أنها لم تعد تخاف أن تسقط لأنها تعرف كيف تقوم من سقطتها. كان ماضيها قد جعلها متشكّكة. هي كانت قد واجهت مآزق وخرجت منها لكن لتواجه من جديد مآزق أكثر قسوة. هذه المرة أرادت أن تصدّق انه لم يعد هناك المزيد من المآزق. لكنها كانت مع ذلك باقية على تشكّكها.

رغم أن الأسطوانة قد وجدت نجاحًا في بعض الأوساط، فإنهم كانوا يتوقّعون لها ما هو أكثر من ذلك. بعض المقطوعات وجدت طريقها إلى بعض الإذاعات. ثمّ كان أن دعتها بعض المحطّات التلفزيونية إلى الظهور في برامجها. لكنها لم تصل إلى مرحلة الظهور على أغلفة المجلاّت الأسبوعية، لكن أغلبها خصّص لها صفحتين متقابلتين مع وضع صور لها. أرضاها كل هذا. إن التحقّق الحقيقي هو التحقّق الداخلي. كانت تخشى أن تضطرها الأحداث إلى التضحية بلذة الحياة الهادئة. لذّة أن تعيش مختبئة متخفّية في وحدتها مع البيانو الكهربائي، ومع أوراقها وأقلامها،

t.me/qurssan

في الصمت المتحفّظ لشقتها الجديدة المستأجرة في الحيّ الذي يجد حاليًا رواجًا بين النخبة.

إن القصيدة الغزلية بينها وبين بولوخ لم تدم لأحدهما مثل الآخر إلا الوقت الكافي حتى يسترد كل منهما مزاجه الرائق. كانا في احتياج كل منهما إلى الآخر. ثم انتهى الموضوع. كان كلّ منهما قد قدّم إلى الآخر الخدمة المتبادلة بالبقاء معًا، في تلك الفترة من حياة كل منهما التي احتاجا فيها إلى وجود شخص آخر. ثم ولدت الصداقة ودامت بفضل تلك الذكريات. ثم ظلا يحبّان اللقاء حول زجاجة بيرة وبعض الأعشاب. كان قد جاملها بمصاحبتها بالعزف على البيانو في حفلاتها الأولى أثناء جولتها في مدن الجنوب. دون وجوده إلى جوارها كانت ستموت من الجزع. كانت تشعر بالامتنان لإخلاصه لها.

بعد أول حفل كانا قد عادا معًا إلى الفندق على الأقدام. سرّهما رؤية الإعلانات والملصقات الدعائية عن الحفل في شوارع البلدة. كانت معجبة بصورتها وبطريقة كتابة اسمها على الإعلان. اسمها في حد ذاته كان دليلها إلى النجاح: ليلي. فقط لا غير. كان سعيها طوال حياتها فقط من أجل هذا الاسم وهذا النجاح. الاسم الذي لا يعني أي شيء آخر عدا صاحبته. الاسم الذي لم يكن من السهل أن يصبح ألعوبة سخرية في يد زملائها من الأطفال. الاسم الذي لم يكن من السهل على أي لعبة من ألعاب الكلمات أن تحوّر فيه. الاسم الذي لا يقدّم أي فرصة عبث للأشقياء. الآن هناك مئات الآلاف من البشر الذي يعرفونها بهذا الاسم. في حين أنه لم يكن هناك إلا بضع مئات يعرفون أنها كانت بولدوف. وأنها تزوّجت بيزرت الذي أصبح قاتلاً هاربًا تبحث عنه الشرطة بسبب ضلوعه في عملية النصب التي سرق بها نقود شركة التأمين. هي لم تنس بعد تمامًا بول بيزرت. حدث مرة أو مرتين أثناء اندماجها في الغناء تحت بقعة الضوء الكاشف المنبعثة من المصابيح الموجّهة إليها، أن تبيّنت في جمهور الصالة شخصًا يشبهه. لكن عند إضاءة الصالة كان هذا الشخص يختفي.

t.me/qurssan

وصفتها الصحافة بأنها فنّانة غير متعالية بل دودة وقوية. وتنبّأ لها النقاد الأكثر كفاءة بمستقبل فنّي متميّز. لم تسمح لهذا التقدير من الصحافة والنقد أن يجعل رأسها يدور. أن تفقد اتزانها. بل استمرت في العمل بحماس في كتابة أغنيّات جديدة، كانت تذهب بها أولاً إلى صديقها القسّ. ثم ثانيًا إلى بولوخ. وهما اللذان أصبحا أكثر أصدقائها وثوقا فيهما، في هذا الوسط الذي تغلب عليه صداقات الظروف. أكّدت مجموعة أغنيّاتها الثانية نجاحها. وصلت في مدة أقل من شهر إلى عنان السماء الفنيّة. لم يكن هذا ما تريده، لكنها تقبّلته كقدر لا يمكن الفكاك منه. لم تفهم أبدًا ما الذي حدث لها. منحت العديد من الجوائز الفنيّة. بدأ الجمهور يسرع في التجمّع حولها كلما شوهدت تسير في شوارع المدينة. لم تعد كل محطّات التلفزيون تستطيع أن تتجاهلها.

بسرعة غير عادية حصلت على الأسطوانة الذهبية الدالة على بيع مليون أسطوانة للفنّانة، ثم على الأسطوانة البلاتينية الدالة على بيع خمسة ملايين أسطوانة. أصبحت إحدى أغنياتها هي أفضل أغنيات موسم الصيف في ذلك العام حسب استطلاعات الرأي. لم تعد تخرج من الغناء في ملهى ليلي الا للذهاب للغناء في مسرح للعروض الفنية. في نهاية السهرة كانت تضطر إلى الاستجابة لطلبات الصحفيين في إجراء حوارات معها. فرض عليها منتج أسطواناتها حضور السهرات التي يلتقي فيها أفراد المجتمع الباريسي الراقي، حيث كانت أحيانًا تضطرّ إلى الانحناء أمام بعض الأميرات. تراست حفلات بيع بالمزاد لصالح بعض الجمعيّات الخيرية. وصل بها الأمر إلى أن بعض نوّاب البرلمان ذكروا في مناسبات مختلفة أبياتًا من أشعار أغانيها في جلسات الحكومة. تحدّث الجميع عنها على أنها أهم اكتشافات ذلك العام.

أمّا عندما كانت تجد نفسها وحدها في القليل النادر من الحالات، كانت تذهب إلى القسّ لتنام عنده بضعة أيام، ولتستردّ بعضًا من عزلتها القديمة، بينما كانت قطعان الصحفيين والمعجبين تبحث عنها في أرجاء

t.me/qurssan

المدينة. هذا المجد الفني كان يرضيها، حتى لو أنها كانت تجده غير متناسب مع وضعها. كانت تعتقد أن هذا التقدير الفنّي يفوق حقيقة موهبتها. في الصباح وبعد احتساء القهوة، كانت تبحث في الجرائد والمجلات بحثا عن المقالات التي تخصّها، وتقطعها بحرص من الصفحات، لتضعها وفقا للترتيب الموضوعي، في الجيوب البلاستيكية الشفافة لأحد الملفات. لم تعد تعرف كيف تفكّر في كل هذه البلبلة وكل هذا التشوّش. بدا لها أن القسّ قلق بخصوصها. في الحقيقة هو لم يكن يفهم ما يحدث لها. كان يردّد أن طبيعة العصر الذي نعيش فيه هي أن كل شيء يحدث في سرعة، وأن هذه السرعة المتزايدة هي السبب في وقوع المزيد من الحوادث. لم تكن ليلي تدرك معنى هذه الكلمات. لكنها كانت تشعر أن شيئا ما يضايقها. كان لديها إحساس مسبّق.

لم تصدّق ما تراه بعينيها. لقد أسرفت تمامًا إحدى المجلات الأسبوعية. وضعوا صورتها على الغلاف بضعف الحجم المعتاد للأغلفة، مع وجود نصف الغلاف مطويًا داخل العدد. فوق الغلاف كانت صورتها رائعة الجمال وفوق الصورة كان اسمها: ليلى. ولكن بفتح الغلاف المطوي كانت صورتها كأنها تنظر إلى نفسها في مرآة، وفوقها هذه العبارة: الرحلة الشاقة لأوريلي بولدوف.

كان المقال الذي قرأته في الصفحات داخل العدد جديرًا بكل هذا الاهتمام. لم تكن تنقصه أيّة تفاصيل تتعلق بالتاريخ العائلي للآنسة أوريلي بولدوف، التي أصبحت فيما بعد زوجة لبيزرت. كان الأسلوب المستعمل في رواية أحداث حياتها هو الأسلوب الأدبي الأمثل. والأكثر تأثيرًا في القرّاء. مثلاً فيما يتعلق بخيال المؤلف في وصف قصة الزوجة الأولى لبيزرت، خاصة التفاصيل الشيطانية للتخطيط للقتل، ثم الإقدام على الفعل المشين نفسه. كما وجدت الرقم الذي دفعته شركة التأمين على الحياة بعد تحويله من الفرنك إلى اليورو. ثم اختفاء بول بيزرت ومعه مبلغ التأمين. ثم اختفاء زوجته الثانية بعد اختفائه هو بقليل. ثم فقدان كل أثر لهما معًا. لم يعرض

t.me/qurssan

الصحفي رأيه بصراحة، لكن أسلوبه في الكتابة كان يدعو إلى الاعتقاد بأن الزوج والزوجة بيزرت، كانا قد عاشا حياة صاخبة فاخرة في أحد البلاد الأجنبية، على حساب مبلغ التأمين. هذه هي النتيجة الحتمية لذلك الأسلوب في رواية القصّة. هذا هو ما كان أي قارئ مدعُوًا إلى الاعتقاد فيه. كان المقال أقرب إلى تحقيق قضائي. أغلب المعلومات الواردة في المقال كان يمكن التحقّق من صحّتها. أمّا المعلومات التي لم ترد في نص المقال فهي متروكة للخيال الجمعي للقراء.

قالت ليلى لنفسها إن قصّتها هكذا قد انتهت. لم تترك خلفها أي رسالة. لم تتصل تلفونيًا بأي شخص. لم تفكر حتى لا في القس ولا في بولوخ. في بعض لحظات الحياة يكون الاستعجال مفروضًا على الإنسان، الذي يجد نفسه فيه، مفروضًا عليه من طبيعة الموقف. في مثل تلك الحالات ليس هناك أي مجال أمام الإنسان للتفكير في الماديّات. عاشت فقط بمقدار الوقت بين الهبوط من الطابق الثالث والوصول إلى رصيف الشارع. نقلت الجثّة إلى الإقليم حيث تعيش العائلة. حضر جمهور كبير لحظة دخول النعش إلى المقبرة. فوق رخام المقبرة نقشت الكلمات: أوريلي بيزرت المولودة بولدوف والشهيرة بليلى. في النهاية هي فتاة صغيرة لم يكن لديها ما تخفيه.

t.me/qurssan

ـ ١٠ ـ

لاعب رديء

عندما تحين ساعة معيّنة في البارات والمشارب، يبدأ الروّاد العاديّون في مشاهدة أشياء غير عادية، وفي الاستماع إلى أشخاص غير عاديّين. ثم تحدث أيضًا حكايات عجيبة. كلها موثّقة بالعديد من الشهود. ذلك عندما تبدأ السهرة في الا طفاء، ويبدأ كل مدخّن بالانسحاب بأنانية إلى حدود دائرة مطفأة سجائره، في هذه اللحظة يتدخّل (بروتون) مستعملاً دائمًا نفس الكلمات:

(يبدو أنني أثقل من وزني الذي يشير إليه مؤشّر مقياس الوزن).

تنطلق هذه الكلمات في مستوى أعلى من مستوى رءوس كل الآخرين، وذلك لأنه أطول من كل الآخرين برأس ونصف رأس. كان طويلاً ولكنه كان عريضًا كذلك. وكان سمك جسده معتبرًا. إذن إنه ليس فقط متفوّقًا في الطول والعرض ولكن كذلك في العمق. كان بطنه الضخم يجعله مضطرًا إلى البقاء على بعد من نضد البار. لكن هذا الوضع لم يكن يعني له أي مشكلة وذلك لأنه إذا أراد فإن ذراعيه الطويلتين كانتا قادرتين على

t.me/qurssan

الوصول إلى ماكينة صنع القهوة، التي تستقر إلى الجهة الأخرى من النضد. لكنه لم يكن يشرب القهوة.

كان يسأل الجميع قائلاً: (كم هو وزني في اعتقادكم بمجرّد النظر؟).

وكان السكارى يرفعون حواجبهم، ثم يبحثون عن ألسنتهم، التي يتحقّقون أولاً من وجودها داخل أفواههم، وذلك بحكّ الألسنة في صفوف الأسنان، ثم مبعدين كؤوس الخمر بمسافة سنتيمتر واحد، حتى تغيم رؤيتها في ضوء النيون الشاحب. لكن أحدًا من السكارى لم يجب في التوّ واللحظة. كان يجب عليهم أولاً أن يهبطوا من السماء إلى الأرض، وأن يعيدوا وضع أقدامهم داخل أحذيتهم، وأن يسعلوا أو يعطسوا حتى يمكن لمن يراهم أن يتأكد من أنهم لا يزالون على قيد الحياة.

يصرّ بروتون (كم أزِن؟)

يغمغم أكثر السكارى استيقاظًا (مائة وخمسون.....).

قال الجالس إلى جواره (هذا هو ما كنت سأقوله).

سألهما بروتون (هل أنتما مستعدّان على أن تراهنا على هذا الرقم؟).

عندما نصل إلى هذه المرحلة الجادة في الحوار، تعود الأنوف إلى الاندساس في الكؤوس. لدى بروتون خبرة طويلة بهؤلاء البشر الذين يحاولون أن يهربوا من تعاستهم، باحتساء الخمر التي يجدون فيها ملاجئ آمنة. إن احتساء الخمر هو مغامرة ملموسة ولكن دون مخاطر. في مشارب الأحياء الراقية، فإن حالة السُكْر يمكن أن تقاس ويضبط عيارها، بالساعة التي يُحْتَسى فيها الخمر، وبأسلوب احتساء الخمر. بموضوعية تقاس بوحدة قياس دقيقة. إن احتساء الخمر في المشارب الراقية هي عملية ترفض الانسياق وراء الصدفة والألعاب غير الشريفة. وحيث إن أحدًا هنا لا يؤمن بالمستقبل فإن بروتون لم يجد أحدًا مستعدًا للمراهنة.

t.me/qurssan

قال بروتون (سأعطيكم هامش خطأ خمسين كيلوجرامًا. وأراهن كل الموجودين هنا على أن أحدًا لن يستطيع أن يخمّن وزني الحقيقي ولو بالتقريب إلى خمسين كيلوجرامًا. هل تتابعونني؟).

سرت قهقهة جمعية. ارتفعت بعض الأكتاف. تحركت بعض الأصابع فوق الأصداغ.

احتج أحدهم (هذا سهل جدًا).

لكن بروتون استمر في ضغطه عليهم واضعًا فوق النضد المبلغ الذي يراهن به الجميع. وهو مبلغ كاف لدفع ثمن مشروب واحد لكل شخص من الموجودين. لم يكن الجدل في الحقيقة يهمّ أحدًا، لكنه أثار بعض ردود الأفعال من بعض الموجودين. وبالنسبة لصاحب البار لا يمكنه أن يكبح جماح زبون يرغب في دفع ثمن مشروب لجميع الموجودين. اتجهت بعض النظرات نحو بروتون وكانت بغرض إعادة تقييمه. أما بروتون فقد استدار حول نفسه وذهب إلى منتصف مساحة المشرب بين الموائد، رافعًا ذراعيه مثل راقص لرقصة الفلامنكو الاسبانية.

رفع صوته (كم يزن هذا الحيوان؟ القوا بتكهناتكم).

قالها بسهولة وبمنتهى السلاسة والارتياح كما لو أنه كانت له سَبْق خبرة في الموضوع.

هو في الحقيقة يقدّم هذه الفقرة الاستعراضية منذ عشرين عامًا، ولكن كل ليلة في حانة مختلفة. هو طبعًا لم يكن يخسر أبدًا رهاناته تلك. بالإضافة إلى أنه كان يشرب كل ليلة كل ما يريده دون أن يدفع شيئًا. ثم إن رهاناته تلك كانت توفّر له ما يدفع به ثمن إقامته في فندق. وما يدفع به ثمن القطار للانتقال من قطاع إلى آخر، بعد أن يستنفذ أغراضه في مدينة ما، بكل ضواحيها والريف المحيط بها، أو في مجموعة مدن أحد القطاعات الجغرافية. تكوّمت الأوراق النقدية التي وضعها الزبائن فوق

t.me/qurssan

النضد لتضاف إلى الأوراق التي كان بروتون قد وضعها. ثمّ أضيف عدد آخر من أوراق النقد وضعها عدد آخر من الزبائن بعد إطلاق عدد من تنهّدات الاستسلام. تم النطق ببعض الأرقام الدالة على الوزن المتوقّع. كان بروتون في ذلك الوقت يقفز في مكانه، وهو يدفع بإحدى ساقيه إلى الأمام، ويدور بعنقه ورأسه، وتبدو على وجهه تعبيرات مختلفة أقرب إلى التكشيرة.

بشكل عام كانت الأرقام تضيف في كل مرة ينطق بها أحد الزبائن خمسة كيلوجرامات إلى الوزن المقترح السابق عليه.

في لحظة ما نطق بروتون (احضروا الميزان).

عادة ما يكون صاحب الحانة متزوّجًا من سيدة سمينة تحتفظ في الجزء العلوي من الحانة حيث يقطنان بميزان لمراجعة وزنها بين وقت وآخر. يصعد صاحب الحانة إلى الطابق الذي يعلو الحانة ويعود بميزان من تلك التي يُحتفظ بها في حمّامات المنازل. وبأسلوب من الأساليب المعتادة لمن يلعبون دور هرقل في الاحتفالات بالموالد الدينية المحلية، يدور بروتون حول الميزان الموضوع على الأرض. يحيّي جمهوره وهو يطلق صيحات أقرب إلى صيحات الهنود الحمر قبل مهاجمة معسكر الأعداء. ثم يضع إحدى قدميه على الميزان، والجمهور يحبس أنفاسه. ثم ينقل القدم الثانية ليضعها إلى جوار القدم الأولى. لم يتحرّك مؤشر الميزان ليحدّد الوزن. يدعو بروتون الزبائن لقراءة علامة المؤشر.

في كل مرة يكون ردّ الفعل هو نفسه.

يقولون (يا بوبول الميزان لا يعمل).

يردّ بوبول صاحب الحانة عليهم وهو يحاول أن ينفي عن نفسه تهمة أنه يستعمل جهازًا معطّلا عن العمل.

t.me/qurssan

(اصمتوا أيّها البلهاء. إن زوجتى استعملته صباح اليوم. إنه الميزان الأدق والأفضل من كل الأنواع الأخرى المتوفّرة في الأسواق. إنه قادر على تمييز الفرق بين مظروف بريدي قبل وبعد لصق طابع البريد عليه).

تضايق صاحب الحانة فضرب بالخرقة التي يمسح بها النضد بطريقة آلية عدة ضربات.

استأنف بروتون (كم تقرءون؟).

قال أحدهم (أنا ارى ان هذا الميزان مختل. هذا هو ما أقرؤه. أو أنني قد أصبحت مخمورًا إلى درجة أنني لم أعد قادرًا على القراءة بوضوح).

جاء زبون آخر لينحني بالنصف الأعلى من جسمه مقتربا برأسه من لوحة المؤشّر، ثم رفع نصفه الأعلى قائلاً بقدر من التبجّح.

(إنه محق يا بوبول فإن ميزانك لا يتقن عمله).

(قلت لكم إنه جديد ولا تستعمله الا زوجتي).

(قد يكون ميزانك جديدا ولكنه يشير إلى أن السيد بروتون لا يزن إلا عشرين كيلوجرامًا فقط لا غير. أنا لا مانع لديّ أن يزن هذا السيد عشرين كيلوجرامًا ولكنه شيء غير معقول. إن وزن هذا السيد لا يقل عن مائة وخمسين كيلوجرامًا. أنا كنت طوال حياتي أتاجر في البطاطس وأعرف أن احكم بنفسي على الأحجام والأوزان).

أنصت بروتون إلى هذه المحادثة ولديه شعور بالانتصار، مع قدر من تواضع المنتصرين، كما ظلّ محتفظًا على شفتيه بابتسامة ملاك. كانت هذه هي لحظته المفضّلة. لحظة العراك الكبير حول دقّة وسلامة الميزان. سبق له أن رأى أصحاب حانات يدخلون في حالات من الهياج الذي قد يؤدّي في بعض الأحيان إلى ارتكاب جرائم قتل. بوبول كان يتميّز بحجم ضخم يعطيه قدرًا من الثقة في نفسه. الثقة التي اهتزّت بسبب أنه كان

t.me/qurssan

يحب زوجته حبًا جمًا وهي قابلت هذا الحب بعدد لا حصر له من الخيانات الزوجية. اكتفى بالقول:

(إذا كان ميزان زوجتي يشير إلى عشرين كيلو جرامًا فهذا لا معنى آخر له إلا أن هذا السيد لا يزن الا عشرين كيلو جرامًا. لم يكن عليكم إلا ألا تراهنوا).

استقبل جمهور الحانة هذا الصلف من ناحية صاحب الحانة بردود خشنة فظة. ظهرت في صورة صيحات عالية وصلت إلى حدّ الصراخ. ادّعوا جميعًا في شكل جوقة، أنهم لم يشربوا إلى درجة عدم القدرة على تمييز أن شخصًا ضخمًا سمينًا مثل بروتون لا يزن على الأقل قنطارًا ونصفا (150 كيلوجرامًا). اتهموا جميعهم الميزان بالتواطؤ مع بروتون. وتقارعوا الكؤوس وثورتهم تنمو.

(إذا كان أحكم يعرف كم يزن عليه أن يتقدّم ليزن نفسه، وستكون تلك هي الطريقة المثلى للتأكد من كفاءة الميزان، أليس كذلك؟).

تقدّم شخص يدعى ماريون قائلاً إنه يزن خمسة وسبعين كيلوجرامًا مرتديًا كل ملابسه. وأنه لم يزد كيلوجرامًا واحدًا منذ مرحلة شبابه. أشار الميزان إلى خمسة وسبعين كيلوجرامًا.

يعترف أحدهم (الميزان عاد إلى العمل).

تذمّر بويول (هذا هو ما قلته لكم، فأنا لا أشتري الا أفضل البضاعة المعروضة في الأسواق).

نعود إلى بروتون الذي طلبوا منه أن يصعد من جديد فوق الميزان. أعلنت لوحة المقياس من جديد أن الوزن هو عشرون كيلوجرامًا وأنه لا توجد أية زيادة في الوزن فوق هذا الرقم.

(الوزن هو هو نفسه 20 وإبرة المؤشّر متوقّفة عند هذا الرقم تمامًا. ليست هناك أية حركة لإبرة المؤشّر لا إلى اليمين ولا إلى اليسار).

t.me/qurssan

قال بروتون (هذا شيء طبيعي فأنا لا أزن في هذه اللحظة إلا هذه الكيلوجرامات العشرين).

اعترض أحد المخمورين، أحد أولئك الذين كانوا منذ البداية لم يبدوا أي اهتمام بالمنافسة التي كانت دائرة في الحانة. قال (هذا ليس ممكنًا).

طلب بروتون من صاحب الحانة (اعطني كأسًا كبيرًا به لتر من الجعة).

وبمجرد إمساك بروتون بالكأس وهو لا يزال واقفًا فوق كفة الميزان، تحرّك المؤشّر مسافة على المقياس، تدل على زيادة الوزن الواقف عليه بمقدار كيلوجرامًا، وهو وزن لتر من البيرة، بالاضافة إلى بضع مئات من الجرامات، وهي وزن الكأس الزجاجي خاليًا. ثم احتسى بروتون محتوى الكأس، تقريبًا في جرعة واحدة، وسلّم الكأس خاليًا إلى صاحب الحانة. تحرّك المؤشّر ليقف أمام رقم 21.

شرح لمن تحلّقوا حول الميزان (لو شربت في ساعة واحدة عشرة كؤوس من مثل هذا الكأس، لزدت في ساعة واحدة عشرة كيلوجرامات).

هنا بدأ الجميع في تصديقه، ودعاه الجميع إلى شغل أفضل مكان على الكراسي المرتفعة إلى جوار النضد. بالقرب من مضخّات البيرة المكبوسة تحت ضغط التي عند تشغيلها تخرج البيرة برغوتها. شكرهم.

تساءل بوبول (كيف أنك لا تزن إلا 20 كيلوجرامًا؟).

وقد بدت عليه ملامح السعادة، إذ إن الزبائن لم يعودوا مشغولين بالتساؤل حول مدى كفاءة ميزانه، وهو الموضوع الذي لم تعد تحيط به أي شكوك.

قال بروتون (إن الجانب الأخلاقي من القصة هو أنه لا ينبغي لنا أن نحكم بالظواهر، فكل ما هو ظاهر في جسمي يدعو إلى الاعتقاد بأن وزني ثقيل، ولكني في الحقيقة خفيف مثل طفل).

t.me/qurssan

اندهش جاره قائلاً (ولكن هذا رغم كل شيء هو شيء غريب جدًا).

اعترف بروتون (الحقيقة هي أنني مجوّف، فخلف هذا الغشاء من اللحم من أعلى الجسم إلى أسفله لا يوجد أي شيء، عدا تجويف فارغ تماما من أي شيء).

(أجوف؟ كيف هذا أجوف؟).

(داخلي لا يوجد أي شيء، داخلي فارغ تمامًا).

(والقلب والمصارين والكبد؟)

(لدي كل هذه الأعضاء في أماكنها، فعندما أخذت لي صورة بالأشعة شاهدنا كل هذه الأعضاء. لكن تلك الأعضاء هي هناك لكن في الحقيقة دون أن تكون هناك. نحن يمكننا أن نلمحها مثل صور. لكن في الحقيقة ليس هناك أي شيء عدا تجويف كبير).

تجمّد الجلوس في أماكنهم. أعاد البعض منهم دفع ثمن المزيد من المشروبات لبروتون. إنها أفضل طريقة لإظهار الإعجاب الذي نكنّه لزميل من زملاء الشرب. الجالسون حوله أنفسهم سرعان ما أنهوا ما كانوا يحتسونه.

قال أحدهم (أعتقد أننا نحلم).

قال الآخر (أعتقد بالأحرى أننا سكارى).

قال ثالث (إذا كنا لا نستطيع أن نثق فيما نراه بأعيننا، فهذا معناه أن هناك شيئًا ما قد اختل في نظام هذا العالم).

كانت هذه هي المرة الأولى في حياتهم التي يقابل فيها هؤلاء الثلاثة رجلاً أجوف. إنهم لم يفهموا هذه الظاهرة العجيبة. كانوا قد بدءوا يدقّون بشكل ودّي لطيف على صدر بروتون وعلى ظهره محاولين تقريب آذانهم من هذا الجسد الأجوف للإنصات إلى صوت الفراغ في داخله. متربّصين

t.me/qurssan

به ومترقّبين الاستماع إلى صوت قريب الشبه بصوت طبلة، أو أي آلة إيقاع أخرى.

شرح لهم بروتون (إنها منحة من الطبيعة أو هبة من الله. هل تعرفون أن الإنسان لا يزال يجهل 99 % من أسرار جسده وألغاز تكوين هذا الجسد؟ صحيح أن العلوم الحديثة تساعدنا كل يوم على إحراز المزيد من تفهم، لكن إذا تمكنت الطبيعة من الحديث إلينا يومًا ما بأسرارها، فلن يكفيها الوقت حتى نهاية العالم، بل حتى الأبدية، إذ ستكون مضطرة إلى تجاهل الحديث عن كميّات لا يمكن تخيّلها من الألغاز).

يعتذر بوبل عن توجيه سؤال شخصي (هل تعرف على الأقل لماذا أنت فارغ أجوف؟).

يجيب بروتون (وأنت هل تعرف لماذا أنت لست مجوّفا؟ لماذا أنت ملآن؟)

هو لم يختر أن يكون أجوف، كما أن أحدًا منهم لم يختر أن يكون ملآنًا. على أي الأحوال فسواء أكان الشخص أجوف أو ملآنًا، فهو نفس الشيء. حيث إنهم جميعًا يحتسون نفس البيرة، في نفس الحانة، في نفس اليوم ونفس الساعة.

(على كل حال هذا ليس مرضًا).

(لو كان هذا مرضا لكنت اعتنيت بنفسي. لكن هذا يجوز فقط لو أننا عتبرنا أن العينين الزرقاوين هو مرض، وأن على الناس زرق العيون أن يبحثوا لأنفسهم عن علاج لتلك الحالة. فبعد أن كان الأطباء قد فحصوني، سألوني: إن كنت أتألم؟ أجبتهم أنني لم أكن أتألم. عندها سألوني: مما تشتكي؟ أجبتهم أنني لا أشتكي من أي شيء. فعندما نشاهد ما تتحمّله البشرية من آلام، فلا يمكننا أن نشتكي من أننا مجوّفون).

(إذن فإن حالتك تلك لا تتسبب لك في أي أذيّة؟).

t.me/qurssan

أكد بروتون (كوني أجوف لا يسبب لي أي ألم. من هذه الناحية فإن الأجوف أكثر راحة من الملآن. مثلا أنا أشرب كيفما أريد ولا تصيبني أبدًا آلام الكبد).

هذه الصراحة التي تحدّث بها بروتون إلى الحشد حوله، أكسبته تقديرهم وإعجابهم، حتى أن بعضهم وجد دموعه تسيل من عينيه. وذلك لأن الإشارة إلى الكبد تحرّك أشجان مدمني الخمور. أما من هو بلا كبد، فبلا شك هو أكثر سعادة. هنا تذكر زبائن المقهى ممن كانوا في الجُنْديّة، كيف كانت عذاباتهم مع أكبادهم، أثناء بدايات الخدمة العسكرية، ومحاولات علاجهم من التسمّم بالكحول الايثيلي. ثم احتسوا أقداحًا جديدة لصالح هذه الذكرى. فالذكرى هي أكثر الأعذار قبولاً فيما يتعلق بالأسباب التي تدعو إلى الاستمرار في الشرب.

كان صوت بروتون حنونًا، مما جعل مستمعيه سريعي التأثر بما كان يقوله، حتى بوبول وذلك رغم حرصه الدائم على الالتفات إلى طلبات زبائن حانته. في عقول كل الزبائن، كان الغمام لا يزال محيطًا بعقولهم. تساءل بعضهم بينه وبين نفسه - تأثرًا بكلمات بروتون - إن كانت حالة السكر هي حالة جوفاء أم أنها حالة امتلاء؟ كان السؤال قد أدّى إلى تثاقل في الحركة وتكاسل عام. كما أدّى كذلك إلى إدراك عام أنهم غير قادرين على الإجابة على مثل هذه النوعية من الأسئلة. فإذا كانوا يحتاجون إلى المجئ بانتظام، كل ليلة إلى الحانة، للامتلاء باحتساء الخمر، فهذا وحده دليل أكيد، على كونهم نوعًا ما مجوّفين نسبيًا ومحتاجين إلى هذا الامتلاء اليومي.

تساءل أحد أولئك الذين تحولت لديهم حالة السكر إلى حالة من القلق (هل تحولت فجأة إلى أجوف أم أن هذا التحوّل كان قد جاء بالتدريج؟).

(لا أعرف. كل ما أعرفه هو أنني ذات يوم أدركت أنني أجوف. حتى مجيء ذلك اليوم كنت أعتقد أنني ملآن).

t.me/qurssan

غمغم الرجل (لا أحد يعرف حقًا كل أعماقه).

تتالت كؤوس الخمر في الأيادي، ووصلت المناقشة إلى منطقة غريبة لا يمكن تصديقها. فكلما زاد سكر الإنسان بدت له وقائع الحياة غير قابلة للتصديق. لو كان الإنسان في حالة وعي دون خمور، فهو يقصّ عليك مصدّقا كل شيء، متنقّلا بين ما شاهده في التلفزيون، وما سمعه في الراديو، وما قرأه في الصحف، الإشاعات، معتقداته الحميمة، أحكامه المسبّقة. أمّا في حالة السكر فهو يشكّ حتى في الحقائق الأولية الأساسية المرتبطة بحياته. هذه هي اللحظة التي عادة ما يختارها بروتون للاختفاء، عائدًا إلى الفندق الذي يقيم فيه. في الإياب لم تعد أقدامه واثقة من خطواتها مثلما كانت حالتها في الذهاب. كانت معدته تبقبق. لم يمكنه أن يجد من الذاكرة طريقه إلى الفندق، مما اضطره إلى الوقوف أمام لوحات الخرائط للاستدلال على موقع الفندق. أصدرت مؤخرته أصواتًا وروائح مثلما يفعل شخص يعرف أن لا أحد يراقبه.

ذات صباح تمّ العثور على جثته، تحت مظلة خاصة بالنقل العام، وقد شُقَّت الجثّة رأسيًا من أعلى إلى أسفل، بواسطة قاتل غير محترف. خرجت مصارينه من الفتحة في الجثّة وانزلقت فوق فخذيه وساقيه حتى وصلت إلى فتحة المجاري. بحث القاتل داخل الجسد، نازعًا كل عضو من مكانه، الكبد والطحال والمعدة، وأعضاء أخرى أقل شهرة. كل هذه الأشياء تدحرجت إلى جوار الجثّة. كل هذه الأشياء كانت تفرّغ ما بها من محتويات سائلة أهمها الدم. لم يسمح عمل الطبيب الشرعي باكتشاف أي عناصر يمكنها المساعدة في البحث عن القاتل في هذه الجريمة العنيفة. كل ما عرفناه هو أن بروتون عند موته كان في حالة سكر. كانت كمّية الكحوليات الموجودة في دمه لا تسمح له حتى بقيادة دراجة في أحلامه.

بعد سنوات في الحانات، وبدءا من ساعة ليليّة محدّدة من الساعات، كان يوجد دائمًا هناك شخص ما، ليروي قصة هذا الرجل الضخم، الذي

t.me/qurssan

كان مجوّفًا من داخله، وكان يكسب ما يكفيه من المال عن طريق المراهنات، مع الروّاد الآخرين للحانات، قائلاً لهم إن أحدًا منهم لا يستطيع تخمين وزنه الحقيقي، ولا حتى بالتقريب مع التجاوز عن خمسين كيلوجرامًا. لم يعد أحد يتذكر ماذا كان اسمه. كل ما كانوا يتذكرونه هو أنه ذات ليلة وقع في يد لاعب سيئ لا يرحم.

t.me/qurssan

ـ ١١ ـ

قاتل تسلسلي

منذ أن كان (ألكس مايوك) شابًا صغيرًا، نمت بداخله بذرة قاتل متسلسل. لم تكن هناك أيّة قسوة في قلبه. عندما كان طفلاً لم يكن ينتزع أجنحة الذباب، ولم يكن يغرس أعواد القش في مؤخّرة النحل، لمشاهدتها وهي تتلوّى. كان طفلاً جميلاً ومجتهدًا. مواظبًا على حضور دروس الدين. متميّزًا في الغناء الديني باللغة اللاتينية. كان يحب كثيرًا الألحان الدينية من تأليف يوهان سباستيان باخ. كان يمكنه العزف على الفلوت مؤدّيًا العديد من ألحان جان فرانسوا كوبران. كان يعرف عن ظهر قلب قائمة بأسماء وتواريخ كل ملوك فرنسا. من كلوفيس إلى لويس فيليب الأول. جاد إلى حدّ الإتقان تقليد ضربات فرشاة الألوان على طريقة فينسينت فان جوخ. لم يخطر على باله قطّ أن تأتي على لسانه كلمات قبيحة، حتى لو كان وحده في حجرته.

عندما كان أصدقاء العائلة أو مدرسوه في المدرسة يسألونه عن المهنة التي يودّ أن يمارسها عندما يكبر، كانت أمانته تقتضيه أن يعترف لهم بأنه يحلم بأن يصبح قاتلاً محترفًا متسلسل الجرائم. الا أن شيئًا ما كان يمنعه

t.me/qurssan

من الإدلاء اليهم بهذا التصريح، ويوحي إليه بأن يكتفي بالقول إنه يودّ أن يصبح مدرّسا أو رجل مطافئ. أو حتى أن يصبح محاميًا أو قبطانًا بحريًا للمسافات الطويلة. إن تكتمّه هذا هو ما كان يجعله يعتقد في جدّيّة رغبته. في عصرنا هذا هناك الكثير من الأطفال الذين يحلمون بأن يصبحوا قتلة محترفين. فكانوا يطلبون من بابا نويل كهدية على رأس السنة، مجموعة العساكر المعدنية صغيري الحجم المدجّجين بالسلاح. بالنسبة إلى هؤلاء كانت المسألة مجرّد لعبة مثل بقية الألعاب التي يحفّز فيهم الشقاوة والعبث والإثارة. لكن عند تقدّم هؤلاء الأطفال في العمر فإنهم يختارون عادة المهن التي توفّر لهم الدخل المادي الكافي. أما إذا كانوا لا يستطيعون نسيان أحلام الطفولة، فإنهم يحتفظون بها في أماكن سرية، وذلك لأن الكتمان والسرية هي أهم صفات القتلة المحترفين.

إن مشكلة القاتل المحترف الشاب، هي أن يعثر لنفسه على أسلوب. خاصة إذا كان سيضع في حسابه أن تكون له ضحايا من النساء. هذا هو أبسط شيء يتطلّبه العمل إذا كان القاتل يريد أن يستمر في النوع الكلاسيكي التقليدي من الجرائم. ففيما يتعلق بجريمة قتل وتشويه النساء، فكل شيء قد سبق تجربته من قبل، ومجال الابتكار أصبح محدودًا. فقد قتلت فتيات صغيرات، ونساء صغيرات، شقراوات وسمراوات، وذوات الشعر الأحمر، وفتيات عذراوات، ونساء حوامل، ونساء بظهور حدباء، ونساء ذوات عيون حولاء، ونساء جميلات وأخريات قبيحات، ونساء سمينات، ونساء نحيفات، ممرضات وشاعرات، وموظفات خزانة في المولات، وشقيقتان توأمتان، ونساء مثليات، ومدرّسات.

قبل بلوغه سن الرشد بعدة أسابيع، انشغل (ألكس) بالتنقيب في القواميس والموسوعات، بحثًا عن طبقة البشر الوظيفية الاجتماعية التي لم تكن قد حظيت بعد - بسبب الاهمال أو الصدفة - باهتمام القتلة المحترفين. في لحظة ما تخيّل أنه وجد هذه الفئة في زوجات مسجّلي

t.me/qurssan

العقود. فللوهلة الأولى قد يبدو أن النساء من هذا النوع هنّ من أصعب النساء فيما يتعلق بمحاولة قتلهنّ. لكن من ناحية أخرى بدا له أن مسجّلي العقود هم من أفضل فئات الرجال التي يمكن أن يتحوّل أفرادها إلى أرامل. وهكذا فإن سعيه قد خاب في البحث - بروحه القاتلة الشابة - عن تخصّص يناسبه في فن من فنون القتل الاحترافي المتسلسل، بعد أن فشلت محاولته في المساهمة في إسعاد أكبر عدد ممكن من مسجّلي العقود بتحويلهم إلى أرامل. ذلك أن فنون القتل المتسلسل لا تمثّل أحد أصناف الأدبيّات المعروفة حيث يمكن أن يسهل البحث. بالإضافة إلى أنه من وجهة نظر (ألكس) فإن مسجّلي العقود بشكل عام لا يستحقون امتياز الحصول على متعة التحوّل إلى أرامل دون أن يعانوا ما يستحقّونه من المعاناة.

مع ذلك فإن زوجة أحد مسجّلي العقود هي التي ستحدّد له مصير مستقبله المهني. فبعد تفكير طويل وعميق، ومع عدم العثور على شخص قابل للقتل في محيطه التقليدي، قال ألكس لنفسه إن زوجة أحد مسجّلي العقود هي على أي الأحوال أفضل من لا شيء. خاصة أنه لديه واحدة منهنّ جاهزة تحت الطلب في متناول يديه. خاصة أن جثتها ستكون من الجثث التي يمكن تصويرها فوتوغرافيا بشكل جذّاب وخلّاب. وهو ما كان بالنسبة لمشروعه على قدر من الأهمية التي لا يمكن تجاهلها. هو إذن سيفتالها بعناية واهتمام، حريصًا على عدم تشويه الجثة. ثم يأخذ مجموعة من اللقطات، ويرسل الفيلم إلى إحدى الجرائد ذات أرقام التوزيع المرتفعة.

حصلت جريمته على نجاح كبير لكنه أقل مما كان توقّعه. فقد وصفها المتخصّصون بأنها حادثة قتل، في حين كان هو يعتبرها عملاً فنيًا مكتمل الأركان، يعد بظهور نجم جديد في عالم الجريمة. الدليل هو أنهم تحدّثوا عن الجريمة ولم يتحدّثوا عن المجرم. ففي المجتمعات الحديثة، لا يدعو مقتل زوجة محامٍ إلى مراجعة الضمير. الجمهور يسجّل الحالة ثم يضعها

t.me/qurssan

في أحد أدراج ذاكرته الجمعية. هذا الدُرج لا يعيد الجمهور فتحه إلا إذا وقعت حادثة جديدة ذكّرته بالحادثة القديمة. وحتى يحصل (ألكس) على الأبوّة الشرعية لهذا النوع من الجرائم، وجد ألكس نفسه مضطرًا إلى أن يضّحي بعدد من زوجات مسجّلي العقود المدنيّة.

حتى يحقّق هدفه هذا اقترح ألكس على وسائط الإعلام وعلى الشرطة، اغتيالاً ثانيًا شبيها بشكل مطلق في طريقة تنفيذه بالاغتيال الأول. عدا أن زوجة مسجّل العقود هذه المرة كانت أقل جمالاً واستدارة من الأولى التي على رأس القائمة. كانت كذلك من عشّاق ممارسة الرياضة في الهواء الطلق. كان وجهها من النوع الذي تنقشه الطبيعة مثل وجوه الفلاحات عند عودتهنّ من الحقول. وقد حدث أنه بعد تنفيذ جريمته، وقبل أن يقوم بتصويرها فوتوغرافيًا في موقع الجريمة، أن قرّر ألكس أن يعطيها وجهًا مختلفًا، باستعمال عدد من مستحضرات التجميل، ومن منتجات الطبيعة. وهكذا أصبح للمرأة القتيلة وجه إحدى الأميرات من نبلاء البلاط الملكي في زمن الإمبراطورية الفرنسية، وهي الصورة المرسومة والملوّنة لتلك الأميرة، التي كان ألكس قد شاهدها وهو طفل في واحد من كتب التاريخ المدرسية ولم ينسها أبدًا. لكن زوجة مسجّل العقود رغم هذا التغيير في ملامح الوجه، تحت شفافية هذا الماكياج النبيل، ظلت قابلة للتمييز بشخصيتها الأصلية. كان هذا هو المهم بالنسبة لألكس.

قامت الصحافة المحلية فورًا بالربط بين الجريمتين، لكنها لم تصل إلى التفكير بأن الجريمتين هما من فعل قاتل واحد. لكننا لو قرأنا ما بين السطور لأمكننا أن نتكهّن بأن الفكرة كائنة في مكان ما. كان ألكس يعرف أن النقّاد ينتظرون الفنّان الخالق عند منحنى الطريق. ويعرف كذلك أنهم نادرًا ما ينتقدون بشدّة عمله الأول. بل إنهم غالبًا ما يرأفون بصاحبه. وذلك لأنهم يعتبرون العمل الأول تجريبيًا، وينتظرون بعد ذلك أن يروا نتائج متابعة بقية الأعمال التالية. ولكن في المقابل، فإنهم لا يرأفون بالعمل

t.me/qurssan

الثاني، بل ينتقدونه بشدّة سواء أكان هذا العمل فيلمًا سينمائيًا أو كتابًا أو جريمة قتل.

وبالتالي فإن الجريمة الثانية لقاتل يحترم نفسه، ويحترم فنه، يجب أن تتفوّق على جريمته الأولى، وأن تؤكّد على صفاته الجوهرية. فالجمهور يحبّ أن يعثر في الجريمة الثانية على نفس الملامح التي أحبّها في الجريمة الأولى. بشرط ألا نواجه الانطباع الأليم بأننا نجعل الجمهور يرى ما سبق له أن رآه. ولذلك فإن ألكس ضاعف اهتمامه بدراسة سيناريو التنفيذ على مسرح الجريمة، التي أرادها أن تكون أكثر مثالية من السابقة، بل أكثر إثارة للاهتمام وأكثر عظمة. كان هذا صعبًا إلى حدٍ ما وذلك لأن بطلة العمل لم تكن من بطلات الصف الأول. وهكذا يجب علينا أحيانًا أن نكتفي بالإمكانيات المتاحة، أو أن (نغزل برجل حمار). وليس هذا على الاطلاق خطأ ألكس إذا كان مسجّلو العقود لديهم هذا الذوق المتواضع في اختيار النساء، فيتزوّجون زواجًا شرعيًا من سيّدات متوسّطات الجمال.

كان يتحدّث إليها على أنها شريكته في عمله الفني، بينما كان جسدها يفقد حرارة الحياة ويكتسب برودة الموت، وذلك أثناء وضعه مساحيق التجميل على وجهها، ثم أثناء تغطيته رأسها بباروكة الشعر المستعار التي كانت الأميرة من النبلاء تستعمل مثيلتها. لجأ إلى الكثير من الحيل الفنيّة ليعمل أقصى ما هو ممكن، أو ليعمل (من الفسيخ شربات)، إلا أنه كان متألمًا بسبب أنه لم يشعر نحوها بأي تعاطف. قال لها أشياء لطيفة، مثلا أنها ستكون جميلة في لحظة دخولها إلى عالم المجد، وأن ذريّتها ستحتفظ لها بصورة رشيقة. أدّى اكتشاف ألكس للصورة في الصفحة الثالثة من الجريدة إلى زيادة سرعة دقّات قلبه، كما لو أنه عثر على صديقة كان فقدها منذ فترة طويلة. بعد الانتهاء من عملية التجميل بدت القتيلة أصغر بعشر سنوات من سنّها الحقيقي. في صورة الجريدة كانت باقات الزهور تحيط برأسها السابح في موجات من الأضواء الملوّنة.

t.me/qurssan

في العام التالي تعهّد أربعة نساء بالتدليل. كنّ هنّ أيضًا من بين زوجات مسجّلي العقود. في كل مرة جديدة كان يحاول أن يزيد في إتقان صنعته، وفي تجويد فنه. حتى يُظْهِر للجميع أنه جدير بالمهنة التي من أجل ممارستها كان قد وُلِد. هو لم يكن يقتل أي شخص دون تمييز. هو كان يختار فريسته من بين النساء المميّزات بالمعاني وبالرموز: فالنساء المتقدّمات في السن يصبحن على يديه أصغر سنًا. والنساء القبيحات المنظر يصبحن على يديه أقل قبحًا. والنساء التعيسات يصبحن على يديه أقل حزنًا. كان يهوى أن يضيف إلى عيونهنّ رموشًا صناعية، وإلى أصداغهن شامات الحسن التي يمكن لصقها على بشرة الوجه. بل إنه كان حتى أحيانًا بعد ارتكاب جريمته يصبغ شفاههنّ باللون الأحمر بخطوط سميكة تزيد من حسّيّتهن الشبقية.

لم يكن يتردّد في تضفير شعورهن إذا كان هذا سيزيدهنّ جمالاً، أو في عمل (ذيل حصان) لبعضهن إذا كان هذا أكثر مناسبة لهن. كل هذا حتى يمكنهن أن يظهرن أكثر جمالا وأصغر سنًا أمام عدسات التصوير. كان ينظف لهن أسنانهن بالفرشاة وبمعجون الأسنان. كان يحشو لهن أفواههن بالقطن، إذا بدا له أن خدودهن ضامرة أو منسحبة إلى الداخل، وذلك حتى يظهرن كما لو كنّ في كامل صحّتهنّ. كان أحيانًا ينزع عنهن الشعر الزائد في حواجبهن. كان ينعّم لهن بشرة الوجه. وأحيانًا يقوم بعملية شدّ الوجه لإزالة التجاعيد، ثم يقوم بلصق الطيّات المشدودة إلى أحد جانبي الوجه بشريط لاصق، يحاول إخفاءه تحت خصلة طويلة من شعر الرأس.

ازدادت شهرته في عالم الجريمة. فبعد ستة اغتيالات بدءوا في التعامل معه بجدّية. بدأ التلفزيون في تخصيص برامج لمتابعة تاريخه الإجرامي، وفي إرسال محرّرين إخباريين إلى مسارح الجرائم، وفي استدعاء أخصّائيين نفسيين لدراسة حالته في البرامج الإخبارية التي تأتي بعد نشرة الثامنة مساء. بالطبع أسعدته كل هذه الضجّة المثارة حول

t.me/qurssan

أدائه. كان يجد لذّة خاصة في الاستماع إلى ما يقال عنه. بالنسبة لمعاصرية كان يمثّل لغزًا رائعًا لا مثيل له. فأول شيء أثار التساؤلات هو أن القاتل لا يغتصب ضحاياه. لكن السؤال هو هل يمكن اغتصاب إحدى زوجات مسجّلي العقود؟ فهي إن كانت راضية وموافقة، تضيع لذّة الغزو. وهي إن كانت شائخة متغضنة لن تبعث في الرجل أي رغبة. الحقيقة هي أنه لا يمكن اغتصاب زوجات مسجّلي العقود. لكن يجب قتل بعضهن حتى يعرف المرء أن هذه هي الحقيقة.

تلي ذلك التساؤلات حول السبب في أن القاتل يختار بالذات زوجات مسجّلي العقود؟ أعدّوا أبحاثًا وراكموا دراسات ونظريات حول هذه المسألة، كلها كانت مغرية وجذّابة. أشاروا إلى عمليّات تثبيت نفسي غير قابلة للإزاحة، تؤدّي بالضرورة إلى محاولة التخفيف من الضغائن، وذلك بالانتقام من شخص مسجّل العقود، وقد يكون هذا بسبب إرث أرض زراعية ضاع على صاحبه، بسبب تلاعب أحد مسجّلي العقود. أو أن يكون القاتل موظّفا لدى أحد مسجّلي العقود الذي قام بإهانته علنًا، فقرر الانتقام منه. أو أن يكون القاتل هو ابن غير شرعي لأحد مسجّلي العقود. آخر ما قيل هو أن يكون القاتل مثلي الجنسية خانه أحد مسجّلي العقود مع امرأة.

كذلك تنوّع جمهور معجبي ألكس. فكل جريمة جديدة وسّعت قاعدته الجماهيرية، وأكّدت له أنه أحسن اختيار الطريق. في دواخل نفسيته كان ألكس يشعر بالامتنان لهذا الجمهور المتزايد من ملايين المعجبين، الذين يشترون كل تلك الجرائد لا لشيء إلا لمتابعة أخبار آخر غزواته وإنجازاته. إنه يجعل كل هذا الجمهور يحلُم، تمامًا مثلما يفعل لاعب كرة القدم المحترف عندما يُشْعِل خيال الجماهير الشابة التي يودّ كل شاب منهم أن يصبح لاعبًا محترفًا مثله. تمامًا مثلما يفعل النجوم من المغنين ومن ممثلي السينما. كل يوم كان يركع أمام الله، سواء أكان ذلك في كنيسة أو في

t.me/qurssan

منزله، ليعبّر له عن كبير امتنانه، وليطلب من عظيم رحمته بإلحاح ورجاء، أن يستمر في مدّه بالقوة التي تكفل له أن يستأنف السير في نفس طريقه هذا.

(أيّها الربّ أطلب منك أن تظل هناك في خليقتك زوجات لمسجّلي العقود، وأن تظل لديّ القوّة والرغبة في أن أقضي عليهنّ واحدة واحدة، بقدر كبير من الرقّة والحنان).

لم يحدث أبدًا أن مرّ ألكس أمام كنيسة، دون أن يدخل ليشعل شمعة في هيكلها. هو كان يعتبر نفسه فنّانًا يمارس فنًا يكاد أن ينقرض ممارسوه. أو قد يكون من الأفضل استعمال كلمة (صنايعي) التي تدل على قدر أكبر من التواضع. هو يتفضّل بتلقيب نفسه بالمتواضع وذلك بنوع من إنكار الذات. هو ينمحي خلف عمله. فإن جرائمه تتحدّث عنه. وقد تحدّث عنه الجميع. الصحافة والجمهور المحموم بالحماس والشرطة والعلماء. لم يكن يطلب أي شيء أكثر من هذا. فإن السعادة التي يمنحها للجمهور هي ما يشبعه. بالإضافة إلى أن يكون راضيا عن أدائه المتميّز.

في المساء عندما يكون في منزله الصغير، ويخرج متنزّها بين أشجار الليلك وغيرها من الزنبقيات، كان يعزف على آلة الفلوت بعض ألحان موسيقاه المفضّلة من أعمال جان فرنسوا كوبران. كانت تلك الموسيقى تمتلك فضيلة مساعدته على الاسترخاء. كان يعزف أيضًا من أجل شريكاته في هذا النجاح. وفي هذا المجد. السيّدات القتيلات اللائي تحوّلن بفضل مهارته إلى سيّدات شهيرات. كان يطلب النصح منهنّ بفضل الشراكة بينه وبينهنّ. كان يصلّي من أجل أن يغفر الله في السماء لهنّ ذنوبهنّ. ذلك أثناء تصفّحه الملف الذي يجمع كل قصاصات الصحف. كل المقالات التي كرّست شهرته. كل حلقات هذه المغامرة الجميلة الجديرة بالمجد. شيئا فشيئا أصبح يعرف عنهنّ كل تفاصيل حيواتهنّ، منذ مرحلة الطفولة إلى مرحلة ذهابهنّ إلى المدارس. يعرف كل شيء عن الحفلات

t.me/qurssan

التي كنّ يحضرنَها، والإجازات التي قضينَها في مناطق جبلية، أو الرحلات إلى السواحل التي كنّ يشتركنَ فيها.

كانت الصحف تقوم بدور هام في تعريف الجمهور - المتشوّق إلى المعرفة - بكل هذه المعلومات. ليس هناك مثل مقتل شخص مجهول، لتتحوّل كل تفاصيل حياته إلى مادة دسمة للصحف. كل الأشخاص يتكلمون. مسجّلو العقود يتكلمون. والد ووالدة الضحيّة يتكلمان. إخوتها وأخواتها وأولاد وبنات أعمامها وأولاد وبنات خالاتها. أصدقاؤها وصديقاتها وجيرانها وجاراتها. ينبغي على كل شخص أن يدلي بدلوه. ينبغي أن تكون لكل شخص تعليقاته. ووفقًا لهذه الشهادات المتناثرة في ألف ورقة مثل أوراق نبات الكرنب، التي تقدّم في خمسين برنامجًا تلفزيونيًا، وفي مئتي برنامج إذاعي، يقوم ألكس بإعادة صياغة السير الخاصة بحيوات ضحاياه، فيما يتعلق بالتواريخ والأحداث الهامة، مثل الميلاد والاحتفالات والوفيات، ومستويات الدراسة والنتائج في السنوات النهائية، والعناوين التي سكنتها الفقيدة، والمشاكل التي واجهتها العائلة، بشكل متتابع زمنيًا، بحيث يتم احترام التسلسل الزمني المتتابع.

ما كان يهمّ وسائل الإعلام المختلفة مع كل جريمة جديدة، هو أن توضع أمام القارئ أو المستمع أو المشاهد، ملخّصات عامة لإجمالي الجرائم السابقة، حتى يستطيع الجميع متابعة الأحداث الجديدة في المسلسل. وعندما يعاد سؤال محققي الشرطة حول ملابسات الجريمة، ومدى التقدّم الذي تحرزه التحقيقات، يقولون إنه تتم مراجعة وإعادة ترتيب ومقارنة المعلومات. القضاة يعيدون نفس هذا الكلام. كذلك يفعل الأطباء النفسيون. كذلك يفعل الصحفيون في أعمدة بطول صفحات جرائدهم، وبعرض صفحات جرائدهم. دون أي كلل أو ملل. على الأقل فإن هذا هو ما يبدو لنا في الظاهر. ففي الحقيقة ينتهي الجميع إلى الإحساس بالملل.

t.me/qurssan

في الجريمة الرابعة عشرة، شعر ألكس أن منحنى الاهتمام يتناقص. أشارت إليها الجرائد كما تفعل عادة، ولكن دون ذلك الحماس الذي كان عادة ما يجعل أوراق الجرائد ساخنة ملتهبة مشتعلة. رغم أنه كان ينظر إلى جريمته هذه الرابعة عشرة بنوع خاص من التقدير، على أنها أكثر جرائمه نجاحًا. فقد استثمر فيها كل خبرته. لم يكن ينقص التنفيذ لا المقاييس الجمالية ولا تلك الخيالية. كانت جريمة جديرة ببرامج المنوّعات التلفزيونية. حدّد هدفه خلال إحدى السهرات الخيرية، حيث الجو الاحتفالي وفقاقيع الشمبانيا. ليلة من ليالي الجنون في أحد الأندية الشهيرة حيث الرقص والضحكات. كان يمكننا أن نرى كل هذا في وجه القتيلة. كان باختياره هذا يريد أن يقول إن القتلة المحترفين هم أيضًا يعرفون كيف يسلّون أنفسهم. في الحقيقة يحدث أحيانًا أنهم حتى يمكنهم أن يتمتّعوا بروح المرح. مثلاً هو كان قد وضع حول جثة ضحيته الثالثة عشرة عددًا من حدوات الأحصنة كرمز للوقاية من التطيّر ومن العين الشريرة.

ومن أجل أن يعيد انطلاق حماس الجماهير، قرر أن يستعمل الخيال. فكّر في أن الرقّة قد انتهى زمنها. وأن العصر الحالي هو زمن العنف والوحشية والدموية. فهو مثل الروائي والمخرج السينمائي. وعلى القاتل المحترف إمّا أن يتأقلم مع الظروف الجديدة، أو يختفي. وبالتالي فقد صنع من ضحيته رقم 15 عملاً تجريديًا. استخدم فيه الماء عند درجة الغليان، وضربات عشوائية من السكين. العاصفة عند فيكتور هوجو. مع إضافات من أعمال الجزارة. انفجار في الهيموجلوبين. مع خلطة من أغشية نسيج المخ. مع جزر طافية من اللحم البشري. انتزع كرة العين وعلقها كحلق في الأذن. الشريان الأورطي مثل ربطة عنق. الكل مخلوط بالنبيذ الوردي. مثل الحالات التي يدرسها الطلبة في المراكز الثقافية كنماذج للمشوّه حيًا.

t.me/qurssan

اعتمد ألكس كثيرًا على هذه الفكرة الجديدة في إعادة صياغة شعبيته الطاغية التي كان على وشك أن يفقدها، وفي إحياء اهتمام وسائل الإعلام المختلفة بموهبته. لكن المتخصّصين في عالم الجريمة أكدوا أن تلك الجريمة رقم 15 لا يمكن أن تكون إلا تقليدًا بدائيًا غير متقن الصنع للعديد من الجرائم السابقة المشهورة في عالم الجريمة.

أعلن الأطباء النفسيون هذه الحقيقة قائلين:

(ليس هذا على الإطلاق هو أسلوبه).

كان هو قد حصل على لقب (القاتل المهذّب). وحصلت جرائمه على لقب (جرائم استثنائية). كانوا قد بدءوا في مقارنته بالرسّام الكلاسيكي واطو .Watteau وفيما يتعلق بقصته كان الكتاب الصحفيون يختارون أحيانًا فقرات من أشعار فيرلين .Verlaine ذلك بسبب أنه كان كثير الاستعمال لباقات الزهور في تجميل ضحاياه. لقد أصبح مرجعًا من المراجع التي يعود إليها أصحاب مشاتل الزهور ويكرّرون ذكرها. حتى أن الضحية رقم 7 من ضحاياه كانت قد أوحت إلى أحد أصحاب المشاتل أولئك، باسم زهرة جديدة حملت لقب (زوجة مسجّل العقود). حدث شيء قريب الشبه بذلك فيما يتعلق بالضحية رقم 10 التي أوحت إلى أحد منتجي مستحضرات التجميل بلون جديد من ألوان الشفاه، الذي اشتهر وشاع استعماله. في النهاية صحيح أنه قاتل إلا أنه لم يترك في جرائمه إلا الذكريات الطيّبة.

كان قد أصبح من المعروف أنه يتنقل من مدينة إلى أخرى. وأن زوجات مسجّلي العقود كنّ يرتجفن بمجرد ذكر اسمه. لكن أغلبية الشعب النسائي في فرنسا لم تكن معنيّة بالأمر. كان الخوف كامنًا في كل مكان. كانت الموضوعات المخصّصة له بشكل دوري في الجرائد تجعله قريب الشبه بمؤلف روائي غزير الإنتاج لكن لم يعد لديه ما يقوله. حتى قدرة الخلق الفني للقتلة المحترفين الاستثنائيين يمكنها أن تنفذ في مواجهة ثرثرة

t.me/qurssan

النقاد المحترفين. شعر بقدر من الظلم الواقع عليه بخصوص الاعتقاد الذي ساد في تلك الفترة عن إنكار أنه صاحب الجريمة رقم 15 كان يريد لو أن الفرصة قد أتيحت له ليشرح موقفه لدعم فكرة أن الفنان له كل الحق في تطوير أدائه، حتى لو أدّى ذلك إلى التغيير التام لمصادر وحيه وإلهامه. كانت لديه في ذاكرته نماذج دالة وهامة في كل مجالات الفنون، الرسم والشعر والموسيقى والمسرح. حتى أن هناك نماذج في مجال السياسة. كانت تلك الفترة في حياته هي فترة الشكّ في الذات. كان يتعذّب. ثم بدأ في تحليل أعماله بنوع من صفاء الذهن لم يكن معروفًا له حتى ذلك الحين.

لأول مرة في حياته يتساءل إن لم يكن قد أخطأ في اتخاذ القرار. هل كان من المقدّر له فعلاً أن يصبح قاتلاً محترفًا؟ هو كان موهوبًا لا شك في ذلك. لكن فيما وراء الموهبة، هل كان يمتلك الاستعداد لفهم اللغز الخاص بعملية الخلق الفني، وحل لغز التناقض الواقع لا محالة بين شخصية الخالق الفني الذي فيه وشخصية الإنسان العادي الذي كانه؟ كيف أنه كان في واحدة من جرائمه مغيّب الوعي تمامًا حتى أن أشد معجبيه لم يتمكنوا من التحقّق من شخصية أسلوبه في الخلق الفني؟ ورغم أن الجريمة رقم 15 كانت تنتمي إلى الفن التجريدي أكثر منها إلى أنواع الفنون الأخرى التي مارسها من قبل، ورغم أنها كانت منفّرة في طريقة عرض الجثة، فإنها مع ذلك كانت لا شك تحمل بصماته. كانت هناك روحه الفنية في التكوين الجمالي للموضوع. كانت هناك شعرية غنائية في حركة الأعضاء.

صرخ متعجّبا (كنت أنا. كل ما في الجثّة كان يعبّر عنّي أنا. هذه هي أفكاري، وهذه هي تقنياتي الأسلوبية. حتى أنه كانت هناك بعض الزهور الحمراء اللون العائمة على السائل الأحمر).

كان مهدّدا بالإصابة بالاكتئاب. منذ أشهر فقد الرغبة في القتل. كان يؤنّب نفسه أنه تخصّص في قتل زوجات مسجّلي العقود. فأحلام فترة

t.me/qurssan

شبابه كانت أن يتخصّص في قتل الأخوات الراهبات. كان هذا هو الموضوع الذي فكر فيه قبل أن يسقط في فخ سهولة قتل زوجات مسجّلي العقود. الراهبات كنّ يمثلن موضوعًا أفضل. لكن المشكلة كانت في ندرتهنّ وهو في شبابه لم يكن صبورًا بالقدر الكافي. وهكذا بدلاً من أن يختار هو اختارت له الظروف والملابسات أن يقتل زوجات مسجّلي العقود. خطأ من أخطاء شبابه. ومع ذلك فلم تكن ضحاياه من النوع السهل. كنّ يقاومنه. ثم إنهنّ عندما يتحولن إلى جثث لم يكنّ يثرن العواطف. فالجمهور لم يكن حقًا يأسف لهنّ بسبب كونهنّ زوجات لمسجّلي عقود. لم يكن عليهنّ إلا ألا يتزوجن من مسجّلي عقود إذا كنّ قد أردن تعاطف الجمهور معهنّ.

حتى أكون قد قلت لكم كل شيء، فإن ألكس كان قد اعتقد أن تاريخه المهني قد انتهى. تذكّر كل أولئك المغنين الذين لم تشتهر لكل منهم إلا أغنية واحدة. ظل كل منهم يردّدها أينما ذهب، في الاحتفالات بالأعياد الدينية في الأرياف، وفي احتفالات المدارس بأعياد الميلاد ورأس السنة، وفي برامج المنوّعات التلفزيونية المخصّصة لكبار السن، حتى انتهت حياته. فإذا كان هناك مغنّون قدماء، فلماذا لا يكون هناك قاتلون محترفون قدماء. فهؤلاء وأولئك يسعون إلى تذكّر نجاحات أمجادهم القديمة. ومثل المغني الذي يحفظ ماء وجهه عندما يسألونه عن جديده، فيقول إنه في سبيله إلى إعداد أسطوانة جديدة، أو ألبوم غنائي جديد، كان ألكس يقول لنفسه إنه رغم عمق هذه الموجة العاتية هو في سبيله إلى الإعداد لجريمة جديدة، ستعيد الألق إلى تاريخه المهني. لديه أفكار جديدة تتخطّى كل أفكار الآخرين في عالم الجريمة. وأنه بذلك سيعود إلى مكان الصدارة الذي كان يشغله سابقًا.

عاد إلى الاقتراب من العوالم التي تدور فيها زوجات مسجّلي العقود، لكنه لم يعثر بينهنّ على تلك التي تستحق أن تكون موضوعًا لحادث اغتيال من ابتكاره. كنّ جميعهنّ من بين تلك النماذج العادية المتكررة التي سبق له

t.me/qurssan

أن قتل منها خمسة عشر نموذجًا. هو لم يعد يريد أن يكرّر نفسه. يُقال إن هناك مؤلفين روائيين يكرّرون دائما الحديث في رواياتهم عن نفس الأشخاص. هو لا يريد أن يكون مثلهم. ومع ذلك هو لا يزال مصرًا على عدم تشتيت جمهوره، وهو الشيء المتوقّع حدوثه لو أنه قرر الآن أن يختار أختًا راهبة. هناك عبارات أدبية روائية مشهورة تدور في رأسه، مثل عبارة (ليست تمامًا هي هي وليست تمامًا هي أخرى)، وعبارة (التغيير مع الاستمرار في نفس الطريق)، وعبارة (بقدر ما كانت هي متشابهة، بقدر ما كانت هي مختلفة). هذه العبارات السيميائية الرائعة كانت تجعل رأسه يدور حتى يفقد اتزانه.

وحتى لا يسقط بسبب هذا الدوار على الأرض، تعلق بأرفف الكتب التي يضع عليها أيضًا ملفّات ضحاياه بالتريتب الزمني لظهورهنّ على مسرح حياته المهنية. غالبًا هو كان يعود إلى هذه الملفات كما يعود الشخص منا إلى النبع للتزوّد بالماء الصافي أو بالمزيد من الإلهام. ينغلق على نفسه وحده في منزله ويفتح الملفات. كان يجد في هذا الطقس نوعًا من العزاء. كانت تربيته الدينية أثناء طفولته توقظ لديه أحيانًا بعض الإحساس بالندم. كان ضميره أحيانًا يؤنّبه. لكن ليس كما تتوقّعون بل كان تأنيب الضمير هو بسبب أنه لم يفكر أبدًا في الذهاب إلى قبور ضحاياه للترحّم عليهنّ، رغم أنه كان يعتبرهنّ شريكات له، بل ملهمات مثل ربّات الفنون السبع في الأساطير الإغريقية اللائي سمحن له بالتحقّق. كل زوجات مسجّلي العقود أولئك كان يعتبرهنّ مثل ربّات فنون.

هو لم يكن يحبّهنّ كما يحبّ الرجل النساء. لكنه أحبّهن لأنه يحب نفسه، وهي أغلى ما يمتلكه على هذه الأرض. كنّ قد متن بين أصابع يديه. كان هو قد أعطاهنّ الوضع الذي متن عليه، مثلما يعطي النحّات للمادة الخام لتماثيله الشكل النهائي الذي ستظل عليه التماثيل إلى نهاية وجودها. هو لم يخنقهنّ فقط لا غير، مثلما كان لقاتل عادي مبتذل أن

t.me/qurssan

يفعل. بل على العكس هو قد أعطاهنّ شكلا صلبًا باقيًا بقاء معدن البرونز أو الذهب في التماثيل. وهكذا أصبحن بفضله أعمالاً فنيّة. هو يعرف أن بعض هواة التحف يجمعون الصور الفوتوغرافية لضحاياه المنشورة في الصحف.

قال في نفسه (كنت قد بلغت القمّة، وليس هناك ما هو أعلى قيمة من هذه القمّة يمكنني إنجازه. الأفضل لي هو الموت).

لم يمت. لكنه وجد ما يمكنه به أن يتفوّق على نفسه. عندما أعاد دراسة ملفّات ضحاياه لاحظ أنه من بين الخمسة عشر مسجّل عقود، الذين أنعم عليهم بلقب (أرامل) المحسودين عليه، هناك ثمانية تزوّجوا مرة ثانية. هنا وضع علامات أمام أسماء أولئك الذين تزوّجوا من جديد، وقرّر أن يقتل زوجاتهم الجديدات. وهكذا فإن عليه أن يبدأ في مهمّة قتل الزوجات الثمانية. وبالتالي عليه أن يطيل القائمة. فبدلا من الرقم 15 سيصبح الرقم 23 أصبح مفتونًا تمامًا بهذه الفكرة. أمضى الأسابيع التالية وهو محموم بالفكرة التي أخذته إلى عمق الأحاسيس المرتبطة بارتكاب جرائمه الأولى. أصبح متورّطا في دوّامة من الأفكار المجنونة التي ترك نفسه مأخوذًا بها ومدفوعًا وراءها. لم يكن يشعر بالهدوء إلا عند عزفه على آلة الفلوت، وهو يتنزّه لساعات على حافة البحيرة. بدأ في رسم خطط العمل. بدأ يبحث زوايا الهجوم. اشترى أنابيب الألوان، ومستحضرات التجميل، والأكسسوار مثل الحليّ من العقود المصنوعة من المواد البلاستيكية التي تستعمل في العروض المسرحية. وفي أقل من ثلاثة أشهر من العمل المتواصل، انتهى على الورق من التخطيط لنصف دستة جرائم.

أول مسجّلي العقود في القائمة، كان قد تزوّج من فتاة شابة كانت تصغر زوجته الأولى بكثير. بل هي في الواقع أفضل منها في كل شيء بكثير. استنتج ألكس من ذلك أن مسجّل العقود بما له من طبع عملي

t.me/qurssan

واقعي، كان قد تزوّج في المرة الأولى من أجل الدوطة، وهو المال الذي ساعده في الحصول على مكتب في موقع جيد وعلى زبائن. أما في زواجه الثاني فقد أصبح في حاجة أكثر إلى مخلوقة جميلة ذات إمكانيات جسدية يشبع بها رغباته الجنسية. لذلك كان بحثه عن فتاة في سن صغيرة، جيّدة البناء مثل قائدة درّاجة هولندية في سباق عالمي للدرّاجات، مزوّدة بثديين وردفين مثاليين، وبفم شهواني.

كان يشعر بالامتنان نحو مسجّل العقود الذي أعطاه فرصة التعامل مع جسد شاب، بعد كل ما رآه في ضحاياه السابقات. كانت العملية هذه المرّة مصدرا للسعادة. شعر هذه المرة بأن السيدة الشابة لا تزال تنبض تحت يديه. رغم كونها كانت قد فقدت الحياة، فإنه كان يشعر كما لو أنها كانت تستجيب ليديه، كما لو أنها كانت لا تزال على قيد الحياة تستجيب لمداعبات عشّاقها. كان يتحدّث اليها أثناء إجرائه عمليته، كما لو كان مصفّف شعر يتحدث إلى زبونته. كان يرى فيها كما لو أنها كانت تعيده إلى فنه الكلاسيكي بعد أن كان قد مرّ في عملياته الأخيرة بمرحلة الفنون التجريدية التي كان جمهوره قد قابلها بفتور.

هذه المرة تحمّس جمهوره له من جديد، خاصة من يفهم منهم في جماليّات الصورة. لم يتناقش أحد في مسألة إن كانت الصورة التي ظهرت عليها القتيلة هي من إبداعه هو أم أنها منقولة عن غيره. احتفلت الجرائد بعودته وخصّصت له ملفّات بأكملها. وصفت الجرائد جريمته بأنها بشعة إلا أن هذه كانت طريقة الصحفيين في إبداء حماسهم. هذا كان يعني بالنسبة إليه أنها جريمة مكتملة. انتشرت على المواقع القائمة الكاملة بالضحايا القادمات، بعد أن كان كل الناس قد أدركوا أن خطته هي قتل الزوجات الثانيات لنفس مجموعة مسجّلي العقود الأولى. هنا تنفّست الزوجة الأولى لكل مسجّل عقود في البلاد الصعداء تعبيرًا عن الشعور بالانعتاق. وُضِعَت الزوجات المستهدفات تحت رقابة بوليسية، مما أراح

t.me/qurssan

الأزواج المتقدّمين في السن من شكوكهم فيما يتعلق بالخيانات الزوجية للزوجات الشابات.

كان ألكس مستمتعًا تمامًا بكل هذه الأخبار. لكنه أدرك أن تحقيق بقية مشروعه سيكون من الآن فصاعدًا محفوفًا بالمخاطر. يجب عليه لو أراد الاستمرار في تنفيذ الخطة أن يلجأ إلى أفكار جديدة في منتهى العبقرية. ثمّ أدرك أن أغلب الزوجات الثانيات على قائمته قد تمّ استبدالهنّ بشرطيات يقترين من النماذج الأصلية في الشكل العام وفي مقاييس الجسم. كان كل الناس ينتظرون خطوته التالية. هكذا قرّر أن ينتظر عامًا قبل الإقدام على جريمته التالية.

t.me/qurssan

ـ ١٢ ـ

الوصية السادسة

كان (جيريمي) يشعر بالغيرة مرة واحدة كل يوم، لمدة خمس دقائق، حوالي الساعة الثانية عشرة والنصف ظهرًا. هذا كان يحدث خلال فترة الاستراحة من العمل. أحيانًا كان هذا يحدث قبل الثانية عشرة والنصف بقليل. فيما مضى كان هذا يحدث بعد الساعة الثانية عشرة والنصف بقليل. فيما عدا هذا التوقيت كان جيريمي شخصًا عاديًا ليس به خصوصيّات تميّزه عن الآخرين، بل هو كان مثل كل الآخرين، لطيفًا بشوشًا صحبته ممتعة، وفي بعض المناسبات كان قادرًا على أن يحكي قصصًا مضحكة. لكنه في كل الأيام، حوالي الساعة الثانية عشرة والنصف، كان يحتاج إلى أن يكون متشككا بعض الشيء. كان يتصّل تلفونيًا بزوجته، أو أحيانًا لا يجد الداعي لإبلاغها، بل يذهب مباشرة هكذا لزيارتها في مكان عملها. لم يكن يستطيع أن يمنع نفسه من فعل ذلك.

عندما بدأت الأزمة كان يراها وهي تمارس الحب مع كل أصناف الرجال في كل أنواع الأماكن. كان ينصت إليها وهي تنطق بكل الكلمات القذرة التي تحفّز الرغبة لدى شركائها. بالنسبة إلى زوج عاشق كانت هذه

t.me/qurssan

التجارب فوق قدرته على التحمّل. كان يتألّم. كان العذاب يمزّق قلبه. ثم تلت ذلك مرحلة عدم التفكير في المسألة. إلا أنه احتفظ بذكريات مؤلمة لمرحلة تلك الفترات القصيرة من العذاب. ثم أحس بالخزي من نفسه. ثم وجّه إلى نفسه الانتقادات المريرة الأكثر إيلامًا. بدأت صور ذكريات غامضة تطفو لحظيًا على سطح ذاكرته ثم تختفي. ثم استعاد هدوءه وحسّ الفكاهة. ثم استعاد ثقته بنفسه.

ومع ذلك فقد أحبّها. كان يشعر، بل كان يعرف بشكل أكيد أنه يحبّها. كانا قد تزوّجا منذ خمسة عشر عامًا. بدأت الأزمات بعد وقت قليل جدًا من الزواج. في البداية لم تكن تلك الأزمات عنيفة. كان لديه فقط الانطباع بأنه يختنق وبأن رأسه يدور. لم يكن يرى شيئًا محدّدًا. ولكن شيئًا فشيئًا وبمرور السنوات، بدأت ملامح المتاعب التي لديه تتضح. كان جيريمي ينصت إلى أصوات، كانت تشبه تلك التي ننصت إليها في مكالمة تلفونية. لم يميّز مباشرة وبشكل واضح صوت زوجته. ربما أنه لم يرد أن يميّز صوتها. بدا له ذلك أن يكون مثل ارتكاب انتهاك للحرمات. أن تكون زوجته موضع شكّ، في حين أنها كل يوم تجلب إليه المزيد من الدلائل على إخلاصها له وتعاطفها معه. كانت أفضل الزوجات. إلى جوارها كان يشعر بالسعادة.

في أيام الآحاد، وفي أيام الإجازات، كانت الأزمات تأتي أثناء تناول وجبات الطعام، جالسَيْنِ وحدهما أحدهما في مواجهة الآخر. حتى بعينيه مفتوحتين كان مدركًا تمام الإدراك أن زوجته تجلس أمامه. كان يتخيّل رؤيتها في دورة مياه إحدى المؤسسات العامة، أو في سيارة مركونة في أحد الطوابق السفيلة في جراج تحت الأرض، تهب نفسها إلى رجل دائمًا هو لا يعرفه. من وقت لآخر كان هذا الرجل هو أحد الجيران، أو أحد زملاء العمل، أو أحد عمّال الجراج، أو أحد مديري المركز التجاري. لكن في أوقات أخرى كان يمكن لهذا الرجل أن يكون أي شخص آخر. أحد سائقي التاكسيات، أو أي شخص مجهول اعترض طريقها في المترو، أو

t.me/qurssan

أحد عمّال توصيل الطلبات إلى المنازل، الذي لم يهتم حتى بخلع قبّعته أثناء ممارسة الاتّصال الجنسي. كان جيريمي يراهم بوضوح. كانوا كلهم دائمًا في أفضل أحوالهم معها. كانوا كلهم يتعاملون معها كما لو كانوا يعرفونها في الفراش منذ مدة طويلة. كان هذا قاسيًا جدًا عليه.

عندما كانت تلاحظ عليه غرابة تصرّفاته، والانطباع الذي يعطيه لها بأنه غائب عنها، كانت زوجته واسمها (جراس) والكلمة Grace تعني رحمة، تسأله ماذا دهاه، وإن كان يشعر بأي توعّك، أو إن كان في احتياج إلى أي شيء. كان بلا شك سيشعر بالانحطاط في قواه لو حاول أن يذكر لها الحقيقة. هو فوق كل شيء آخر لم يكن يريد لها أن تعرف حجم الشكوك غير المبرّرة التي تهاجمه. لكن الحقيقة كانت هي أنه كان شاهدًا على أنها تنام مع الواحد ومع الآخر. هو لو مدّ فقط يديه فوق الأطباق التي أمامه للمس فجورها وفسقها. لكنه لم يكن يجرؤ على مدّ يديه. بدت له اللحظات الشبيهة بتلك اللحظات لا نهاية لها. لكنها كانت لحظات قصيرة لا تمتد أبدًا إلى درجة أن تجعله ينشغل بها عن الطبق الساخن أمامه حتى يبرد. وبمجرّد أن تمرّ الأزمة، تستمر وجبة الطعام كأن شيئًا لم يكن. كانت الثرثرة الزوجية المخلصة تسترد عافيتها، بين قضمتين من لحم فخذ الخنزير بالفاصوليا.

قالت جراس (أحيانًا يا جيريمي أجد أنك تتصرّف بغرابة، كما لو كنت غائبًا أو مغيّبًا، لدي الانطباع بأن هناك أشياء تحدث في رأسك، فأنت تنظر اليّ بنظرة غريبة).

قال جيريمي (ليس هناك أي شيء).

ثم تم تحويل الملف إلى الأرشيف حتى يحين موعد أزمة جديدة.

في الحقيقة لم تكن (جراس) قلقة. كانت امرأة ذات فضائل عديدة. لم تكن تفكر أبدًا في الأفعال الشرّيرة. تبدو كما لو كانت دون أية نواقص. وهي طفلة رضيعة لم تزعج أبدًا والديها في منتصف الليل. في المدرسة

t.me/qurssan

حصلت على إعجاب مدرّسيها. كانت قد ظلّت عذراء حتى ليلة زواجها، وهو شيء نادر في عصر الاستهلاك هذا.

لو كان جيريمي قد طلب منها، قبل ليلة الزفاف، أن يمارسا الحب، بحجّة أننا لا نشتري الحذاء دون أن نجرّب قياسه أولا. لكانت فهمت وجهة نظره، وضحّت من أجله دون تردّد بعذريتها. لم تكن تريد للرجل الذي سيقاسمها حياتها، أن يعتقد يومًا ما أنهم قد باعوه بضاعة مغشوشة. فرغم كل شيء لا تزال هناك سيّدات تهمّهنّ كرامتهنّ. وليس بينهن من هي أكثر اعتزازًا بكرامتها من جراس. وقد اقتنع جيريمي بذلك.

ومع ذلك فكل يوم كان يحدث ذلك الاعوجاج عن الطريق القويم، الذي لم يكن جيريمي يجد له أي تفسير، إذ يرى نفسه يواجه دائمًا نفس المنظر المهين، منظر زوجته وهي تستمتع بين ذراعي رجل غريب. كان من الواضح في كل هذه المناظر أن الزوجة تحصل من تلك الممارسات على قدر كبير من الإحساس باللذة. كانت تصرخ من اللذة. كان جيريمي يظل في حالة ذهول غير قادر على أن يصدر منه أي ردّ فعل. وبعد مرور خمسة عشر عاما من الحياة الزوجية، وبمعدّل رجل جديد كل يوم، بلغ عدد عشاق جراس الذين عرفتهم جسديًا ما لا يقل عن خمسة آلاف رجل. بدا له هذا الرقم غير قابل للتصديق. هو نفسه لم يعرف إلا ثلاث نساء واحدة منهنّ هي جراس نفسها. هما قصتا حب من أيّام الشباب تميّزتا بقدر كبير من انعدام المهارة واللياقة، ولم تتركا لديه أيّة ذكريات. هذا فقط لإدراك إلى أي حدّ لم تكن هاتان القصتان التافهتان تعنيان أي شيء لجيريمي.

كان كل يوم بعد كل مكالمة هاتفية لزوجته، يسجّل في كراسة صغيرة يضعها في جيبه، كل التفاصيل المتعلقة بوصف من شاهده شريكًا لخيانة زوجته له، وكل كلمة في الحوارات المتبادلة بين زوجته وشريكها. حتى وصف الحالة التي كانا عليها عند وصولهما إلى لحظة قمّة اللذة. كان يضع كذلك في كراسته تفاصيل خاصة بحالات الأمكنة التي يلتقيان فيها.

t.me/qurssan

حتى النقوش التي كانت بادية على سجّادة المكان. يشير كذلك إلى وجود أو غياب الفراش أو المائدة أو الكرسي الفوتوي. حتى كل الإضافات المساعدة التي جلبتها الصدفة أو السلوك الشاذ إلى متناول أيدي العشّاق، مع احتمالية استعمالها. هذا المجهود الذي قام به كحارس للبوّابة هدّه ونفّره من زوجته.

لكنه رغم كل شيء لم يتوقّف عن التسجيل اليومي. مع ما في ذلك من تثبيط لهمّته بل من معلومات تدعوه إلى الاكتئاب. هو كان يعتقد أن هذه الكراسات هي مصدر هام لمعلومات حقيقية. كل ما هو مسجّل فيها كان هو قد رآه، ليس هناك أدنى شك في ذلك، بل وكانت رؤيته له بالألوان الطبيعية. كانت رؤاه تزداد وضوحًا يومًا بعد يوم بعد أن كان شحْذ الحواس قد ساعده على التقاط المزيد من التفاصيل السمعية والبصرية. كان يستبعد تمامًا فكرة أن تكون كل تلك الرؤى بما فيها من صور وأصوات هي فقط من اختلاق خيالاته. خاصة أنه كان يدرك كم كان محرومًا من القدرات الخيالية، مثلما هي حالة العمود الذي تركّب عليه أسلاك الهواتف المنزلية.

وبما كان له من تفكير ديكارتي منطقي وعقلاني، وما كان له من ذكاء هندسي، كان من بين هؤلاء الذين لا يعتقدون إلا فيما يرونه بشرط رؤيته لفترة طويلة. من الأشياء المتناقضة في شخصية جيريمي هي أنه لم تكن له طبيعة متشكّكة. لم يكن أبدًا من بين أولئك الذين يريدون أن يتحقّقوا بأنفسهم دائمًا من كل المعلومات التي تصل إليهم. كان يقرّ بصحّة كل ما تنشره الجرائد. لم يكن الأخير في دعم صحّة المعلومات مجادلاً محاوره بأنه (استمع إليها في التلفزيون). في مثل هذه الظروف والملابسات كان من العبث محاولة تشكيكه في صحة رؤاه اليومية. كان من العبث حتى محاولة أن يضع رؤاه في حدود حجمها الطبيعي. إمّا باعتبارها رسالة من السماء. أو باعتبارها ظاهرة من ظواهر انتقال الأفكار. هناك احتمال أخير وهو أن تكون تلك الرؤى عرضًا لأحد الأمراض. في تلك الحالة

t.me/qurssan

الأخيرة كان لدى جيريمي الإحساس المسبّق بأن تشخيص المرض سيكون عسيرًا ومجهدًا.

بالمراجعة والتنقيب في دفاتره، اكتشف أن جراس قد ذهبت إلى الفراش مع نصف عدد رجال المدينة. وقد استفدت في تلك العلاقات كل أشكال البلاغة الجنسية، باستثناء وحيد هو الممارسة من الخلف. وهو ما بنى عليه جيريمي استنتاجه أنها لم تتنازل تمامًا عن كرامتها. هي نامت مع رئيسه المباشر في العمل. ثم مع مدير المستخدمين. ثم مع رئيس قسم البيع. ثم مع رؤساء العمّال. مع الاحترام الكامل للتدرّج الوظيفي. كان قد تلقّى طعنة في قلبه عندما فاجأها ذات مرة مع العضو النقابي المنتدب، الذي كان قد يضغط عليها وهي محصورة بين جسمه من ناحية وبين ماكينة إعداد القهوة من ناحية أخرى، وهما لم يخلعا من ملابسهما إلا أقلّ القليل. ثم مع أحد عمّال نقل البضائع في المخازن الذي لم يجد حتى الوقت الكافي لخلع القفّازات التي يضع يديه فيها أثناء العمل، كانت ساقاه السمينتان في الحذاءين الجلديّين البرتقاليين المرتفعيّ الرقبة قد تقلّصتا حول خصر جراس.

كان هذا المنظر قد أثار غضب جيريمي الذي لم يكن يعامل زوجته إلا بكل رقّة معتقدًا أنها هشّة جدا وقابلة للكسر. كان دائمًا ما يسألها إن كانت تشعر بأي ألم؟ أو هل هو ذهب بعيدًا إلى عمق مؤلم؟ أو هل تريدين أن أكون أكثر بطئًا؟ أو هل تريدين أن تستريحي خمس دقائق؟ كان دائمًا ما يطلب منها أن تستريح قليلا وتشرب كوبًا من الماء أو تأخذ في فمها قطعة من السكر. كانت ترد (لا لا أريد أي شيء ولكن فقط يمكنك أن تستمر). وهكذا كان يستمر وهو يشعر بخفّة في روحه لأنها سعيدة ولأنه يستجيب لطلبها. ولأنها زوجته التي يتمكن من أن يرضيها ويدللها وفي نفس الوقت يحترمها. كان دائم الانتباه إلى معدّل تنفّسها، وإلى أسلوبها في الحركة. وإلى درجة حرارة بشرتها. كان يستعملها كما لو كانت جهازًا ثمينًا عالي القيمة.

t.me/qurssan

كانت لها مرحلة شبه رسمية، عندما ذهبت إلى الفراش مع عمدة المدينة، ثم مع نوّاب العمودية، ثم مع أعضاء المجلس المحلّي عضوًا عضوًا. في نفس تلك المرحلة كان لها أن تحصل على نائب المدينة في مجلس النوّاب، ثم على ممثل المدينة في مجلس الشيوخ، ثم على الحاصل على وسام جوقة الشرف، رغم أن زائدته لا يتعدّى حجمها حجم الإصبع الصغير. ثم بعد ذلك مرّت بمرحلة المغنين المشهورين، والممثلين السينمائيين والمسرحيين، والكتاب والمؤلفين المعروفين. كانت تتأقلم وتتكيّف مع المواقف المختلفة مثلما يحقّ لمحترفة أن تفعل. كانت تبدو له غير قابلة للإرهاق. غير قابلة لانتهاء صلاحية الاستعمال. لم يكن هناك ما يجعلها تشمئز أو حتى تفقد رغبتها. في بعض الأحيان كان عليها أن تتحمّل بعض الآلات الملتوية أو رديئة التكوين. لكنها كانت تعثر دائمًا على الأسلوب المناسب للوصول إلى الاشباع في كل حالة.

كان جيريمي يتعجّب أحيانا من حالة القذارة التي يترك فيها بعض الناس أعضاءهم. فلسيدة مدقّقة مثل جراس كان هناك ما يدعو إلى تفريغ المعدة من كل الوجبات. ذات يوم بدأت في الاهتمام بالزنوج، لتمتّعهم بالقوة الغاشمة، والأول كان ملاكمًا طوله حوالي مترين، ثم جاء بعده العشرات. كان هذا مملاً لجيريمي. بدت كما لو كانت تجلبهم في قوارب ممتلئة بهم من شواطئ إفريقيا. ثم تحوّلت إلى الاهتمام برجال السيرك. بعضهم كانوا عمالقة. بعضهم كانوا أقزامًا. بعضهم كانت أجسامهم يغطّيها الوشم.

تساءل جيريمي (إلى أي مدى تنوي هي أن تصل بنزواتها؟).

كان عليه أن ينتظر حتى الغد ليعرف الإجابة. كان هذا عندما أظهرت رغبتها في الذهاب مع بابا روما إلى الفراش. كان لديه الإحساس المسبّق بأن هذه الفكرة قد تجلب لهما التعاسة والنحس وسوء الطالع. كان البابا في بداية حياته المهنية قد أعلن عن رغبته في الاحتفاظ بعذريته. إنه رجل

t.me/qurssan

محترم يحمل على كتفيه ثقل أحمال خطايا كل البشر. والأكثر خطورة هو أنه يحمل فوق كتفيه ثقل أعوام عمره الطويل.

قرّر جيريمي صارخًا خوفًا من التجديف في حق شخصية كنسية مقدّسة:

(ليس هذا الرجل).

كاد أن يموت رعبًا عندما ظهر أمام عينيه المنظر الواضح لتقلقل الجسد الأنثوي بين أقمشة الملابس البابوية المقدّسة. أظهر الأب المقدّس حماسًا شابًا في جسد عجوز. نطق الأب المقدّس بكلمات نابية غير مقدّسة لكنه حرص على أن ينطق بها في أصولها اللاتينية. على قدر استطاعة جيريمي أن يرى ليحكم بنفسه فإن هذه الكلمات كانت مثيرة جدًا لجراس. أنصت إلى نفسه وهو يصرخ مندفعًا إلى الأمام محاولاً فصلهما عن بعضهما. لكن البابا رفض أن ينقطع حبل مغامرته العشوائية، واستمر في مهمّته قائلاً باللاتينية وهو يرسم الصليب في الهواء.

(عد إلى الخلف أيها الشيطان).

حاول جيريمي أن يعيد البابا إلى صوابه قائلاً:

(أيها الأب كامل القداسة، إن الربّ الاله يشاهدك الآن وأنت تقود هذه الزوجة إلى جحيم الخيانة الزوجية، تذكّر الوصايا العشر، أيها الأب كامل القداسة).

توسّلت إليه جراس قائلة:

(اتركه يا جيريمي فهو عجوز، اتركه ينعم ولو لمرة واحدة في حياته بلذّة الجنس التي يجهلها، إنه يحقّ له أن ينعم ولو مرة واحدة).

كانت مفاوضات غير قادرة على الوصول إلى حلّ، فاتجه جيريمي إلى سقف الحجرة قائلاً:

t.me/qurssan

(أيّها الربّ اغفر لهما فهما لا يدركان ما يفعلان)

وهي نفس العبارة التي يخبرنا الإنجيل أن يسوع قد قالها على الصليب من أجل أن يسامح الرب صالبيه.

كان الموقف يدعو إلى اليأس. ضرب جيريمي الأرض بقدميه عدّة مرات. نشط البابا قبيل القذف. وصلت جراس في نفس اللحظة إلى قمّة اللذة، ولم يمنعها وجودهما في المقر البابوي المقدّس من إطلاق صرخاتها. ثم شكرت السماوات. ثم أقسمت على أنها لم تحصل أبدًا في كل ما سبق من علاقات جنسية في حياتها كلها على نفس هذا القدر من اللذة. ثم هنّأت شريكها على ذلك الأداء المتميّز. أما جيريمي فقد انخرط في البكاء، فكل ما آمن به منذ صباه ينهار أمام عينيه. الاعتقاد في أن بابا الكنيسة معصوم من الخطأ. الوصية السادسة التي تقول لا تزنِ. الوصية التاسعة التي تقول لا تشتهِ امرأة قريبك. ثم حاول جيريمي محاولة أخيرة للفصل بينهما، مخترقا برأسه المحنيّ منتصف الفراش. اصطدم الرأس بكتف البابا فالتف بجسمه، مصدرًا أنينا يدلّ على الألم، ثم سقط من على الفراش ولم يتحرّك بعد ذلك.

عندما عاد جيريمي إلى نفسه، وجد أنه كان جالسًا إلى مكتبه، ووجد ثلاثة من زملائه واقفين حوله يحاولون تثبيته في مكانه، قائلين له إنه كان قد قذف بجسمه إلى منتصف الحجرة، وأنه كان يستعمل ساقيه في إعطاء ركلات بالقدم وذراعيه في إعطاء ضربات باليد لأشخاص وهميين حوله.

غمغم شارحًا لهم (أعتقد أنني أنهكت نفسي في العمل).

منذ بدأت في حياته تلك الصور والخيالات، كانت تلك هي المرة الأولى التي اعتقد فيها جديًا أنه قد يكون على وشك الإصابة بالجنون. أحضر له رئيس القسم فنجانًا من القهوة وطلب منه الذهاب إلى استشارة طبيّة. قال أمام الجميع إنه يعتقد أنه قد أصبح بخير. إلا أنه تحدّث كذلك عن فترات

t.me/qurssan

إحساس بالغثيان، وبآلام الصداع النصفي، وبالارهاق، وبمتاعب في الجهاز الهضمي، وبفرط إدراك للتغيّرات المناخية بين الفصول. كان الرئيس يهزّ رأسه بما يوحي بأنه يودّ حقًا أن يصدّقه. عندما استتب النظام في المكتب، فتح جيريمي كراسته ووضع فيها وصفًا دقيقًا للمنظر الذي كان قد عاشه للتو. دون حذف أي جزء فيه. بدأ يشعر بالحزن لالتزامه بهذا الواجب.

بعد بعض التفكير شعر كذلك برغبته في لوم نفسه على تدّخله في مواقف لا تعنيه. لقد أدّى تدخّله هذه المرة إلى الإساءة إلى صورة البابا وإلى سمعته. هذا لم يكن شيئًا جيدًا. حتى في الأحلام لا ينبغي على المؤمن أن يرفع يده على بابا الكنيسة. حتى لو شاهدناه في وضع مخل مع المرأة التي نحبّها. كانت جراس محقّة فالبابا رجل عجوز وله أن يستمتع ولو مرة واحدة بمتعة أخيرة من تلك المتع الجسدية التي ينعم بها كل أفراد شعب الكنيسة. في الواقع كانت جراس دائمًا على حق. كانت دائمًا زوجة مثالية. ثم تنفّس بعمق ليتذوّق سعادة أن يكون زوجًا لامرأة مثلها. ثم تمنّى من الله من عمق قلبه أن يشفيه من غيرته ومن أفكاره الشاذة.

قال للربّ (على الأقل تصرّف بحيث لا تحصل جراس إلا على عشّاق لا يسيئون إلى معتقداتي الدينية).

ثم شعر أن الربّ قد استجاب له، حيث غمره ارتياح كبير شغل كل الفراغات التي كانت داخل جسمه، من الأعماق المظلمة إلى أطراف الأصابع. في خفّة تلك اللحظة، قرّر بينه وبين نفسه أنه من الآن فصاعدًا، سيتحكّم بشكل أفضل في خيالاته المريضة. حاول أن يبدأ كل شيء من جديد باستعمال رجال بسطاء. مثلاً من بين سائقي عربات النقل، ومن بين العاملين في نوافذ فروع هيئة التأمين الاجتماعي، ومن بين أصحاب محلات بيع الخردوات، ومن بين مفتّشي الهيئة القومية للسكك الحديدية. صارح نفسه بأنه لم يحسن بعد استغلال عالم الأرياف الزراعية. من المؤكد أن جراس ستحب الروائح التي تفوح من المزارع. فبعد يوم مرهق من العمل في الغيطان لا شك أن أجساد المزارعين ستفوح بروائح قوية محبّبة.

t.me/qurssan

ثم إن مجال عمّال مصانع الأجبان هي الأخرى لا شك أنها ستفوح بروائح محبّبة. روائح تمثّل تتويعات على رائحة الأجبان عالية الجودة. قد تبدأ بواحد أو اثنين ثم وفقًا لمزاجها يمكنها أن تصل إلى خمسين.

في المساء عند عودته إلى المنزل وجد جراس تبكي. فسألها عن السبب في البكاء. قالت بأنفاس مقطوعة

(لقد مات البابا).

صُدِم صدمة شديدة (كيف هذا؟ كيف يموت البابا؟).

(هذا هو ما أعلنوه في نشرة الأخبار منذ قليل).

(كيف كانت طريقة موته؟).

(سقط من على فراشه عند منتصف الظهيرة).

انهار جيريمي ساقطًا على ركبتيه فوق موكيت الصالة.

(هذا هو خطئي أنا) مديرًا وجهه اليها.

(ما هذا التخريف يا جيريمي؟).

(أنتِ كنتِ محقّة، سامحيني، كان يجب عليّ أن أتركك تتصرفين بالطريقة التي تناسبك).

لاحظت جراس أنه كان محمومًا. ثم بدأ في ضرب صدره بقبضتي يديه قائلاً إنها غلطته. عندما أنصتت إلى قوله أنه يريد أن يموت، استدعت الطبيب وأسرّت إليه أنها منذ بضعة أشهر لديها الإحساس بأن زوجها يعاني من مشكلة ما. تمّ نقل جيريمي إلى المستشفى التي قد يخرج منها يومًا ما. وقد لا يخرج منها أبدًا. بعد أسبوع اكتشفت جراس كراسات زوجها. وقرأتها. لم تكن كل المعلومات الواردة فيها خاطئة. لكنها كانت معلومات مبالغًا فيها إلى حد كبير بشكل عام. وقد زادت حدّة هذه المبالغات زيادة كبيرة قرب نهاية آخر كراسة.

t.me/qurssan

ـ ١٣ ـ

في القطار

أخذت تذكرة قطار للذهاب إلى قرية مسقط رأسي. في سنّي هذا يعتبر الذهاب إلى مرابض الطفولة نوعًا من الجنون اللطيف. اخترق القطار مناطق ريفية تفوح فيها لا شك روائح علف المواشي. كنت لا أزال بعيدًا عن الغابات التي أمضيت فيها أوضح ذكريات أجمل السنوات. يبدو أنني قد غفوت للحظة، إذ تجاوز القطار مناطق أبعد مما تصوّرت. أصبحنا في أماكن أبعد مما افترضت. على أية حال يبدو أن القطار قد تجاوز الحدود الإدارية للمنطقة الجغرافية. تغيرت الإضاءة الطبيعية وأخذت حجمًا كبيرًا. في مناطق الأحراش والغابات تتخذ الإضاءة الطبيعية عدة ألوان. ففي المنظر الطبيعي تمثّل الوديان في عمق الصورة الظلال القاتمة. في حين أن أخشاب الأشجار بألوانها المتعدّدة تمثّل التنويعات. حتى الجداول المائية لا تهرب من الصورة أثناء جريانها في ذلك الليل البهيم الواقع في منتصف النهار. من بين فتحات كتل الشيست الحجرية السوداء، إلى مناطق النمو النباتي العشبي على حافتي الجدول. في ذلك الامتداد المتّسع المهجور من البشر، تتماوج الأضواء

t.me/qurssan

والـظلال. كنت من نـافذة القـطار أتابع هـذه التـأملات دون أن يـكون لـها معنى شخصي.

تجاوز القطار العديد من المحطات، ربّما تلك التي لم يكن من المفترض أن يتوقّف فيها. رغم أنه في كل محطّة كان هناك عدد كبير من البشر على الأرصفة. كانوا من نوع المسافرين الحقيقيين الجالسين على حقائبهم. كانوا ينظرون إلى القطار الذي لا يتوقف بوجوه مندهشة. على الأقل كان هذا هو انطباعي عن نظراتهم. كان جاري في القطار يقلب ببطء صفحات إحدى المجلات. لاحظت أنه لم يكن يتوقف الا أمام الصفحات التي توجد بها صور. ثم كان على الأقل يقرأ العناوين. ثم يقلب الصفحة بعد أن يكون قد بلّل بلسانه إصبع الابهام الذي يستعمله في التقليب. شعرت بالندم على أنني في المحطة قبل أخذ القطار لم أتوقّف لشراء مجلّة أو مجلتين: كنت قد دخلت القطار مسرعًا.

كنت افكر في هذا السفر منذ أسابيع، لكني قرّرت الإقدام على تنفيذ المشروع في آخر لحظة. مسألة السفر هذه ليست سهلة خاصة لمن لم يعتد على الرحلات. فنحن لا نعرف ماذا نحمل معنا، ولا ماذا نرتدي من ملابسنا. ولا نعرف ما الأشياء التي سنحتاج إليها عندما نصل إلى مقصد السفر. لقد حللت كل هذه المشاكل بأن اتخذت قرار السفر واضعًا يديّ في جيبيّ البنطال. مع الحرص على حمل ما يكفي من المال لتلبية احتياجاتي الضرورية خلال أسبوع أو أسبوعين. لم تكن لديّ نيّة الغياب عن العمل لمدة أطول من ذلك. كانت هذه مدّة أكثر من كافية لعمل جولة كاملة داخل مدينة مسقط رأسي. أستعيد ذكريات الأماكن والشوارع والبيوت، التي أحتفظ لها داخل رأسي بصور مبهمة غامضة، لا تنجح في توضيحها الصور الفوتوغرافية المأخوذة داخل العائلة، أو البطاقات البريدية (الكارت بوستال) الرسمية.

وضعت لنفسي كذلك خطّة لزيارة قرية أقام فيها والداي لفترة من الزمن. عرفت فيها فتاة صغيرة، لم أتوقّف عن التفكير فيها مطلقًا منذ

t.me/qurssan

ذلك الوقت المبكر. أعود إلى تذكر صورتها حتى الآن، في ركن جيّد الإضاءة من أركان ذاكرتي. هل أستطيع أن أقول إنها كانت الحبّ الأول في حياتي؟ من المؤكد أنني لا أستطيع. لكنها كانت شيئًا قريب الشبه بذلك. ففي سن الخامسة لا نستطيع أن ندرك الفرق. كل ما أعرفه هو أنني تعلقت بها جدًا. وأنني بكيت كل الدموع التي كان جسمي الصغير قادرًا على إفرازها، عندما قرّر والداي الانتقال من القرية إلى المدينة. لتهدئتي ادّعى والداي أن هذا الفراق ليس إلا فراقًا مؤقتًا. وأنني سأعود لرؤيتها، وأننا سنقضي اجازاتنا الصيفية السنوية معًا. وكل هذا اللغو الذي لم أرد أن أنصت إليه. الحقيقة هي أننا لم نعد أبدًا فيما بعد إلى هذه القرية. الحقيقة هي أنني لم أرها مطلقًا بعد ذلك. ولا مرة واحدة. الحقيقة هي أنني لم أنسها أبدًا. ليس من أجلها أقوم بهذه الرحلة، ولكني أظن أنه لو كان مكتوبًا لي أن أراها من جديد، فسأتأكد من أنني لم أقم بهذه الرحلة عبثًا.

مررنا بالمزيد من محطّات القطارات. كم محطة؟ حوالي عشر محطات أو اثنتي عشرة محطة. لم يتوقف القطار في أي منها، بل يبدو لي أنه كان أمامها يزيد من سرعته. سألت جاري إن كان يعرف اسم المحطة التالية التي سيتوقف فيها القطار. تأملني بعض الوقت ثم أطلق تنهيدة طويلة ولم يقل شيئًا. لم أواصل إصراري على المعرفة. اعتذرت له عن إزعاجي له. ثم وقفت في مكاني. كنت أشعر بالعطش. كنت أعرف أنه في هذا النوع من القطارات توجد عربات متحوّلة إلى مشارب وإلى مطاعم. كانت لدي رغبة في احتساء كوب من البيرة. عندما أقول كوبًا فهذا يعني ثلاثة أو أربعة أكواب. البيرة لا تحتسى كما يحتسى كوب حقير من الماء. ثلاثة أكواب هي في الحقيقة كمية قليلة، وأربعة أكواب ليست في الحقيقة كمية كبيرة.

قبل أن أطلب كوب البيرة، سألت الفتاة التي تخدم في المشرب عن المحطات التالية التي يتوقف فيها القطار. قامت بتلاوة قائمة كاملة من

t.me/qurssan

أسماء المحطات التي لم يكن أي اسم فيها يعني أي شيء بالنسبة إليّ. سألتها سؤالاً مباشرًا إذا كان القطار سيتوقف في مدينة مسقط رأسي، وأعطيتها اسم المدينة. وقد نطقتُ بشكل واضح اسم المدينة. أجابت بنعم بحركة رأس تدلّ على هذا المعنى. ثم قالت لي إن هذا القطار يتوقّف في كل المحطّات.

تساءلت مندهشًا (لكنه مرّ على حوالي ثلاثين محطة دون أن يتوقّف).

بدا عليها كما لو أنها تعتقد أنني مجنون. أو أنني رجل قد شرب من الخمر ما هو فوق طاقته.

قالت (إنه يتوقّف في كل مكان).

كان من الواضح الجليّ أنها لا تريد أن تنخرط في المزيد من المناقشة. اكتشفت فيها شخصًا غير ودود. يبدو أن موظفي قطاع السكك الحديدية يكونون غالبًا من بين الأشخاص غير الودودين. لم أعد أتذكر بالضبط من هو الشخص الذي تحدّث معي في هذا الموضوع. قال إن الاهتزازات المستمرة في عربات السكك الحديدية بسبب المرور فوق القضبان لها تأثير كارثي مدمّر للخلايا العصبية. ثم إن البقاء طول الوقت في أماكن محدودة المساحة ومغلقة يزيد الأمور سوءا. طلبت كوبًا من البيرة. في المشرب كنا سبعة أشخاص أو ثمانية. واحد فقط كان يحتسي القهوة. لم تكن رأس محتسي القهوة توحي لي بالثقة. ليس لدي ما أنتقد عليه محتسي القهوة. حتى لو كانوا يحتسون القهوة عدة مرات في اليوم، صباحًا وظهرًا ومساءً. بعد كل وجبة من الوجبات الثلاث، بطريقة تشبه وضع نقطة في نهاية السطر قبل الانتقال إلى سطر جديد. لكن تأتي ساعة من ساعات اليوم تصبح فيه القهوة مشروبًا غير موظّف توظيفا سليمًا.

كان زملاء المشرب يهبون أنفسهم بالكامل للبيرة التي يحتسونها. طبعًا بالشكل الجدير بالرجال المتحكّمين في أقدارهم ومصائرهم. لم تكن تبدو

t.me/qurssan

على أي منهم أعراض الثرثرة. كانوا يبدون ضائعين في أفكارهم أو في أحلام يقظتهم التي تحنّ إلى الماضي. هذا هو ما يحدث غالبًا عندما نتنفّس الهواء وفي يدينا كأس من البيرة. مع ذلك فقد تغلبت على خجلي، وحاولت أن أبدأ محادثة. اكتشفت أن القطار لم يتوقّف مرة واحدة منذ أن انطلق في رحلته. قلت إنني أجد هذا غريبًا شاذًا. سيهبط الليل والقطار لا يزال مندفعًا في طريقه لا يلوي على شيء. ثم إنه حتى لم يتوقّف في محطّات قطارات مدن كبرى. رأيت الآلاف من الناس ينتظرون على الأرصفة.

قلت (إن ما يبدو لي غريبًا هو أن القطار لا يتوقّف في محطّات المدن الكبرى، ثم مع ذلك يقولون لي إنه سيتوقّف في محطّة مدينتي الصغيرة، التي لا يبلغ تعداد سكانها الا سبعة آلاف نسمة فقط لا غير).

حرّك الرجل الذي كنت أتحدّث إليه رأسه. يبدو أنه يوافقني على قولي هذا لكن دون أن تبدو عليه مظاهر القلق البادية عليّ أنا. يبدو أن لا شيء يضايقه في هذا الوضع العابث.

تابعت (اسمع. نحن قد مررنا منذ لحظات بمدينة يبلغ عدد سكانها نصف مليون نسمة على الأقل، ولم يتوقّف القطار. انظر عبر النافذة، هناك مئات المنازل، دائما مئات المنازل. منذ لحظة دخولي إلى هذا المشرب، ونحن لا نرى عبر النوافذ إلا مئات المنازل. مع ذلك يحاولون جعلي أبتلع مسألة أن هذا القطار سيتوقّف في قرية مسقط رأسي، حيث سأكون الشخص الوحيد الذي سيغادر القطار. كما لو أن هذا القطار لا يندفع هكذا الا من أجلي أنا وحدي فقط لا غير. لا إن هذا هو ما لا أستطيع أن أُقِرّه. هناك شيء غير طبيعي).

كما يحدث لي دائمًا فقد تكلّمت كثيرًا. صحيح أنني خجول لكن هذا لم يمنعني أبدًا من أن أكون ثرثارًا. خاصة عندما يكون أنفي في كأس بيرة. هنا يبدو لي كما لو كان العالم كله ساحة فسيحة للنقاشات، حيث على كل

t.me/qurssan

شخص أن يشارك بما يستطيع أن يشارك به من عبارات يمكن أن يُرَدّ بها على الأسئلة المطروحة، فتتطاير الأجوبة من فم إلى آخر، وبذلك يتم تبادل الألفاز والتوضيحات، وكذلك يتم تبادل ذكريات العمل في المصانع، أو ذكريات السلاح الذي خدمنا فيه في الجيش، أو ذكريات المدرسة. إن الرجل حسن النيّة لديه دائمًا ما يحكيه. من الأفضل كثيرًا الثرثرة وتبادل أطراف الحديث بدلا من بقاء كل شخص منزويًا في ركنه في حالة من الصمت العقيم.

كان صوتي مرتفعًا فقد كنت خادم مشرب (بارمان) في إحدى الحانات لمدة عشر سنوات. كنت قد تمرّنت بما فيه الكفاية على أن أجعل صوتي مسموعًا في داخل أسوأ أنواع الضجيج. أعتقد أن هذا هو السبب الذي من أجله قال لي جاري:

(توقّف عن الصراخ بهذه الطريقة).

فاعتذرت له قائلاً إنني لم أدرك أن صوتي كان إلى هذا الحد مرتفعًا. وحكيت له قصة عملي في إحدى علب الليل بادئا قصّتي بالصيغة المناسبة:

(إذا لم تجد هذا مزعجًا فاسمح لي بأن أقصّ عليك ...).

لم يكن يجد هذا مزعجًا بدليل أنه تركني أحكي ولم يوقف اندفاعي. حكيت له بالشكل الذي أجيد استعماله في الحكيّ محاولا أن أكون مضحكًا. قيل لي أكثر من مرة إنني أجيد حكيّ القصص. وأن ما أحكيه من قصص يزخر بالحياة، ويبدو بسهولة قابلاً للتصديق. نجحت أكثر من مرة في جعل من ينصت إليّ ينفجر في الضحك. كثيرًا ما يحدث لي أن أشارك في مغامرات مسلية، عندما أحكيها أضع فيها الكثير من الحياة. كأن أغيّر في خامة صوتي عند تقليدي لأصوات شخصيات الحكاية، وكأن أقوم بأداء بعض الحركات أو ألعب بملامح وجهي، إلى حد استجلاب الضحكات.

t.me/qurssan

نحن في القطارات نقابل كل أنواع الشخصيات. مع جاري هذا لم يكن الحظ حليفي. فهو لم يكلف نفسه حتى مجرّد عناء التزام حدود الأدب في الاستماع إليّ. فرغم انطلاقي في الحكيّ ظل هو متجهًا بوجهه إلى الأمام غير ملتفت إليّ بل مركّزا نظره على فتاة الخدمة. هذا التصرّف أزعجني وولّد لديّ الإحساس بأنني أضايقه. لكن حيث إنني كنت قد بدأت الحكاية، فقد اخترت أن أصل فيها إلى نهايتها الكوميدية المضحكة على ما كنت أظن. يجب علينا دائمًا أن ننهي ما نبدؤه. إنها مسألة تتعلق بالشرف. هذه القصة كانت تضحكني أنا شخصيًا في كل مرة حكيتها فيها. لكن لم يكن بمقدور كل الناس إدراك الجانب المضحك فيها من أول مرة. عدت إلى مكاني على كرسي القطار وقد حملت معي زجاجتي بيرة وكوبًا بلاستيكيًا.

في عربات القطار التي مررت بها كان الركّاب يتناومون. بعضهم كانوا قد فردوا جرائد ورقية على وجوههم. كان الليل قد أصبح أسود اللون خارج النوافذ. لم تكن لديّ رغبة في النوم. لم تكن لديّ كذلك رغبة في أن تفوتني محطة مدينة مسقط رأسي. كان هناك في ممر عربة القطار ثلاثة أطفال بسراويل قصيرة يدفعون أمامهم عربة صغيرة من عربات الأطفال وقد وضعوا عليها في المكان المخصص للطفل عددًا من الدببة والحيوانات الصغيرة المصنوعة من القماش. ثم لمحت اثنين من أصحاب العاهات وهما يتبادلان القبلات بادخال لسان كل منهما داخل فم الآخر. ثم تحوّلا إلى تبادل النظرات وجهًا لوجه وهما يكشّران كل منهما في وجه الآخر. كان للفتاة فم واسع جدا بشفتين منتفختين. أما الشاب الذي معها فكان نحيفًا جدًا، له وجه قبيح بجبين منبعج إلى الأمام، رغم أنه مغطّى بخصلة من شعره. كانا يلتصقان ببعضهما وإن كان هذا لا يمنع رؤية ثدييها الكبيرين.

انتهيت من احتساء واحدة من الزجاجتين محاولاً الانشغال بشيء آخر، إلا أنه لم يكن هناك شيء آخر. حوالي العاشرة مساءً ظهر مفتش التذاكر. مددت له يدي بتذكرتي وأنا أسأله إن كنت قد ركبت القطار الصحيح.

t.me/qurssan

قال مؤكّدًا وهو يخرم التذكرة بالآلة التي في يده (طبعًا أكيد).

عدت أؤكد عليه بتحديد اسم المحطة التي سأغادر فيها القطار. رفع المفتّش كتفيه قائلاً إنه لا ينبغي لي أن أقلق.

سألت (هل نحن لا نزال بعيدين عن الوصول؟).

قال (هذا يتوقّف)

سألت (هذا يتوقّف على ماذا؟).

قال (هذا يتوقّف).

لا فائدة من الاستمرار في الحديث معه. فهو لن يزيد على ما قاله حرفًا واحدًا. بدأت في لوْم نفسي على أنني لم آخذ سريرًا في عربات النوم. من كان يقول إن مدينة على بعد مسافة 250 كيلومترًا فقط لا غير تأخذ كل هذا الوقت في الوصول إليها؟ إن القطار يسير بنفس هذه السرعة منذ ما لا يقل عن اثنتي عشرة ساعة. القطار يسير بسرعته القصوى. ولم يتوقّف ولا مرة واحدة. لم أكن قد وصلت بعد إلى مرحلة الدهشة، واضعًا في الاعتبار أنني أستعمل الخطوط الفرنسية العابرة للوطن، الخطوط القومية الفرنسية، وهو ما يتضمّن أن يلتزم المسافر نوعًا من الصبر وإنكار الذات. في فرنسا كل شيء يصل إلى مبتغاه في نهاية الخط حتى قطارات السكك الحديدية. لكن ينبغي الانتظار. الوقت هو السلاح السري. شخصيًا أنا لم أكن أبدًا أتعجّل الأمور. إذن فأنا مسلّح بشكل جيد. لأفك عضلات ساقيّ تمشيّت من أول عربة إلى آخر عربة في القطار. تقابلت مع أشخاص مختلفين تمام الاختلاف ولكنهم متفقون جميعًا على نفس الفكرة. كلهم يريدون أن يفكّوا عضلات سيقانهم.

إن الجلوس على كراسي مهما كانت مريحة دون حركة، البقاء ساعات طويلة دون حركة، يمكن أن يؤذي الدورة الدموية. أنا في أتم الصحّة. بل أستطيع أن أقول أنني أتميّز بصلابة الجسد. فأنا لم أكن أبدًا مريضًا. لم

t.me/qurssan

أنني متّ الآن فإن هذا سيكون غالبًا موتًا فجائيًا، كأن أموت بالسكتة القلبية. أو بشيء من هذا القبيل. سأسقط على الأرض في وضع مستقيم، في منتصف الرصيف أو أثناء فتحي النافذة في الصباح. سأصبح مجرّد كومة من أشياء على الأرض. سيحملونني فوق محفّة نقّالة مخصّصة للمرضى أو للمتوفين. ثم سيضعونني في تابوت. ثم سيضعون التابوت داخل حفرة في الأرض. وهكذا أكون قد انتهيت من الحياة الأرضية. موتي لن يُتعِس قومًا كثيرين. لست من نوع الرجال الذين يتركون خلفهم مشاعر الأسف والأسى والندم. لن أترك نساءً يبكين، ولا أطفال مكبّلين.

عندما سأموت سيكون أصدقائي المقرّبين قد رحلوا جميعًا قبلي منذ زمن طويل. هذا شيء طبيعي فكلهم يشربون أكثر مني. في منتصف النهار يكونون جميعًا قد أصبحوا سكارى. أما أنا فلا أبدأ في احتساء الخمر إلا في ساعة متأخّرة. أنا لدي أسلوب في الشراب. إذ يجب أن يكون المرء حريصا فيما يتعلق بكل ما يسيء إلى الصحّة. فالخمر ليس دواءً يمكنه أن يشفي الأمراض دون أن يترك أعراضًا جانبية. من المناسب للمرء أن يشكّ. وأنا أشك وليس بالقدر الضئيل. ولهذا فأنا في سني هذا ما زلت قادرا على مواجهة رجل ضخم الجثّة. وهذه ليست هي حالة أصدقائي المقرّبين، فهم قد تحوّلوا فعلا إلى رجال ضعفاء الجسم. إلى مجرّد خرق بشرية رخوة. لم تعد هناك أماكن خالية في العربة المطعم. على أي الأحوال أنا لا أشعر بالجوع. فالبيرة قد ملأت معدتي بشكل مثالي. عدت إلى المشرب واحتسيت عددًا آخر من زجاجات البيرة.

كم مرة حاولت أن أدخل في مناقشات مع الرجال؟ حوالي خمسين مرة. لكن دون أي نجاح. يبدو أنني لا أثير اهتمام أي شخص. حتى أن بعضهم طردني بعبارات وقحة. حتى أن أحدهم قد هدّدني بإرسال قبضته في الهواء في اتجاه وجهي. من المحتمل أنه لم يكن يمثّل تهديدًا حقيقيًا. لم يكن ينوي مهاجمتي فعلاً. ليس على الأقل أمام شهود. لكنه في حالة

t.me/qurssan

غضبه كان يبدو من السهل تصديق تهديده. ركّزت عينيّ في عينيه دون وقاحة، فقط لأجعله يفهم أنه لا يخيفني. شاهدت مثله في علب الليل. شاهدت آخرين أكثر عنفًا وأكثر قسوة. أشقياء أُصلاء. شاهدت أكثر من مرة أضواء نيون الصالات وهي تنعكس على أنصال السكاكين. ذلك دون أن أدخل في حسابي الخناقات العادية المتكررة التي كانت تطير خلالها كراسي الموائد في الهواء. ثم يأتي رجال الشرطة لاستعمال مطارقهم في ضرب أولئك التعساء الذين يكونون في متناول المطارق. وهم الذين عادة لا يكونون من بين أسوأ الموجودين. فالشرطي المتوسّط لا يحب استعمال يديه، لذلك هو يختار أن يضرب أسهل الأشقياء، ففي اعتقاده أن المجرم الحقيقي هو ذلك الذي يجده في طريقه.

إنها أضواء النهار التي أيقظتني. استغرق مني الأمر لحظة واحدة حتى أدرك أين أنا. كان القطار يخترق واديًا، وعلى خط الأفق تبدو بعض الأدخنة. لم أعرف إن كانت الأدخنة قادمة من مداخن مصانع أو بيوت، أو قادمة من أشياء ما يحرقونها في الحقول. كانت الأدخنة بعيدة. المقعد إلى جواري أصبح خاليًا. كنت لا أشعر بنصف جسمي السفلي كأنه أصبح بلا إحساس. كانت قدماي مثلّجتين. كان لديّ في فمي الطعم العفن الذي يتركه في الفم احتساء كمية كبيرة من البيرة. لا شك في أن أنفاسي هي الأخرى كانت عَفِنَة. جاءني المزاج العَكِر على الفور. أصابني الملل والضيق من هذا القطار. أنا ما زلت جالسًا على إحدى موائد مشرب القطار. اختفت فتاة الأمس وحلّ محلها شاب أسود ضئيل الحجم، ينظر إلى زبائنه بعينين يبدو فيهما الاحتقار. في قفزة واحدة كنت أقف أمامه. ثم بدأت في الشكوى قائلا له إن عليه أن يحضر لي مفتش القطار. هدّدت بعمل فضيحة. لكن الرغبة المفاجئة في التبوّل جعلتني أتوقّف عن الكلام في منتصف جملة. كانت الرغبة عاجلة. هناك بعض الرغبات التي تظهر هكذا فجأة دون إنذار.

t.me/qurssan

قبل مغادرة المشرب قلت إنني سأعود. وقلت إن من مصلحته أن يكون مفتش القطار هنا. أبرز الأسود إصبعه الأوسط في وجهي. قلت بصوت مرتفع (زنجي قذر). هذا هو أقل شيء أستطيع أن أردّ به عليه وأنا متعجّل. حدث عند باب دورة المياه أن قابلت (بويانت)، Bouillante واسمها يعني الماء المغلي إلى درجة الفوران، وهي امرأة جميلة مُقْبِلة متحدّثة مسلّية. كان وجهها وجسدها هما نموذجي الأمثل للجمال. النموذج الذي يتفّق تمامًا مع كل خيالاتي وأحلام يقظتي. عرّفتني بنفسها ذاكرة اسمها، ثم مدّت لي يدها فأخذتها في يدي وضغطت عليها.

سألتني (هل أنت تسافر وحدك؟).

قلت (نعم).

قالت وهي تغمز بعينها لكن بطريقة مهذّبة وليس كما تفعل الغانيات المحترفات (وأنا كذلك).

وحيث إنه لم يكن هناك ما أخفيه، فقد حكيت لها باختصار الموقف الذي أجد نفسي فيه. عندما خلت الدورة ممن كان يشغلها، قالت (لأن أدعوك إلى الدورة قبل أن أدخلها أنا). اعتبرت أن هذه الكلمات هي إعلان عن صداقة وليدة. ثم تحركت نحو بابها محدثة صوت احتكاك أقمشة ملابسها، وتاركة خلفها رائحة عطر نسائي. قرّرت أنه بعد عودتنا إلى العربة المطعم سأقترح عليها أن نتناول وجبة الإفطار معا على حسابي. وهي حركة ستدلّها على مدى ذوق أخلاقي وتصرّفاتي.

بدّل القطار موقعه فوق القضبان وهي حركة تدلّ على اقترابه من الدخول في محطة. التصقت بزجاج النافذة محاولا قراءة اسم المدينة المكتوب على يُفَط المحطة. لكن القطار لم يبطء من سرعته ولم أستطع قراءة أي شيء. لمحت فقط اللون الأزرق لحروف الكلمات المكتوبة فوق خلفية من لون رمادي. الشيء الغريب باستمرار هنا وفي كل المحطات

t.me/qurssan

السابقة، هو كميّات البشر الواقفين على أرصفة المحطة، كأنهم باتوا ليلتهم هنا على الرصيف في انتظار وصول أحد القطارات. هذا شيء محيّر فعلا. (أين يريدون الذهاب كل هؤلاء؟) هذا هو السؤال. ثم سؤال آخر لي أنا نفسي (أين أريد أن أذهب أنا نفسي؟) وهو السؤال الذي يستحقّ فعلا أن أقف أمامه بعض الوقت. كان مزاجي المعتلّ قد اعتدل حاله نوعًا ما بفضل (بويانت).

خلف باب دورة المياه كانت تصدر أصواتًا على قدر من العنف. لكن هذا لم يضايقني لأني توقّعت أن تكون تعدّ نفسها لي. وددت لو أمكنني أن أحصل لها هنا الآن على باقة ورد، مع بعض العبارات الجميلة، أو بعض الجمل المعروفة من أغنيات قديمة. فلو أكملت رحلتي معها سيبدو الوقت أقلّ طولاً. خرجت هي ودخلت أنا بعد وعد منها بانتظاري لنذهب معًا إلى وجبة الإفطار. قالت بصوت تلميذة في فسحة منتصف النهار (سأحرس لك الباب). عندما نظرت في مرآة الدورة، اكتشفت كم أبدو قبيحًا. كم أبدو كما لو كنت رجلاً في المرحلة الأخيرة من حياته. الذقن غير حليق. هناك (عُماص) أصفر في زوايا العينين. ثنيات الجلد حول الفمّ تدلّ على كم كان في حياتي من مرارة. شعر الرأس متلبّد. فعلت أقصى ما في وسعي. مرّرت بعض الماء كذلك أسفل الإبطين. شممت رائحة كما لو كنت أتعفّن.

لم تكن بويانت في انتظاري عندما خرجت. توقعت أن تنتظرني في المطعم لتحجز مائدة، أو في المشرب. إلا أنها لم تكن في أي منهما. مشيت في القطار من بدايته إلى نهايته. لم تكن في أي مكان. هذا مستحيل. استجوبت عددًا من الركّاب مستعملاً في وصفها أدق التفاصيل. لم يستطع أحد أن يردّ على تساؤلاتي. عاد اليّ مزاجي المعتلّ مضافة إليه طبقة من الإحساس بخيبة الأمل والمرارة. تناولت وجبة الإفطار وحدي. جلست إلى مائدة وليس على الكراسي الملحقة بالبار. كنت أضغط على نفسي لبلع

t.me/qurssan

الطعام رغم أنني كنت أشعر بالجوع. كانت إلى جواري بعض العائلات المكتملة الأعضاء، الأب والأم والأطفال. كذلك بعض المتقدّمين في السن. كنت أراقب الأبواب ولدي يقين بأنها آجلا أو عاجلاً ستعاود الظهور. كانت أعطتني اسمها، وكنت أعطيتها اسمي. وكان هناك وعد بيننا بتناول الطعام معًا. ماذا حدث؟ ثم بعد الوجبة عدت إلى تفتيش القطار. نظرت في كل مكان وفي كل الوجوه. في دورات المياه. في أقسام شحن البضائع. ولكن دون جدوى.

أثناء بحثي الحثيث قابلت المفتش، وضيّقت عليه الممر الذي كان يسير فيه. أمسكت به من ياقة معطفه. كنت حازمًا.

صحت غاضبًا (ما هي قصة هذا القطار؟).

(أيّ قصّة؟).

(تلك القصّة التي أجد نفسي متورّطا فيها).

(اهدأ أيها السيد. أنا لست الا مفتّشا. قيل لي إن عملي هو التفتيش على التذاكر، وهذا هو فقط ما أفعله).

(أنت يدفع لك مرتّبك حتى تقدّم إرشادات إلى المسافرين على خطوط السكك الحديدية. نعم أم لا؟).

(بالتأكيد الجواب هو نعم).

(إذن قل لي ماذا أفعل أنا هنا في هذا القطار؟).

(أنت تعود إلى مدينة مسقط رأسك. أنا لا أعرف الا هذا. فأنت الذي قلته لي أمس).

(كان على هذا القطار أن يقودني إلى مقصدي في ما لا يزيد على أربع ساعات. وها أنذا أنتظر الوصول منذ ما يزيد على عشرين ساعة. لقد دفعت أجر هذه الخدمة وهو ثمن التذكرة، في مقابل توصيلي إلى مقصدي، وهو مدينة مسقط رأسي. أنا لا أرى الا هذا).

t.me/qurssan

(نحن عادة لا نفعل كل ما نريد. ولا نصل إلى تحقيق كل أهدافنا. هذا إذا كنت تعتقد أن مهنتي كمفتّش قطارات ترضيني وتشبع غروري).

(أنت لست مضطرًا إلى ممارسة هذه المهنة)

(لم أعد أستطيع على الإطلاق أن أفعل أي شيء آخر عدا التفتيش في القطارات. أنت مثلا لقد وضعوك في قطار وقالوا لك إن عليك أن تسافر. وبالمثل كل هؤلاء البشر المسافرين في كل عربات هذا القطار. قيل لهم أن يسافروا فسافروا. لم يطلب أحدٌ رأي أحد منهم على الإطلاق قبل وضعهم في هذا القطار. هل يوافقون على السفر أم يفضّلون البقاء حيث كانوا؟ من المؤكد أن كلاً منهم يذهب إلى وِجْهة محدّدة. لكن أيّة وجهة لا أحد يعلم. هذا هو اللغز فنحن لا خيار لنا على الإطلاق. نحن فقط نفعل ما قالوا لنا إن علينا أن نفعله).

(لكن في حالتي أنا، لقد أخذت هذا القطار بملء إرادتي. أخذته لأني أردت أخذه. فمنذ وقت طويل أريد أن أعود إلى الأماكن التي عشت فيها السنوات الأولى من حياتي. وقد قرّرت أمس أأخذ هذا القطار. فجأة أخذت القرار. أنا وحدي ولم يكن هناك أحد آخر يجبرني على هذا)

(آه إذن أنت تعتقد أنك أخذت قرارك بنفسك. لكن الحقيقة هي أن أحدًا آخر قد اتخذ لك هذا القرار بدلاً منك. أنت لست في هذا القطار الا لتلعب دور الرجل الذي يشيخ ويريد أن يعود إلى البلد الذي شاهد سنوات طفولته. إن الأمر على هذا القدر من السهولة. بمجرّد أن تعترف أنت بهذه الحقيقة سيكون من السهل عليك بعد ذلك أن تفهم كل شيء آخر).

لم يكن في نيّتي أن أخنقه، لذلك خفّفت من قبضتي حول عنقه. ثم أمسك بآلته المعدنية ليخرم بها تذكرتي خرمًا ثانيًا، قائلاً إن عليه أن يزيد تذكرتي خرمًا جديدًا مع كل يوم جديد في رحلتنا هذه. ثم أضاف إن هذه هي وظيفته الحقيقية، فاعتذرت له عن مضايقتي له.

t.me/qurssan

(لاتعتذر لي فإن هذا هو المكتوب. كان مكتوبًا لي أن تعطّلني أنت عن عملي لبعض الوقت. كان هذا مكتوبًا. هذا هو كل ما في الموضوع).

وحيث إننا أصبحنا على هذا القدر من التفاهم المتبادل فقد سألته عن بويانت. لم يثر هذا السؤال من طرفه أي ردّ فعل. فرغم أنه يعرف تمامًا عالمه الصغير هذا فإنه لا يتذكر رؤية هذه المرأة.

قال (لاحظ أنه في هذا القطار تحدث أشياء مثل ما تتحدّث عنه أنت الآن، إذ تظهر شخصيات وتختفي دون أن ندرك عنها أي شيء).

انشغلت بقية النهار في التفكير في مصيري. راجعت دقيقة بدقيقة الساعات السابقة على اللحظة التي صعدت فيها إلى هذا القطار. يجب أن أعترف بأن ذكرياتي كانت مبهمة. عندما تأملت في حياتي، وجدت أن هناك صورة واحدة فقط لا غير، من صور طفولتي في مدينة مسقط رأسي، هي التي تتضح فيها كل التفاصيل، في وسطها هناك فتاة لم أكن أعرف عنها شيئًا، ولا حتى لون الفستان الذي كانت ترتديه. ثم تنتقل حياتي فجأة إلى الملهى الليلي الذي عملت فيه. ثم تنتقل مرة أخرى فجأة إلى هذا القطار. هي أشياء قليلة جدًا لو وضعنا في الاعتبار حياة طويلة عريضة مثل حياتي. خلف زجاج النوافذ تمرّ الحياة بالبشر في سرعة كبيرة هي سرعة هذا القطار، دون أن يستطيع أحد من الركّاب أن يقول لي إلى أين نتجّه. أنا هنا الآن جالس في كرسي القطار، لديّ الانطباع بأني لم أولد إلا بهدف ركوب هذا القطار.

رتّبت لي الذاكرة بعض المعلومات التي يمكنها أن تساعدني في تبرير السبب في وجودي هنا الآن. السبب هو المدينة التي ولدت فيها التي لم أعد حتى أتذكر اسمها. حتى على تذكرة القطار ليست هناك أي تفاصيل، فهم يقولون محطة القيام ثم محطة الوصول، ولكن ليست هناك أسماء أخرى مكتوبة على التذكرة. لكن يُفهم من هذه التذكرة أنه كما أن هناك محطة قيام فهناك مما لا شك فيه محطة وصول. بداية ونهاية. يصل

t.me/qurssan

القطار الآن إلى منحنى شديد الوعورة حتى أن خدّي يلتصق بزجاج النافذة. هذا مكنني من رؤية كل عربات القطار التي تسبق العربة التي أنا فيها. إن هذا القطار أطول بكثير مما توقّعت. على خلفية من منظر طبيعي باهت الألوان، تبدو عربات القطار كما لو كانت خطًا طويلاً مكتوبًا من كلمات غير واضحة المعنى.

قلت في نفسي إن هذا هو الكلام الذي يعتقدون أنه ينبغي أن أقوله لنفسي في مثل هذا الظرف. تحسّست رأسي وفمي وجانبي وجهي وصدري، وأدركت أنني موجود وأنني أتكوّن من لحم ودم. قمت من مكاني وتحركت في الممر وأنا أشعر بالعطش. بدا لي أن بعض زجاجات البيرة قد تكون ذات فائدة كبيرة في تهدئة مشاعري. بدا لي أن مظاهر الإرهاق كانت بادية على وجوه المسافرين. كانوا محبوسين مثلي في هذا الجسم المعدني الضخم، وقد شعروا بالملل. لكنهم لم يحلموا أبدًا بحياة أفضل من تلك التي أتيحت لهم. كانوا مثل كومبارس صامت في فيلم طويل أنا بطله. وضعوهم هنا فبقوا هنا. يتعاملون مع مصيرهم بصبر وأناة. لم يسألوا أنفسهم أسئلة. أنا بطل هذا الفيلم. هكذا فهمت كل ما سمعته ورأيته منذ الأمس. أنا بطل هذا القطار. خلقوني حتى يكون هناك ما يبرّر وجود كل هؤلاء. بصراحة أنا لن أتراجع عن هذا التفسير.

بقليل من الحظ قد تعود بوبانت إلى هذا النصّ. فبوجودها قد يأخذ النص منحنى جديدًا. بوجودها كان يمكن أن نحصل على بعض العاطفة مع بعض الهزر والجنس. يجب الاعتراف بأنها امرأة جميلة جدًا. كما أنه كان من المقدّر لي أن أحصل عليها لا شك في هذا. إلا أن لقاء رجل بامرأة في قطار ليست فكرة مبتكرة في المجال الأدبي. ولهذا السبب تمّت التضحية بها لصالح التفرّد الأدبي. لأن وجودها كان سيسقط العمل الأدبي كله في أخاديد الآداب الكلاسيكية. في حين كون اللقاء الأول بينهما قد وقع عند باب دورة المياه، حيث تعاني كل من الشخصيتين من رغبة

t.me/qurssan

ملحّة، كان يمكن أن نستخرج منه مادة بلهاء لعمل رومانتيكي. الأفضل هو ترك الموضوع برمّته، وعدم استحداث أي شيء على الإطلاق منه.

تأتي لحظة تكون فيها المقاومة عديمة الفائدة. كان من الممكن أن تخطر على بالي فكرة أن ألقي بنفسي من القطار. بسرعته تلك كانت السقطة ستجعل مني ذبيحة. إلا أن مقابض كل أبواب عربات القطار كانت محكمة الغلق إلكترونيًا وبالتالي غير قابلة لفتحها. كان هناك احتمال قدرتي على استعمال صندوق إطلاق الاستغاثة. من المفترض نظريًا أنه في حالة الخطر العاجل، كاشتعال الحريق في عربة مثلاً، يمكن جذب ذراع صندوق الاستغاثة، فيتوقف القطار تمامًا، تقريبًا على الفور، وتنفتح أبواب العربة التي بها الصندوق. إلا أنه من المحتمل كذلك أن يكون هذا الصندوق مجرّد إضافة إلى ديكور العربة، ليوحي إلى المشاهد بمصداقية المنظر، كما هي حال المسافرين الذين هم ليسوا مسافرين حقيقيين، وحقائبهم التي هي ليست حقائب حقيقية، ومفتّش القطار الذي هو ليس حقًا مفتّش قطار. فنحن قد استنتجنا مسبّقا أننا نصوّر فيلمًا سينمائيًا وأن كل هؤلاء ما هم إلا كومبارس. كنت مقتنعًا أنني لو جذبت ذراع الإنذار في صندوق إطلاق الاستغاثة لن يحدث أي شيء على الإطلاق.

لكني فضّلت أن أنتظر لبعض الوقت. في ركني هذا برأسي هذه الملتصقة بزجاج النافذة هذا. من الغريب أنه رغم أنني بطل الفيلم فإنه ليست هناك أية أحداث تقع لي. يستمر القطار في اقتحام مناطق مجهولة لي تمامًا. يسقط الليل ثم يرتفع ضوء النهار التالي، وتستمر الشمس في الدوران مثل العجلة. هناك مجموعات من الأشجار، تأتي بعدها أنهار، ثم تأتي المدن. ثم أعداد هائلة من البشر ينتظرون عند المحطات، يتمنون أن يكونوا في مكاني. ورغم سرعة القطار الكبيرة، ألمحهم ينظرون إليّ في غيظ. لم أعد أستطيع رؤية نفسي في لحظة صعودي إلى هذا القطار. لقد وُلِدْتُ. لقد ولدت في هذا القطار. هنا على هذا المقعد. من أجل تلبية

t.me/qurssan

احتياجات كتاب أكون أنا بطله. من أجل تلبية احتياجات حياة جديدة بدأت في اللحظة التي قررت فيها زيارة مدينة مسقط رأسي. كل هذه الأشياء معقّدة تمامًا مثل كل الأشياء المعقّدة الأخرى التي لا يمكن أن نعثر لها على تفسير فوري.

وحيث إنني كنت أغرق في أحلام يقظتي لتسلية نفسي في وقت فراغي الطويل، فقد فكرت في بويانت. ربّما كانت هي نفسها الفتاة الصغيرة التي كانت في طفولتي. وأنها الآن كَبُرَتْ. وأنها تسافر في ذاكرتي مثلما أسافر أنا في هذا القطار. وأنها تهرب مني الآن مرة أخرى. مثلما سبق لها أن فعلت في طفولتنا في مدينة مسقط رأسي. لم يعد هناك ما يمكن الإشارة إليه. القطار مستمر في جريانه المعتاد منذ بضعة أسابيع. لم يعد أي شخص يوجّه لي أي حديث باستثناء المفتّش. سألته عن مهنته التي كان يمارسها قبل أن يصبح مفتّشا. قال لي إنه لم يعد يتذكر أنه كان يمارس أية مهنة أخرى قبل أن يصبح مفتّشًا. سألته عن صندوق إشارة الاستغاثة. هزّ كتفيه وقال:

(يمكنك أن تجرّب مرة بنفسك لترى إن كانت تعمل أم لا).

لديّ الوقت لتجربة كل شيء. فالبيرة جيّدة وهي متوفّرة في هذا القطار بكميّات لا تنفد. على وجبة الإفطار يكون الخبز طازجًا كأنه خرج لتوّه من الفرن. في وجبة الغذاء هناك أسماك طازجة تم اصطيادها صباح نفس اليوم. هذه هي من نوعية المعجزات التي لا يمكن تصديقها. لكن من الأفضل عدم الاندهاش أمامها. في النهاية ليس هناك مجال للشكوى. لو لم أكن هنا في هذا القطار كان يمكنني أن أقع في قصة قاسية مؤلمة، مليئة بالأفخاخ والعنف، بالأزواج الغيورين، بالرجال الساديين، وبالتعذيب. كان يمكنني أن أتعذّب بسبب الجوع أو العطش. أو أن أموت حبًا. أو بسبب الخيانة. في هذا القطار نجوت من وباء الطاعون. ومن الزلازل والاهتزازات الأرضية. ومن اضطرار العمل في المصانع. ليس في مصلحتي الآن تغيير نظام الأشياء.

t.me/qurssan

لو كنت قد جذبت ذراع جهاز الإنذار ربّما كانت قد نتجت عن ذلك أحداث مرعبة. كان القطار سيتوقّف. وسيصعد إليه جنود مسلحون. ولن ينجو من الموت راكب واحد. لا أريد أن أكون السبب في كل هذه التعاسة. وبسبب الشك في النتائج امتنعت عن الفعل. أسرّ لي المفتّش أنه ليس من المستبعد أن يتوقّف القطار ذات يوم. فالقطارت تنتهي دائمًا بالتوقّف. إنها تتوقّف ولكن ليس من المؤكّد أن يحدث هذا في نفس الأماكن التي أردناها أن تتوقّف فيها. لم أعد أعرف إن كان هذا هو ما أتمنّاه فعلاً.

في بعض الأحيان كان الزهق يبدو على المفتّش فيقول (من حسن حظك أنك تذهب إلى جهة ما).

فأقول محتجًا (كيف هذا؟ ألسنا في نفس القطار؟).

(نعم نحن في نفس القطار ولكن أنت تعود إلى بلد مسقط رأسك أمّا أنا فلا أذهب إلى أي مكان).

هذه الفكرة وضعت بعض الراحة في قلبي. عدت إلى ركني عند النافذة. عرفت الآن تقريبا لماذا يتجهّم أغلب الناس في وجهي. فأنا لي هدف من رحلتي هذه. في حين أن أغلب الناس لا هدف لهم من رحلتهم تلك. هم يسافرون فقط لا غير أمّا أنا فأعود إلى بلد مسقط رأسي. لذلك فحالتهم يائسة أمّا أنا فلا. هم ينتظرون أن تنتهي هذه التجربة الصعبة. أمّا أنا فأستفيد من كل وقت الفراغ المتاح أمامي للتفكير في بويانت. وللتفكير كذلك في كل الأشياء المحتملة الحدوث لو جاء اليوم الذي أفتح فيه صندوق الاستغاثة وأجنب ذراع الإنذار. أنا لست واثقا من أي شيء. لكن يبدو لي أنه في أفضل الحالات، يمكنني تغيير القطار دون تغيير تاريخي الشخصي. على أي حال فكل شيء مكتوب. ويمكنكم فيما بعد متابعة بقية الحلقات.

t.me/qurssan

ـ ١٤ ـ

وصيّة رجل محبوب زيادة عن اللزوم

هذه هي وصيّتي. وصيّة يتيم استثنائي. أنا لم أعرف أبدًا من هم والداي. كل شيء يدعو إلى افتراض أنني نتاج لقاء لا أعرف مَن مِن الأرباب، ولا أعرف مَن من نساء الكائنات الفضائية. هل تخلّيا عني؟ هل فقداني سهوًا أو إهمالاً؟ لقد تمّ العثور عليّ في ساحة إحدى الكنائس في بلجيكا. في (دافرديس) على وجه الدقّة. هذا لا يعني أنني بلجيكي. لقد وضعني والداي هناك بهدف تشويش محاولات البحث والتقصّي. لنفس الهدف كانا قد غلّفا جسمي ببعض الأقمشة القديمة ثم وضعاني داخل كيس من البلاستيك من تلك الأكياس المستعملة في محلات السوبرماركت. قام رجال الشرطة البلجيكية بإجراء بعض التحرّيات. داخل بلجيكا نفسها بطبيعة الحال لكنهم لم يفكّروا في إبلاغ البوليس الجنائي الدولي (الإنتربول). كان الإنتربول هو الجهة الأجدر بإجراء التحرّيات في حالتي. كان هذا واضحًا وضوحًا تامًا. كان من الواضح أن هناك سيناريو مخطّطًا بدقّة لموضوع حالتي.

كانت الشرطة قد تحرّت أولاً في السوبر ماركت الذي يظهر اسمه مقروءا بوضوح على الكيس البلاستيكي. كانت حروفه كبيرة إلى درجة

t.me/qurssan

الوقاحة المستفزّة. كان من اللازم وجود رجال شرطة بلجيكيين ليقعوا بسهولة في فخ هذا الكيس. كانت نتائج التحرّيات محبطة. وتمّ إغلاق ملف القضية. ثم تمّ وضعي في ملجأ أيتام تشرف عليه الراهبات الأخوات. ثم بعد ذلك في ملجأ أيتام يشرف عليه الرهبان الإخوان. خلال خمسة عشر عامًا تنقّلت من ملجأ إلى ملجأ. كنت جميلا جدًا وذكيًا جدًا. قرر الإخوة أن يجعلوا مني كهربائيًا. في ذلك الوقت كانت هذه المهنة هي لصفوة الفنيين. كان العمّال الأقل ذكاءً يذهبون إلى مهن مثل النجارة والنقاشة. أما الأغبياء فكانوا يجمعون الحطب من الغابات. فيما يتعلق بي لم يتردّدوا لحظة واحدة في إرسالي إلى قسم الكهرباء.

بمجرّد حصولي على الدبلوم بتفوّق، تم تعييني في شركة تتولى تركيب المصابيح النيون في المصانع. كان عملي في فترة المساء. خلال تاريخي الوظيفي قمت بتغيير حوالي ثلاثة ملايين مصباح. ليس هنا المجال المناسب لأحكي هذه المغامرة المهنية التي تدعو إلى الفخر. أنا لا أعطي هذه المعلومات إلا لتحديد مكاني في المجتمع. أريد أن أقول لتحديد مقامي وقيمتي. لقد تفوّقت في فنون التوصيلات الكهربائية حتى أن الشركة التي وظّفتني لم تفكر يومًا في الاستغناء عني. أو في تغيير مهمّاتي الوظيفية. لست بعيدًا عن الاعتقاد في أنهم كانوا قد أدركوا جميعًا أنني كنت نابغة في مجالي.

أمّا في الشوارع فلم تكن للنساء عيونهنّ إلا للنظر إلى جمالي. لم أدرك هذا في حياتي على الفور. أنني كان لي تأثير قوي جدًا على دوافع النساء الجنسية. لكن بالتدريج فهمت أنهنّ عندما تمرّ الواحدة منهنّ إلى جواري فإن هذا يُحدث شيئًا ما في جسدها. كنّ يُدِرْنَ رؤوسهنّ للنظر إليّ من الخلف. أقول هذا وأنا لا أتخفّى خلف تواضع مزيّف. حتى أنا كنت قد اعتدت على أن أستدير لأتحقّق من هذا وأنظر إليهنّ وهنّ يستدرن. لقد استدرت كثيرًا أثناء مشيي في الشوارع حتى أن عمودي الفقري تأثّر

t.me/qurssan

بذلك. اضطررت إلى عرض نفسي على معالج إعادة التأهيل. سألني عن السبب في هذه الظاهرة، فأجبته شارحًا له فقط كيف أنني مضطر إلى الاستدارة حول محور جسدي، أثناء عملي في تغيير المصابيح. فصدقّني على الفور، فالناس يصدقونني على الفور لأني اعتدت على قول الحقيقة. فأنا مُصَدّق في كل ما أقوله وفي كل ما أفعله. نظرتي مثل نظرة أحد الأرباب. ولكل هذا فإن مجرّد معالج طبيعي لا يقدر أن يتشكّك في قول أحد الأرباب.

كان مسكني يطل على نهر لاموز [La Meuse] وهو نهر جميل مثلي. أسكن في الطابق الثالث من عمارة في حالة متهالكة، لكنها تقع على رصيف النهر وعلى مقربة من وسط المدينة. هناك أقضي ساعات طويلة أمام المرآة، دون أن أصل إلى تصديق إلى أي درجة كان جمالي. هذه هي الحقيقة التي يصعب أن أقرّ بها. لو لم أكن قد اخترتني جنيّات الأقدار لمهنة كهربائي، لكان من السهل عليّ أن أصبح نجمًا سينمائيًا دوليًا غنيًا ومشهورًا. أقود سيارات رياضية بين المياه الزرقاء والجبال الثلجية الشاهقة البياض. أحمل معي فتيات جميلات في مقاعد السيارة وفي حقيبتها وعلى جوانبها. بالإضافة إلى الأخريات اللائي ينتظرنني في أجنحة الفنادق الفخمة. على حواف حمّامات السباحة. أو على الفراش المصنوع من خشب الأكاجو الأحمر في أجنحة السفن الضخمة عابرة المحيط الأطلنطي. كل هذا هو في متناول يد رجل له مقاييسي الجسدية. لكني لم أرد الاستفادة من تفوّقي الجسماني.

ثم إن نساء هذه الطبقة الاجتماعية الراقية المرفّهة يستطعن أن تحصل كل واحدة منهنّ على شاب من أولئك الجيجولو الذين يبيعون الخدمات الجنسية. لذلك أرى أن نساء الطبقة العاملة في الأقاليم هنّ أيضًا لهنّ الحق في الحصول على مزايا صنف الرجال الممتازين. هناك مثلاً بائعة أنواع الحساء المجفّف المعبّأ في أكياس صغيرة، أو تلك التي تعرض في

t.me/qurssan

الأسواق أنواع السجق، بعد عمل كل منهما الشاق، لماذا لا تحصلان على حقّهما في المتعة، عندما تعود كل منهما إلى منزلها، لماذا تحرمان من هذا الحق بدعوى أنهما تعيشان في تلك البقاع المنسيّة المظلمة من البلاد، والتي يهجرها كل الرجال ذوي الأجسام الجميلة للعمل على شواطئ البحر المتوسّط في الساحل (اللازوردي الكوت دازور)، كمدربي سباحة لسيّدات ثريّات تغطي أجسادهنّ قطع الحليّ. فإذا كانت لي وظيفة واحدة في المجتمع الريفي، فهي أن أساعد نساءه على أن يحلمن. عندما أراهنّ وابتسم لهنّ تغمرهنّ السعادة في قلوبهنّ، فيرين الحياة جميلة، وتتحوّل أيّامهنّ ولياليهنّ إلى أيام وليال سعيدة، ويصبحن آملات في مستقبل أفضل، إذ تنفتح أمامهنّ أبواب عالم أفضل. إن جمالي وسحر جاذبيتي، وكفاءاتي في مجال الإغواء، كل هذا هو للمصلحة العامة. أنا أقرّ بهذه الحقائق هكذا بكل بساطة، لأنه ليست هناك حقائق أكثر حقيقية من حقائقي هذه.

عندما أكون وحدي في شقّتي، غالبًا أملأ ساعات فراغي في التفكير في ذلك الحظّ الفريد، أن أولد بهذا القدر من الجمال، وأن أتمكن من الاحتفاظ بهذا الجمال طوال هذا الوقت من حياتي. دون أقل قدر من النقصان، بهدف إسعاد كل النساء، الأمهات والفتيات والزوجات والخادمات في البيوت والتلميذات والطالبات والعاملات في المتاجر والموظّفات في المكاتب. كنت أستجوب المرآة

(لماذا حبتني السماء بكل هذا الجمال؟ في حين يكون أغلب الرجال محرومين من القدر الضئيل منه؟).

كنت عندما أنظر إلى نفسي هكذا في المرآة، أقع في هوى نفسي، وتتولّد لديّ رغبة في أن ألقي بنفسي بين ذراعي نفسي، وأن أغطي نفسي بالقبلات، أي أن أصبح ملكًا لنفسي، وأن أهب لنفسي جسدي، وأن اهب لنفسي حياتي وكل ممتلكاتي. كنت أحاول أن أقارن بين جمالي وبين صور

t.me/qurssan

جمال الرجال الآخرين المشهورين في هذا المجال. كنت جميلاً مثل جمال شمس الغروب علي شواطئ البحار الجنوبية. كنت جميلاً مثل جمال طريق درب التبّانة في ليلة صيف. مثل جمال جزر البوروميه. مثل جمال الزهور في شجيراتها. مثل جمال البارتينون وقصور فرساي. مثل جمال جسر نورماندي. مثل جمال ساحل الجرانيت الوردي. مثل جمال نبيذ البوردليه. مثل جمال أشعار فيرلين. مثل جمال الألعاب النارية الليلية في السماء. مثل جمال الآلهة. مثل جمال ملك الملوك. في كلمة واحدة مثل جمالي أنا نفسي.

إن كفاءتي في جعل قلوب النساء تدقّ، كانت لها أحيانًا تأثيرات غير مرغوب فيها، بل تدعو إلى الأسف. أتذكر في مرة بائعة صغيرة من بائعات المرطّبات المثلّجة من عصائر الفاكهة، في ركن من أركان ميدان السوق. كانت كل يوم عندما تراني تتابعني بعينيها. كانت عيناها حزينتين مثل آلة الماندولين الوترية. فمها الخجول لم يجرؤ أبدًا على أن يطلق نداءها نحوي. كنت أشعر وأنا على البعد بالذبذبات الصاعدة من جسمها كله. كانت تشتهيني إلى درجة الجنون. عندما كنت أمرّ، كانت تجارتها الصغيرة هي التي تمنعها من اللحاق بي ومتابعتي. تمنعها من أن تسألني العفو عن إزعاجها لي. العفو عن مداعبة الأمل في أن تلفت انتباهي إليها. من المؤلم جدًا أن أذكر لكم بقية القصّة. عرفت عن طريق الجريدة أنها في نهاية موسم تجارتها في نهاية الصيف، قد شنقت نفسها، نتيجة لقصة حب يائسة ليس لها فيها أي عزاء.

أعترف لكم بأن هذا الخبر هزّ كياني كله. إذ أظهر لي بوضوح الخطر الذي يمكن أن أقود النساء إليه. كنت أذهب لأضع الزهور على قبرها. ففيما وراء مسألة الحياة والموت، كنت أرجوها بحرارة أن تصدّق أنني لم أقصد أبدًا أن أحطّم قلب واحدة من بنات حوّاء. (ماتت وهي لا تزال صغيرة السن إلى هذه الدرجة) هذا هو ما كتبته في ذلك اليوم. غمرت

t.me/qurssan

الدموع عيني. كما لو كنت عريسًا حرمه القدر من عروسه في يوم العُرْس. وهذا هو الدليل على أنني رغم جمالي لا أزال أحتفظ بقدر كبير من حساسيتي. يبدو لي أحيانًا أنه كان يمكنني -لو كنت أردت - أن أصبح شاعرًا كبيرًا. بصفتي يتيمًا لم تتح لي الفرصة إلا لأصبح كهربائيًا. وليس لي أن أتشكّى من نعمة ممارسة هذه المهنة. حيث إنني كهربائي محترم. فالكهربائيون المحترمون هم أكثر نفعًا للمجتمعات البشرية من الشعراء الكبار. هذه بطبيعة الحال هي وجهة نظر كهربائي. فأنا لا أريد أن أجعل من الشعراء أعداءً لي.

بعد موت بائعة المشروبات المثلّجة، بدأت أقرأ صفحة الوفيّات باهتمام، بالإضافة إلى الأجزاء التي تتخصّص في عرض الوقائع الجنائية. من الأشياء التي تدعو إلى الجنون معرفة عدد النساء اللائي يَمُتْنَ في ألسن الذي يكون من الأفضل لهنّ فيه أن يُلْهَمْنَ الحبّ. هناك منهنّ من أماتت نفسها غرقًا. يبدو أنهنّ من بين من كنّ رَأَيْنَني - ولو لمحا للحظة واحدة - في وسط المدينة، ربّما أثناء جلوسي في شرفة المقهى. ربّما لمحنني في صالة العرض السينمائي أو في أحد المحلات. ثم لم يستطعن بعد تلك اللحظة العابرة نسياني. بعضهن مِتْنَ بقطع شرايين الرسغ. يقتصر إتيان هذا الفعل على النساء اللائي تعذبن مدة طويلة.

أما فيما يتعلق بالنساء اللائي يقذفن بأنفسهنّ في النهر، فقد لاحظت بشكل عام أنهنّ يتعمدن أن يقذفن بأنفسهنّ في الماء، بحيث يدفعهنّ تيّار الماء حتى تمر الجثث أمام البناية التي أقيم فيها، كأن أمنيّتهن الأخيرة هي المرور أسفل نافذتي، حتى لو كنّ قد أصبحن جثثًا. كم مرّة ألقيت في مياه النهر بباقات زهور في ذكرى هؤلاء النساء اللائي أحببنني إلى هذا الحد المروّع.

كنت أسألهنّ أثناء مرورهنّ، وأنا أراقب باقة الزهور وهي تبتعد (لماذا اختصرتنّ أيامكنّ؟).

t.me/qurssan

لماذا لا تأتينَ اليّ قبل ارتكاب الفعل الذي لا يمكن إصلاح نتائجه؟ كان بإمكاني أن أجد الكلمات المناسبة لكنّ. لتعزيتكنّ. كنت سأضغط على أيديكنّ بين يديّ. كنت سأسمح لكنّ بلمسي. كنت سأعيد إليكنّ الرغبة في تذوّق الحياة. كانت كلمات جميلة مثل تلك الكلمات، منطوقة وهي مخلوطة بقدر من العاطفة، كفيلة بتغيير النتائج. ثم أختنق بغصّة في الحلق من الألم والندم والتوتّر. كل هؤلاء النسوة المفقودات في المجتمع، اللائي لم يعشن إلا التنهّدات وخيبات الأمل، لم يكنّ ينتظرن أكثر من نظرة واحدة منّي. كان بإمكاني إنقاذهنّ. كنت أقصّ الأخبار من الجرائد وبها صورهنّ لأحتفظ بها، والمقالات التي كان يكتبها أحيانًا بعض الصحفيين عنهنّ. ثم ألصقها في كرّاسات اشتريتها خاصة لهذا الغرض. أسميتها ملفّات شهيدات الغرام، وحافظت على هذا التقليد طوال حياتي. هذه المجموعة من الكرّاسات هي نوع من التكريم الأخير لهؤلاء السيدات المئات اللائي متن من أجلي. الكثيرات حملن أسماء مونيك وفرانسواز وموريسيت وميريال وريموند ومارلين وشانتال ونانديج وكريستين وجان وألبرت وإدفيج وبولا وسيلفي. وأسماء لأخريات كان ظهورهن أقل تكرارًا.

وحيث إن هذه هي وصيّتي، فأنا أدين إلى الحقيقة بقول، وهو إنه بسبب الحبّ الذي لا يتحقّق الذي شعرت به بعض السيّدات تجاهي، حدث لبعض السيّدات المخلصات أن تحمّلن الكثير من المهانة والخزي والعار، قبل أن يتعفّنّ وفقًا للمعتاد، فوق القش الرطب وغير المريح لزنازين السجون. الحالة الأولى التي وصلت تفاصيلها إلى علمي، كانت حالة زوجة نموذجية. أتذكر جيدًا كما لو أن هذا قد حدث أمس. ففي يوم من الأيّام في أحد المحلات، نصحت هذه الزوجة بشراء نوع معيّن من الجبنة وهو ديمي روبلوشان [demi-reblochon وهو أفضل صنف جبنة يمكن أن يؤكل على مائدة الأسرة في نهاية الوجبة، وكان هذا الجبن في قائمة البضائع التي تتمتّع بالتخفيضات على الثمن الأصلي في ذلك اليوم. لا أجد أي ذنب

t.me/qurssan

في أنها أطاعتني على الفور. ذلك أن تأثيري المغناطيسي وسحر شخصيتي أثّرا فورًا عليها. أنا لم أفكر أبدًا في السيطرة المغناطيسية على امرأة بأن أحدّثها عن صنف جبنة. ومع ذلك فإن هذا هو ما حدث فعلاً. بعد ثلاثة أسابيع من ذلك اليوم قتلت هذه المرأة زوجها، بأربع عشرة ضربة بنصل حاد. أمّا الحقيقة التي جعلت الشك يملؤني، فهي أن النصل المستعمل في القتل، كان يخصّ نوعا من السكاكين التي لا تستعمل الا في تقطيع النوع المشار إليه أعلاه من الجبنة.

خلال جلسات محاكمة هذه الزوجة، لم تكن قادرة على تفسير ما حدث منها. كانت تغمغم بأنها أحبّت زوجها، لكنها لم تكن تحبّه بالقدر الذي يسمح لها باحتماله حتى نهاية العمر. كنت أشعر بالتقدير لها لأنها تجنّبت الإشارة إلى أي دور من المحتمل أن أكون قد لعبته أنا في هذه القضيّة. تمّ تمامًا استبعاد أيّة إشارة إلى الديمي روبلوشان. حكمت عليها المحكمة بالسجن لمدة خمس عشرة عامًا. قابلت المرأة الحكم الصادر عليها باللامبالاة التي تدلّ على أنها امرأة تريد أن تتخلّى عمّا بقي لها في الحياة. كانت قد أدركت أنها لن تستطيع أن تصل إلى امتلاكي، بل ولا حتى إلى مجرّد لفت انتباهي. كانت قد أدركت أنها لن تتمكن من الاستحواذ على رجل يريد أن يهب أجزاءً من نفسه إلى كل النساء المحيطات به، بشرط ألا تتملّكه إحداهنّ. فلو أنني مثلا كنت متزوّجا، لأغرقت آلاف الزيجات في بحور من اليأس. بالإضافة إلى آلاف السيّدات العزباوات. وآلاف الفتيات العذراوات. كلهنّ لم يكنّ ينتظرن إلا كلمة واحدة منّي حتى يتحقق لكل منهنّ الحلم الأغلى في حياتها. وحيث إنني لم أكن لأي منهنّ. فإن هذا يعني لهنّ أنني كنت ملكًا لجميعهنّ. كنّ يُحبِبْنني في (تنافس شريف)، أو كما كان يلذّ لي أن أقول في (مسابقة مقدّسة).

كان هناك أيضًا ما هو أغرب من ذلك. فبعد بضع سنوات من تلك الحادثة الأولى المشار اليها أعلاه، قامت إنجليزية بقتل زوجها، ثم بقتل عشيقها. لم أكن على استعداد للإشارة إلى هذه الحادثة، لو لم تكن

t.me/qurssan

الجريدة المحليّة قد أشارت إلى أن هذه الإنجليزية القاتلة، كانت قد جاءت إلى بلدتنا العام السابق لقضاء جزء من إجازة الصيف فيها. لم يستغرق الأمر منّي الا دقيقة واحدة لإدراك الحافز الذي قتلت هذه المرأة رجلين من أجله. هذه المرأة التي لم أعرفها، بل حتى لا أعتقد أنني رأيتها، كانت قد احتست - لا شك في ذلك - كأسًا من الشاي، في المقهى الذي اعتدت على الذهاب إليه. لا شك في أنها لمحتني في بهائي الصيفي، وقد انعكست الألوان المتعدّدة لمظلة شرفة المقهى على بشرتي فأكسبتها رونقًا إضافيًا.

كيف يمكنها أن تنساني؟ أنا متأكد من أنها كانت دائمة التفكير بي طوال سياحتها في بلجيكا. ثم عند عودتها إلى إنجلترا، إلى كورناي بالتحديد، كانت تطاردها ذكرى ذلك اللقاء الأحادي بي. أولاً في أحلامها عندما تنام، ثم في يقظتها عندما تكون مصابة بالأرق، ثم في الصباح، ثم طوال النهار سبعة أيام في الأسبوع، بما في ذلك الآحاد وأيام الأعياد. إنه الاستحواذ التام على تفكيرها. من المؤكد أنها قد لامت نفسها على أنها لم تحاول أن تتقرّب لي. إنها تلوم نفسها على أنها أضاعت من يدها الفرصة، للوصول إلى القمّة الكائنة في الأعالي. إنها تعرف أنها قد ارتكبت خطأ لا يغتفر. إن قتلها لزوجها ولعشيقها هو اعتراف ضمني منها بأنها كانت قد أساءت اختيار موضوع عشقها في المرتين. لم يُنْطَق باسمي مرة واحدة لأنها كانت تجهله. لكني أعتقد أنها خلال اعترافاتها كانت قد حاولت في مرّتين أو ثلاث مرّات - بطريقة مستترة - أن تبلغني برسالتها، خاصة عندما قالت:

(لم أعرف ماذا كان قد حدث لي أعتقد أنني كنت قد أُصِبْتُ بالجنون).

والمفهوم ضمنا أنها تقصد جنون الوقوع في عشقي.

في الملحق الخاص بوصيّتي هذه يمكن العثور على قائمة بأسماء كل المدانين في جرائم عاطفية. القائمة تتضمّن 983 اسمًا. و 72 جنسية

t.me/qurssan

مختلفة. ثم إن إجمالي عدد السنوات التي قضتها النسوة بسببي في السجون يصل إلى حوالي خمس عشرة ألف سنة، وهو ما يقدّر بحوالي خمسة ملايين وأربعمائة وخمسة وسبعين ألف يوم. إنه رقم يجلب الدوار إلى الرأس. فإذا أردت أن أحسب عدد الساعات فالرقم يبدو لي غير قابل للحساب. هو يقترب من 150 مليون ساعة. أنا بالتأكيد أضع كل هذه الأرقام وأنا مدرك تمامًا وبانسحاق كامل حجم المعاناة والعذاب الذي شعرت به النساء. أعرف كم من حيوات تحطّمت بسبب صورة جميلة لمحنها كلهنّ في نصف لمحة بشكل عارض.

لكن كل هذا لا يعتبر شيئًا بالمقارنة بالحادثة التي روّعت الناس في الكازينو منذ ثمانية عشر عامًا. كنت أتنزّه بصفتي رجلاً سعيدًا بحياته. أتنزّه كما اعتدت في شوارع المنطقة التجارية بالمدينة. عندما رفعت رأسي لأشاهد الأعمدة التي تقوم عليها لوحات إعلانية لصنف من البيرة. شاهدت دخانًا يصعد مباشرة إلى السماء. أدركت ببصيرتي على الفور أن شيئا يحدث. فأعطيت إشارات بالخطر المحيق وذلك بالاتصال بكل من رجال مطافئ المدينة، وقسم شرطة المدينة، ومقر الجريدة المحلّيّة. الكازينو يحترق والتّبِعات قد تكون خطيرة. جاء رجال الصحافة وأجروا معي حوارا. تحدّثت في الإذاعة والتلفزيون. التقطوا لي صورًا. أدليت بشهادتي ولكن بقدر كبير من إنكار الذات.

ليس من الممكن توجيه الاتّهام إلى وسائل الإعلام المختلفة بخصوص مسئوليتها عن وقائع ما حدث بعد ذلك. لكن الحقيقة هي أن إذاعة وإعادة إذاعة هذه التقارير بهذه الوفرة أدّى إلى تقديم صورتي إلى عدد لانهائي من النساء المأخوذات بالنموذج المثالي للجمال الرجالي وبالرومانسية. هؤلاء النسوة عندما اكتشفن أن الرجل الذي يتطابق مع الصورة الخيالية لأحلى أحلامهنّ ليس حلمًا، وأنه موجود بلحمه ودمه في مكان ما من هذا العالم الواسع، اكتشفن إلى أية درجة أن الرجال الذين كان عليهنّ أن

t.me/qurssan

يرضَيْن بهم كانوا بلا أدنى قيمة على مستوى الجمال بل كانوا على درجة كبيرة من القبح الجسماني. وعندما لم تتمكّنّ من إنكار الذات الذي أمارسه على نفسي بنجاح، لم تتمكّنّ بالتالي من كبح جماح شهوتهنّ. وهكذا حمل البريد إلى عنواني رسائل عديدة منهنّ يحاولن فيها - بدعوى التهنئة على حسن تصرّفي- أن يعقدن معي أواصر الصداقة. امتنعت عن الردّ. رغم أن الرسائل كانت تحمل على الأغلفة عنوان المرسل.

في بعض الليالي عندما أستلقي في فراشي، وأنظر في المرآة التي علقتها على سقف الحجرة، بغرض ألاّ تضيع مني لمحة واحدة من جمالي، كنت أشعر بكل هذه المشاعر العاطفية، التي تأتيني من أركان العالم الأربعة، فائرة فيّاضة في الهواء الذي أتنفّسه. كنت بالنسبة إليهنّ شائعة حارقة. كنت نارًا لأسماعهنّ ولأبصارهنّ. وهنّ كنّ كالذئبات الجائعات في قطيع يعوي بالجنون. في أنّاتهنّ كانت الرغبة تمتزج باليأس والضياع. صعدت أجساد هؤلاء النساء إلى سريري للهجوم على جسدي. غمرت أجساد النساء جسدي مثلما يفعل المدّ المائي في رمال شاطئ البحر. طفر زَبَد البحر من على شفاههنّ وانطلقت صيحات اللذّة من أفواههنّ. استمعتُ إلى الشكوى الصامتة التي انْتَزَعَتْها منهنّ لهفة الرغبة الملحّة. رجاءاتهنّ اللحوحة كانت لها رائحة جمبري البحر. رأيتهنّ عاريات متسلّقات على جدران شقّتي. يخرجن ويدخلن مرآتي وعلى وجوههنّ تعبيرات وقحة مبتذلة تحمل دعوات إلى أفعال غير مهذّبة تدعونني في الواقع إلى الاعجاب بهنّ. اهتزّ فراشي بهذه الغزوة القويّة. هذه القوّة النابعة من أعماق الأرض. مثلما تفعل حُمَم البراكين.

بعضهنّ كنّ يَعْضُضْنَ الملاءات على أمل أن تكون قد تشبّعت بقدر من روائحي أو إفرازاتي. كن يركعن ويردّدن صلواتهنّ. أو كنّ يُهَدّدْنَ بإلقاء أنفسهنّ من النافذة، ليسقطن بعد ذلك في مياه نهر لاموز البطيئة والكثيفة مثل العجين. المياه الراحلة في اتجاه هولندا ومن ثمّ إلى البحار

t.me/qurssan

الشمالية. أو كنّ يهددن بقتلي بهدف وضع حدّ نهائي لعذابهنّ ومعاناتهنّ. وحيث إنه من مبادئي عدم مضايقة النساء وعدم معارضة رغباتهنّ، كنت أقول لهنّ إنهنّ مُحقّات فيما يتعلق برغبتهنّ في قتلي. ثم أرشدهنّ إلى المكان الذي أضع فيه السكاكين داخل المطبخ. في مواجهة موقف كهذا يحدث أن ينهرن في نوبات من البكاء. ثم يحدث أن يطلبن الغفران. ثم حتى أقبل أن أغفر لهنّ يقبلن أن أفعل بهنّ كل ما يروق لي. ثم - كما سبق وأن قلت - إنه لعدم قدرتي على إرضائهنّ جميعا، فأنا لا أقبل أن أرضي واحدة منهنّ فقط لا غير على حساب الباقيات. إن إحساسي بروح العدل والمساواة داخلي لا يقل عن إحساسي بمدى سحري وجمالي.

لقد ظللت ساعات طويلة أقاوم الإغواء. أدفع بعيدًا عنّي اللحم البشري الشهي الأكثر طزاجة. الأجساد ذوات الاستدارات الجديرة بالأميرات. الأفكار والخيالات الأكثر شهرة في دنيا الأوضاع الجنسية. مما أدّى في النهاية إلى زيادة عالمية كبيرة في مشاعر الإحباط لدى النساء الحزينات. ماذا كان في إمكاني أن أفعل؟ أنا لست مذنبًا. كل ما فعلته هو أنني مارست مهنتي كرجل جميل. بتماسك وتحفّظ وتثاقل. ثم قدّمت إلى النساء كل ما استطعت تقديمه لهن. دون أن أقبل أن تقدّم لي إحداهنّ أي شيء في المقابل. مهما كانت الأنثى شهيّة ودون أي أمل في غد أفضل. مع ذلك كنّ مستمرات في الإلحاح. لم يكنّ قادرات على أن يتركن لي ثانية واحدة من الهدنة لنزع السلاح.

عندما كانت نجمات الفن يظهرن في التلفزيون، كنّ ينظرن لي مثبّتات أعينهنّ في عينيّ. أتذكر (سيجورني) التي كانت متوتّرة جدا لدرجة أنني تخيّلت أن بإمكانها أن تكسر زجاج شاشة التلفزيون التي تفصل بيننا. كانت تتحدّث بالإنجليزية التي لا أفهم منها كلمة واحدة. هذه اللغة يمكننا الاستغناء عنها في عالم الكهرباء. لكني تمكنت من فهم تلميحاتها. لقد كرّرت أنها ستأتي قريبًا إلى باريس لقضاء إجازتها. وأن باريس هي مدينة

t.me/qurssan

العشّاق. وأنها ستتنزّه فوق جزيرة لاسيتيه الواقعة في وسط النهر في قلب المدينة. وهو الحلم التي يراودها منذ فترة لكنها لم تتمكن من تحقيقه سابقًا بسبب كثرة مشاغلها المهنية التي ألزمتها بالبقاء في أمريكا. بعد ذلك عرفت أنها قد تركت رفيق حياتها، وأن لديها النيّة أن تبدأ من جديد مع شخص مجهول تمامًا. لم أذهب إلى باريس. أما سيجموري فمنذ تلك الفترة لم تمثّل إلا في أفلام حزينة إلى درجة كبيرة. كان حزنها يساوي ملايين الدولارات. أنا أحترم اختياراتها. لكني لم أستطع أن أفعل أي شيء لتخفيف حزنها وإعادة البسمة إلى وجهها.

ورغم أنها تعرف مواقفي المسبّقة هذه، فإنها مع ذلك حاولت أن تجرّب حظّها. أعترف بأنني فكّرت فعلا في الردّ على مناجاتها بشكل إيجابي، متقبّلا دوافعها الشبقية الجنسية. لكن هذا لم يكن بالنسبة لي إلا لحظة من لحظات الضعف. استعدت نفسي بالتفكير في كل أولئك النساء اللائي كنّ سجينات بسبب وقوعهنّ في هواي، أو كنّ قد تحوّلن إلى جثث في المقابر، أو أصبحن يعشن حيواتهنّ دون أن يتذوّقن أيّة متعة. وهكذا أصبحت أشعر بالحسد تجاه الرجال الآخرين، بكل رءوسهم تلك التي إما أنها تجلب الضحك أو أنها تدعو إلى الخوف. بأفواههم التي تمضغ الابتذال أثناء تناولهم لحم الخنزير المفروم. بأعينهم التي لا تنفعهم في شيء عدا النظر. في الحقيقة هم محظوظون. فالنساء لا يتوقّعن الكثير منهم. إن النساء يتزوجن من هؤلاء الرجال لأنهنّ لا يجدن البدائل. لأن من الواجب أن تستمر الدنيا. بعض النسوة يتحجّبن أنهنّ أكثر النساء عقلاً. ورغم أنه لا شك في أن الرب جميلٌ، وأنه الوحيد الذي يستطيع - إن أراد - أن ينافسني، إلا أنه لا يتمتّع بالوجود جسديًا، ذلك الوجود الجسدي الذي يُطلِق شهوات النساء - تلك المخلوقات الأرضية - من عقالها.

ربّما كان من الممكن لي أن أعيش بشكل مختلف، أن أتزوّج مثلاً. لكن الزوجة العادية كانت ستجد صعوبة شديدة في الدخول في منافسة

t.me/qurssan

مستمرة مع كل نساء الأرض. ما كنا بقادرَيْن على التنزّه معًا في الشوارع دون أن تستدير بقية النساء المنافسات نحوي. لإلقاء ألفاظ السباب في وجه زوجتي. كانت ستموت من الغيرة بعد بضعة أشهر من المعاناة الصامتة. فكرت في الذهاب إلى المنفى. إلى الغابات الأمازونية التي تأوي العدد الأكبر من الهاربين من كل بلاد العالم. لكني تساءلت لماذا أتسبّب في اضطراب حيوات النساء الأمازونيّات؟ إنهنّ الوحيدات اللائي يجهلن وجودي. فهنّ ليست لديهنّ أجهزة تلفزيون ثم إنهنّ لا يقرأن الصحف. لذلك كله قرّرت تركهنّ في السلام النفسي المعزو إلى الجهل. لذلك كله أدركت أنه ليست هناك أية حلول. كان يجب عليّ أن أستمر في حمل صليبي وحدي، في هذا الإقليم المسالم الذي أعيش فيه. على ضفاف نهر لاموز، تحت تلك السماء الرمادية الداكنة. في ذلك التتابع المتسلسل البطيء للأيام. في هذا الإقليم الذي تكثر فيه الإضاءة بمصابيح النيون.

هذه هي وصيّتي. التي يجب أن أسجّل فيها رغباتي الأخيرة. هي رغبات ليست من المبالغة في شيء. أريد أن توضع في الأرشيف المحلّي للمدينة، كل الكراسات التي سجّلت فيها كل وثائق تاريخي الطويل، من المآسي التي تسبّب فيها جمالي الاستثنائي. وأن تتاح للمؤرّخين وللمؤرّخات حرّية الاطلاع عليها. من ناحية أخرى أنا آسف إذ أقرّر أنني لا أنوي أن أهب جسدي إلى الأبحاث العلمية. فأنا لا أريد له أن يُقطّع إلى أجزاء توزّع على معجباتي. رغم أنني أستطيع أن أخمّن أنهنّ يحلمن بتزويد الحليّ حول أعناقهنّ بأجزاء من جسدي. لكني اخترت أن يُحرق جسدي في الفرن، ويؤخذ الرماد المتبقّي لينثر في يوم شديد الرياح على مياه نهر لاموز.

وستعرف الأدخنة الصاعدة من عملية الحرق، وستعرف الذرّات المتبقية من الجسد، طريقها إلى رئات المعجبات ليملئن بها صدورهنّ. أمّا الظواهر الطبيعية المعروفة مثل تبخّر مياه النهر وتكثّف السحب، فستتكفّل بنقل

t.me/qurssan

رمادي إلى كل قارات العالم. وسينتقل رمادي على الهواء إلى المسجونات عبر قضبان الزنازين. وإلى التجمّعات السكنية التي تعيش فيها النساء ليتقدّم بهنّ السن ولكن يستمر بكاؤهنّ على فقدي. وحتى إلى منازل الطبقات المرفّهة التي تجد الشمس طريقها إلى شرفاتها. ثم إنها سيجورني التي قرّرت أن أهبها إرثي، إذ يبدو أنها ستظل باقية على قيد الحياة لفترة طويلة. مثل مجموعة المرايات التي لكثرة نظري إلى نفسي فيها، انحفر شكل جسمي عليها. على أن تعرف أن انعكاس جسمي على المرآة لم يتوقّف يومًا عن الحلم بها.

t.me/qurssan

ـ ١٥ ـ

جار مرعب مخيف

كما أننا لا نختار عائلاتنا فنحن لا نختار جيراننا. لكن في بعض الأحيان يكون أن يترك الشخص عائلته أسهل من أن يترك الشخص جيرانه. هذا ما كان (بيدرو) يقوله لنفسه، وهو ينظر عبر نافذته إلى منزل جيرانه من عائلة (الأوتييه)، المتوحّشين الغلاظ القلوب الأفظاظ. فلم يكن قد مرّ عام واحد على انتقالهم لسكنى هذا الحيّ، حتى تحول الحيّ كله إلى نار ودماء.

همست (ايرما) زوجة بيدرو قائلة له (إنك تؤذي نفسك بهذا ويستحسن لك أن تتوقّف عن التفكير فيه).

قال بيدرو وهو يضع كوب القهوة على المائدة أمامه (إنهم فاشيون).

لم تكن تلك الكلمة التي نطق بها تبالغ في وصف الجيران. فعائلة (الأوتييه) كانوا أعضاءً عاملين في أحد أحزاب اليمين المتطرّف. وربّ الأسرة كان قد رشّح نفسه في الانتخابات المحلية الأخيرة. لكنه لحسن الحظ لم يفز بالمنصب. مع أنه كان رغم كل شيء قد حصل على حوالي

t.me/qurssan

20 بالمئة من الأصوات. منذ ذلك الحين وهو يعتبر نفسه سيّد العالم. جسمانيًا كان يتميّز بقدر من ضخامة الجسد. له وجه خنزير قرمزي اللون. مثل تلك الخنازير التي نراها على الورق الذي يغلّف مبيعات محلات منتجات لحم الخنزير. وله جبهة تقريبًا لا وجود لها حتى أن منابت شعر مقدّمة الرأس تلتحم مع شعر الحاجبين. ثم إنه كان قد خدم في الجيش في إحدى وحدات المظليين التي كانت لها أمجاد عسكرية. في داخل منزله، وفي مكان واضح فوق المدفأة، وضع غطاء الرأس العسكري تحت قبّة زجاجية صغيرة، كان موضوعًا تحتها فيما مضى بندول ساعة قديمة لحمايتها من الأتربة.

عندما يحلّ الربيع، ويسمح دفء الجو بفتح النوافذ، ينهمر إلى الشارع سيل من أصوات الأناشيد الذكورية العسكرية. في الأمسيات التي يحتفل فيها بالأعياد، ويستقبل فيها الكثير من الضيوف، ويكون الناس قد ثملوا بعض الشيء من الخمور، لم يكن أحد منهم يقاوم إغراء الانجراف في غناء أناشيد تخصّ الحزب الاشتراكي القومي الألماني (النازي). وهم يدقّون الإيقاع بطرقات الكؤوس بعضها في بعض. وهم يدقّون الإيقاع بأقدامهم. كانت هذه هي عاداتهم وأخلاقهم.

أصدر بيدرو عليهم حكمه (حيوانات).

لم يكن بيدرو من أحزاب اليسار، ولكنه كان مع الديمقراطية. كان رجلاً حسن النيّة يتميّز بالإخلاص وبأمانة ملائكية. لم يكن قادرًا على أن يؤذي ذبابة. حتى لو كانت ذبابة يمينية الهوى. من جهة أخرى لم تكن له أنشطة سياسية. حتى تلك اللحظة التي اشترى فيها (الأوتييه) المنزل المجاور لمنزله، كان يجهل تمامًا معنى كلمة فاشية، ويجهل كيف يمكن أن يكون شكل رجل ينتمي إلى أحزاب يمينية متطرّفة. وهل يكون الرجل اليميني المتطرّف لا يزال قريب الشبه من الشكل الآدمي المعروف. كانت تلك هي الأسئلة التي لم يكن بيدرو يسألها أبدًا لنفسه. كان قد بدأ عمله في المصنع في سن الرابعة عشرة، وأنهى تاريخه المهني كرئيس عمّال، دون مؤامرات.

t.me/qurssan

ودون أن يخون الطبقة العاملة. ودون أن يصبح عبدًا في خدمة سيّده صاحب المصنع أو سيّده صاحب رأس المال. أنهى تاريخه المهني وهو رجل ذو ضمير وذو كفاءة مهنية.

لم يكن لديه إلا طموح واحد وهو أن يظل قادرًا على توفير حاجات أسرته الرئيسية. وعلى تربية أبنائه. وعلى أن يوفّر لهم سقف منزل. وأن يوفّر لهم لوازم الدراسة. كان رجلاً مسالمًا. لكنه كان قد تعلم الجدّية في الحياة في سن مبكرة. لكنه أصبح أكثر جدّية ورزانة وتجهّم الوجه منذ أن تمّت إحالته إلى المعاش. كان من الصعب عليه قبول فكرة قبض مرتّب دون أن يكون ذلك في مقابل عمل يؤدّى. وجد أن التعويض المناسب هو أن يشعر بالعرفان بالجميل، وأن يترفّع عن الصغائر، الترفّع الذي لا يصل إلى حدّ التعالي. عندما جاءت الأسرة الملقّبة (أوتييه) للسكن إلى جواره، اعتقد أن عليه أن يذهب إليهم في منزلهم لتحيّتهم وللترحيب بهم. ثم ليقدّم لهم نفسه وليعرض عليهم خدماته في حالة احتياجهم إليها. وليؤكد عليهم أنهم يمكنهم الاعتماد عليه وعلى زوجته (إيرما). فبين الجيران ينبغي التعاون المتبادل. قبل الذهاب اليهم كان قد أعدّ الجُمَل المناسبة للقاء.

كان الرجل يُدْعى (جان كلود)، وكانت زوجته التي لها وجه (لينين) بعد وضع الشعر النسائي المستعار عليه وحلق الذقن، كانت تُدْعى (جوزيت).

نظر جان كلود نظرة ازدراء إلى (بيدرو) قائلاً له (ولماذا تتدخّل أنت فيما لا يعنيك من شئون الآخرين؟).

تمكّن بيدرو من أن يقول (كنت أريد أن أقول إنه بين الجيران يجب أن نعرف كيف نتعاون)، وهو يشعر كأن عليه الاعتذار.

غمغم جان كلود (اتفقنا. لكني أريدك الآن أن تغرب عن وجهي، فأنا أريد أن أنهي طبق حسائي، دون تعكير مزاجي).

تردّد بيدرو مذهولاً لبضع ثوان، وهو لا يزال واقفًا واضعًا قدميه على عتبة الباب، ثم أدارهما ببطء في موضعهما من الأرض واستدار. ثم جاءه من خلفه الصوت الغليظ قائلاً:

t.me/qurssan

(وأنت أيّها الغبيّ السخيف، هل تجد صعوبة في أن ينطق حلقك متمنّيا لي شهية طيّبة؟).

ثم أنصت بيدرو إلى ضحكة غليظة مستفزّة. ورغم أن بيدرو، كواحد من قدامى العمّال في المصانع، كان قد تعرّض سابقًا في حياته إلى مهانات عديدة، شعر بمهانة شديدة من هذه الضحكة الغليظة. في المساء جلس بيدرو على الدكّة في عمق حديقة منزله، حيث توجد عشش الأرانب، محاولاً فهم حقيقة ما حدث له مع هذا الجار. كانت هناك رائحة مستحبّة تصعد من تراب الحديقة. كان الليل قد هبط على أعمدة الإنارة، الا أنه لم يكن قد هبط بعد إلى أرضيّة الشارع. أنصت إلى صوت بضعة سيّارات تمرّ في الناحية يبحث أصحابها عن المكان المناسب لبقاء السيارة حتى الصباح. على بعد كانت المدينة تبدو وكأنها تنطفئ بالتدريج. جاءت قطّة بيدرو لتحكّ جسدها في ساقه وهي تهرّ. اعتقد بيدرو أن للحياة جانبًا طيّبًا.

بعد ثلاثة أيام كانت القطة تموء إلى جوار الباب، وهي تجرّ أمعاءها خلفها. كان بطنها قد ثُقِبَ بعد تعرّضه لضربة شوكة مما يستعمل في الحدائق. في الأقاليم الريفية ليست هذه الحادثة نادرة الوقوع كما قد نتوقّع. لكن هذا الحيّ لم يشهد وقوع حادثة مثلها أبدًا. من الطبيعي أن يشكّ بيدرو في جيرانه الجدد. حمل بيدرو قطّته إلى الطبيب البيطري الذي أعطاها حقنة أنهت عذابها. دفن بيدرو جثّة القطّة في الحديقة في مكان به زهور. ثم إذا به يبدأ في مراقبة جيرانه دون أن يكون له في ذلك هدف واضح. كان هناك حائط صغير يفصل بين حيّز الملكيتين، بين أرض حديقته وأرض حديقة جيرانه. لم يلحظ بيدرو وجود شوكة حديقة. لم تكن حديقة جيرانه إلا قطعة أرض مغطّاة بالحشائش الخضراء غير المهذّبة بسبب قلة الاعتناء بها. وضعوا في وسطها مائدة بلاستيكية وبضعة مقاعد، بالإضافة إلى جهاز شيّ اللحم متحرّك على عجلات صغيرة. كان من الواضح لبيدرو أن جان كلود وزوجته جوزيت ليست لديهما أيّة فكرة عن الاعتناء بالحدائق ولا عن الآلات اللازمة لذلك.

t.me/qurssan

لكنهما كانا يمارسان عادة احتساء أقداح من الخمور الخفيفة مع أصدقائهما كفواتح شهيّة قبيل الوجبات. كانت هذه العادة بالنسبة إليهما هي رياضتهما المفضّلة. هي وسيلتهما إلى الاسترخاء. هي فلسفتهما. هي تعبير عن وطنيّتهما وذلك لأنها عادة فرنسية أصيلة. هي طريقتهما للتثقيف وللحصول على الثقافة. هي أسلوبهما في التواصل مع الناس. خلال ساعات طويلة كانا يتناقشان مع ضيوفهما في مسائل سياسية حول مائدة الحديقة أثناء احتساء الخمور. في حين كانت جوزيت تقوم بين حين وآخر لمتابعة شيّ اللحوم. كانا هما وضيوفهما يستهلكون كمّيّات كبيرة من لحوم الخنازير. كانوا كلهم يحشون أفواههم كأنهم يقومون (بتزغيط بطّ). بهذه الطريقة كانوا يعتقدون أنهم يؤكّدون هويّتهم ويجاهدون في سبيل المسيحية ضد تهديد الهجمة العربية الإسلامية.

كانوا من بين الناس العاديين جدًا. لم يكونوا يحبّون أحدًا. لا من العرب، ولا من السود، ولا من اليهود، ولا من سكان مدينة رانس [Reims] ولا من سكان باريس، ولا من الأمريكيين. هم لا يزالون يحقدون على الألمان، وينتقدونهم على أنهم لم يتمكنوا من الدفاع عن دولتهم في نهاية الحرب العالمية الثانية. في لعبة المذبحة تلك التي اعتادوا أن يلعبوها كان (جان كلود) هو أكثرهم قسوة وتشدّدا. بسبب أولاً أنه لم يكن أبدًا مخمورًا تمامًا، وكانت مقاومته تلك للخمور تعطيه ثقة في نفسه، وترفعه درجة في الكرامة. كان بودّ (جوزيت) أن تكون قادرة مثله على التحكّم في نفسها، لكنها بعد ساعة محدّدة من الليل تبدأ في الترنّح، وفي الضحك بصوت مرتفع، وفي رفع ثوبها عن جسدها والتقوّل بألفاظ جنسية خارجة. لم يكن ضيوفهم الآخرون أفضل منهم حالاً. وكانوا هم الآخرون يتعرّضون للتأثير الكارثي للخمور.

كانوا يتخيّلون رؤية العرب والسود في كل مكان. يتخيّلون الإنصات إلى ضوضاء قادمة من جهة الأرض العشبية. فإذا بهم يستلون السكاكين ويتساءلون إن لم يكن من الضروري الاتصال برجال الشرطة. كانوا

t.me/qurssan

يتحاكون فيما بينهم بقصص غريبة عن اليهود، وعن الجرائم التي اعتاد اليهود على ارتكابها. ورغم أن هذه المجموعة من الأصدقاء لم تكن لديها إلا معرفة محدودة جدًا بالكتاب المقدّس، فهم رغم ذلك لا يزالون يتذكّرون أن اليهود هم الذين قتلوا يسوع المسيح. تذكّر هذه الحادثة الدينية يجعلهم يتجمّدون رعبا في أماكنهم. فيظلون صامتين ساكنين عن الحركة لمدة دقيقة. ثم يذكر أحدهم مشروع رحلة إلى القدس لزيارة القبر المقدّس. لم تكن تخيفهم هذه الرحلة الطويلة. ثم يرفعون أيديهم بالكؤوس، وذلك لتأكيد شجاعتهم، وفي نفس الوقت لتوقيع العقد الشفهي بينهم على أن تكون السنة التالية هي سنة تحقيق حلم الذهاب إلى القدس. كانوا يتقارعون الكؤوس في الهواء، كأنه العهد بينهم على البقاء معًا في الحياة كما في الموت. الكل لواحد والواحد للكل. هم عادة يستمرّون في هذه الجلبة والضوضاء حتى ما بعد الثالثة من صباح اليوم التالي.

وحيث إن نافذة حجرة نوم (بيدرو) وزوجته تطلّ على فناء حديقة احتفالات جيرانه، لذلك كان مضطرًا إلى شراء سدادات أذن له ولزوجته حتى يتمكنا من النوم. اضطر كذلك إلى وضع طبقة مزدوجة من الزجاج على كل نوافذ المنزل. ورغم كل هذه الاحتياطات، فإن (ايرما) زوجة بيدرو كانت تستيقظ في كل ساعة من ساعات الليل لتشتكي من الضوضاء، وذلك بسبب أن نومها كان خفيفًا. حاولت أن تشغل في كيّ الملابس ليلاً. أو بالجلوس أمام برامج التلفزيون. ثم بعد بضعة أشهر قرّر بيدرو نقل سرير حجرة النوم إلى مكان آخر بعيد عن حديقة الجيران، وهكذا عادت إيرما إلى النوم أثناء الليل.

في نفس الوقت من كل عام، كان بيدرو يستعين بأرنب ذكر في تلقيح أرانبه الإناث. كان من يعاونه في هذه العملية هو علي بن علي، وهو فرّاز متقاعد متخصّص في أنواع الأرانب. بيدرو يعرف علي منذ سنوات طويلة، ويعرف أنه يمتلك في حظيرته سلالات استثنائية من ذكور الأرانب، تفوز دائمًا بالمراكز الأولى في المسابقات المحلية لأحسن السلالات. كان علي في

t.me/qurssan

السابق عاملاً في نفس المصنع الذي كان فيه بيدرو رئيسًا للعمال، ولهذا السبب كان علي يقبل دائمًا مساعدة صديقه بإدخال ذكوره إلى كبائن الإناث. كان هذا التخصيب ينتج عادة لحومًا غضّة ريّانة. في أثناء قيام الذكور بمهمّتهم تلك، كان علي يجلس في الحديقة مع بيدرو يشربان مشروبًا في علب معدنية، ويستعيدان ذكريات العمل معًا في المصنع.

في مساء نفس اليوم أثناء تناول جان كلود وأصدقائه المشروب الملطّف، أنصت اليه بيدرو وهو يخطب في أصدقائه بصوت مرتفع.

(إن جاري الغبي الأحمق يخصّب إناث أرانبه بواسطة ذكر عربي، كما أقول لكم لقد رأيته بعيني، لقد قاومت الإناث هذا الذكر العربي. إنها في منتهى الوحشية أن يُترك هذا الذكر العربي يعتدي على إناث فرنسيّات. إن الذكور العرب يدخلون في كل ما هو مثقوب. من وجهة نظري فإن جاري هو رجل لا يحترم نفسه).

عند هذا الحدّ ثار الآخرون كذلك قائلين (كان من الواجب عليه على الأقل أن يحترم حيواناته).

قالت جوزيت (أنا لو أكلت من لحم هذه الأرانب فيجب أن يدفع لي هو نقودًا كثيرة وليس العكس).

قال جان كلود وهو يلثغ بالراء (أنتِ جوزيت أصبحتِ معتادة على اللحم الذي يقدّمه لكِ زوجكِ جان كلود).

قالت وهي تتذوّق كلماتها وكأنها تمتصّها (أقسم لك يا جان كلود أن اللحم الذي أقدّمه لكَ أدفع ثمنه غاليًا).

في مثل هذه الظروف، وبسبب حوارات مثل تلك، توقّف بيدرو عن تناول طعام العشاء في الحديقة حتى في الليالي الصيفية الحارة. كانت إيرما تعدّ شطيرتين وتغلفّهما بورق الألومنيوم، وتضع ثمرتي موز في حقيبة بلاستيكية من حقائب المشتريات في الأسواق، وتملأ الإناء المعدني

t.me/qurssan

الحافظ لحرارة السوائل داخله (الترموس) بشراب القهوة غير المركّز وغير المضاف إليه الكثير من السكّر. ثم يذهبان للتنزّه وتناول هذه الوجبة، على بعد كيلومترات قليلة، جالسَيْن إلى مائدة من الموائد الخشبية التي بادر المجلس المحلي بتزويد الحدائق بها، في مواقع تطلّ على الوادي. هناك في الهواء العليل للحظة غروب الشمس، تحت أفرع الشجر الذي يتلاعب بالضوء، كانا يتذوّقان الحياة وهما يستريحان من مضايقات جيرانهما المرعبين. كان النهر من هذا الارتفاع، بتعرّجاته التي تلفّ حول ضباب السماء الزرقاء، يجعلهما يرغبان في الحصول على إجازة. تنهدّت إيرما وهي تضع رأسها على كتف بيدرو. كانا يهضمان هكذا شطيرتيهما، كما كانا يهضمان هكذا أشياء أخرى عديدة.

عندما عادا في المساء إلى منزلهما، لاحظ بيدرو وجود رائحة غريبة كانت كما لو أنها تنبعث من الرصيف. الا أنه لم يلتفت إليها إلا بقدر لحظة، إذ كان لا يزال يحاول إطالة تأثير اللحظات الجميلة التي قضاها مع زوجته. كان هذا في صباح اليوم التالي، عندما فتح بيدرو صندوق البريد، ليجد بداخله كمية من البراز الذي كان لا يزال على قدر من السيولة لم يتجمّد بعد. كان وزن الكمية لا يقل عن ثلاثة كيلوجرامات، وكلها تم إدخالها في الصندوق عبر الفتحة التي تسمح لساعي البريد بوضع الخطابات. قال في نفسه إنه لا يمكن أن يكون هذا الفعل الخبيث من أفعال الجيران. قال في نفسه إنهما أبعد ما يكونان عن روح الدعابة حتى لو كانت على هذا القدر من السخافة. قال في نفسه إن طبعهما هو طبع الجدّيّة المميّز لكل من يشتغلون بالسياسة. كان أكثر ميلاً إلى اعتبار هذا الفعل من أفعال صبِيّة آخر الشارع. كانوا ثلاثة من الصبية أو أربعة لا يعرفون ماذا يفعلون بأيام إجازتهم. وضع براز مهروس في صناديق البريد، أو وضع دهان على مقابض أبواب السيارات، تظل من الدعابات المألوفة في المناطق الريفية، التي تثير في أغلب الأحوال الكثير من الضحكات من الجميع عدا الضحية.

t.me/qurssan

كان تاريخه الطويل من ملازمة عمّال المصانع قد حصّنه ضد هذا النوع من الدعابات. هو نفسه كان يرى على جدران دورات المياه في المصانع أسماء الأشخاص المكروهين مكتوبة بالبراز. ولم يخطر بباله أبدًا أن ينتقد أولئك الذي يفعلون ذلك. فهو يفهم ضرورة أن يتسلّى الناس بما هو في متناول أيديهم، خاصة لو لم تكن لديهم وسائل أخرى للتسلية. وفقًا لهذا التفكير قام بتنظيف صندوق بريده بالمكشط والمجرفة ثم بخرطوم الماء. لم يضحكه هذا الموقف، لكنه يعلم كذلك منذ مدة طويلة، أن هناك ما يستدعي الإبقاء على الدموع لصالح مواقف أكثر درامية. لكن المفاجأة الحقيقية التي كانت على قدر كبير من العنف هو ما كان ينتظره في منتصف النهار. عندما ذهب لتقديم وجبة الطعام لأرانبه وجدها كلها مقتولة. أربع عشرة أرنبة رائعة حوامل في أجنة من أبناء ذكور علي بن علي. مذبحة.

الأسوأ هو أن المجرم القاتل كان قد جزّ رءوس الأربع عشرة أرنبة. حتى أننا كان يمكننا رؤية عظام الجمجمة. كان يريد أن يصرخ إلا أن المنظر أمامه جعله يفقد صوته، بفم مفتوح عن آخره، وبنفس مقطوع. كان هناك ألم يقبض على صدره قبضات متتالية. انهار على الدكّة. كانت إيرما تناديه من داخل المنزل لتذكّره بأنه نسي أن يأخذ معه قشر الخضراوات وقطع الخبز الجاف التي تضاف إلى وجبة إناث الأرانب. ذهب إلى مخفر الشرطة لإثبات الواقعة ولكن ضد مجهول. رفض رجال الشرطة الانتقال إلى موقع الجريمة. بدعوى أن هناك حالات طوارئ أكثر أهمية من حادث مقتل أربع عشرة أنثى أرنب.

سأل الضابط (هل تشكّ في أحد؟).

غمغم بيدرو (قد يأتي هذا من جيراني).

سأل الضابط وهو غير مهتم (من هم جيرانك؟).

قال بيدرو وهو يضغط على نفسه (جان كلود أوتييه وزوجته جوزيت).

t.me/qurssan

أصدر الضابط صوتًا من فمه يعلن به عن ارتيابه. ثم بفتور تام أعلن لبيدرو أنه أمر محفوف بالمخاطر أن يكون اتهامه لجاره دون أدلّة. بعد ساعتين قام رجال الشرطة بزيارة منزل أوتييه لاحتساء المشروبات فاتحة الشهيّة. تمّت تسوية المسألة وهو يربّتون على بطونهم. عند مغادرتهم المكان وجد رجال الشرطة صعوبة شديدة في تشغيل محرّك السيّارة. ثم من حيرتهم أمالوا قبّعاتهم العسكرية على جانب رءوسهم. عندما رأى بيدرو هذا المنظر توقّع أن تنهال المخالفات المرورية على كل من يقود سيارته اليوم في وسط المدينة. ثم عاد إلى الانشغال بحلّ الكلمات المتقاطعة في المجلّة التي بيده. ثم أنصت إلى طرقات على بابه كما لو كانت بالقدم لا باليد. كان هو جان كلود أوتييه نفسه وقد يحوّل وجهه بسبب الغضب إلى اللون الأحمر، ممسكًا في يده بنصف زجاجة خمر العرق آنيزيت Anisette.

قال بيدرو وهو يقصد أن يجعل جاره يفهم أنه مستعد لمواجهة الموقف (تفضّل بالدخول يا سيد أوتييه).

صرخ جان كلود (لن أدخل في منزل مروّج إشاعات تسيء إلى سمعة الناس، ما الذي ذهبت تحكيه إلى الشرطة؟ هذا خطير جدًا. وسأجعلك تفهم أنني لا أحب أن يتهمني أحد بأنني قاتل أُبيد الأجناس. أنا؟ أقتل أرانبك؟ ليس هناك ما يعنيني البتّة في أرانبك. فإذا كان أحدهم قد تخلّص من أرانبك حتى لا تتسبّب له في أي إزعاج فإن هذه هي غلطتك أنت. ولم يكن عليك إلا أن تراقب أرانبك تلك بحرص كاف. لماذا ذهبتَ لتحكي هذه القصة لرجال الشرطة؟).

(كان هذا مجرّد افتراض).

(أنت لا تحاول مثلاً أن تسيء إلى سمعتي ولو بالصدفة؟).

(لم تتركني الشرطة أحكي. لم أتمكن من شرح وجهة نظري. لكن في الحقيقة هذا هو ما فكّرت فيه فعلاً في اللحظة التي شاهدت فيها الأرانب مقتولة. فكّرت في أنك أنت من فعل هذا. أنا لا أخفي عليك حقيقة أفكاري).

t.me/qurssan

(قل إنك تحلم بوضعي في السجن).

(أنا لا أقول هذا).

(إن هذا هو ما تحلم بفعله، لأن هذا هو ما تفكّر فيه. من الجائز أنه أنت نفسك من قتل الأرانب، حتى يكون لديك المبرّر لاتهامي. لكن ليست لديك فرصة لتفعل هذا وذلك لأني إنسان شريف. كما يقول الجميع فإن رجال الشرطة يعرفون خدماتي الجليلة للبلد. يعرفونني جيدًا جدًا لدرجة أنهم لم يصدّقوا للحظة واحدة أكاذيبك. ولا لحظة واحدة).

ابتعد جان كلود وهو ينطق ببعض الشتائم، ثم ببعض التهديدات.

كرّر بيدرو وهو يتظاهر بأنه لم يسمع شيئًا (سنرى، سنرى).

بعد يومين وأثناء عمل بيدرو في الجزء الخاص بالخضراوات في حديقته سمع صوت فرقعات فرفع رأسه. كان المصدر هو أوتيه وأصدقاؤه. كانوا يتمرّنون على إطلاق النار على مجموعة من عرائس الدببة الصغيرة المرصوصة فوق لوح من الخشب في نهاية الحديقة. عندما أدركوا أن بيدرو يراقبهم استداروا وكأنهم سيطلقون عليه هو وأصدروا من أفواههم أصوات المحاربين. ثم استداروا من جديد في اتجاه الدببة العرائس التي كان أغلبها قد فقد رءوسه. في فترة بعد ظهر نفس ذلك اليوم، كانت إيرما قد وضعت بعض البياضات المغسولة لتجف فوق حبل غسيل. في الأرياف عادة لا يوجد من بين السكان من هو على درجة الدناءة التي تسمح له بمهاجمة الغسيل. هذا يعتبر ضمن العرف العام الداعي إلى احترام مجهود ربّة البيت. وكذلك من ضمن مبادئ الصحة العامة عدم تلويث بياضات الآخرين. انتهز الجيران لحظة خلو الحديقة وأطلقوا على الغسيل المنشور، محتويات جردل به خلطة من البول والبراز. جمع بيدرو الغسيل دون أن ينطق بكلمة واحدة. أعاد وضعه في فراغ الغسّالة الكهربائية. كان قد اتخذ قراره، وقال لزوجته:

t.me/qurssan

(سنرحل من هنا. أشعر أنني أفقد أعصابي. أفضّل أن أرحل الآن قبل أن أصل إلى تخطّي حدود قوة احتمالي. يمكن أن تصبح ردود أفعالي عنيفة. وأنا لا أريد أن يحدث هذا).

سألته (ماذا سنفعل؟).

قال (لديّ فكرة).

كان قد ذهب مسبّقا ثلاث مرّات إلى مستودع الأسلحة ليستعرض عليه البائع الأنواع المختلفة من بنادق الصيد. ثم الآن عندما يذهب إلى الفراش ولا يستطيع أن ينام، يبدأ في أحلام يقظة تدور كلها حول كيف يمكنه أن يشعل النار في بيت جيرانه. لكنه كان يتراجع لأنه يعرف أنه من المؤكّد أن جاره سيحصل على مبلغ كبير كتعويض من شركة التأمين. وهو لا يريد لجيرانه أن يكسبوا بفضله أي شيء على الإطلاق. هو الذي لم تخطر بباله قطّ أيّة أفكار شريرة طوال حياته، يفكّر الآن في قتل جاره بهدوء بطلقة بندقية أو بضربة سكين تخترق صدره. الفكرة الأكثر جاذبية له هي أن يقتله بضربات متتالية على رأسه بمجرفة الحديقة. كانت تلك الأفكار في رأسه تخيفه هو نفسه، فيضيء المصباح إلى جوار الفراش، ويذهب ليشرب كوبًا من الماء البارد في المطبخ. ثم ينظر في المرآة ليتأكّد إن كان لا يزال يحتفظ بنفس الوجه الذي كان له سابقًا.

ثم يقول لنفسه ساخطًا (ستكون نهاية هذه القصة سيّئة).

قابلت جوزيت زوجة جان كلود جارتها إيرما في السوبر ماركت، وتظاهرت بأنها قلقة على صحّة بيدرو زوج إيرما.

(أتعرفين أنه يبدو لي أن التعبير الذي على وجه زوجك يدلّ على أنه رجل من السهل عليه أن يشنق نفسه. لقد قال لي زوجي منذ وقت قريب إنه قلق على جارنا. لا ينبغي أن تقع له حادثة مثل تلك. سنكون آسفَيْن عليه).

t.me/qurssan

كان تأثير المرأة قويًا على إيرما التي عادت من مشوار الشراء قلقة ومقتنعة بصحة ما قالته لها الجارة. فهو منذ أسبوع يتصرّف بأسلوب مغاير تمامًا لكل ما اعتاد عليه في حياته من روتين. كان قد أصبح كثير الغياب. ويخرج في المساء. ويأخذ القطار. ويكثر من الاتصال تلفونيًا. وتأتيه مكالمات عديدة. أصبحت تحيط به مجموعة من التصرفات غير المعتادة. قالت لنفسها إنه ربّما يكون على وشك الإصابة بالجنون. من هنا جاء خوفها. لكنها وجدته يجلس هادئًا يحلّ الكلمات المتقاطعة وإلى جواره كوب من القهوة.

قال ببساطة (يبدو شكلك غريبًا يا إيرما)، ثم أنهى كوب القهوة، وأعاد وضع المجلّة في الدرج أسفل المائدة.

قال (هل تعرفين ما هي آخر الأخبار؟).

قالت (سأعرفها منك الآن).

قال (عندما كنتِ في مشوار الشراء أشعلوا النار في عشش الأرانب. ليس هناك ما يدعو إلى القلق فقد أطفأت النار، إذ كان خرطوم الحديقة لسقاية الزرع كافيًا. لكن لم يتبقّ من العشش إلا الرماد).

خبر كريه الرائحة لا شك في ذلك. انهارت إيرما على أحد الكراسي وانخرطت في البكاء. لم تعد تستطيع الاستمرار في تحمّل هذا الوضع. مع أن جوزيت كانت هذا الصباح قد وجّهت إليها الحديث بطريقة وديّة. هي لا تبدو شرّيرة إلى الدرجة التي نعتقدها فيها.

قال بيدرو بقوة بدت في صوته (أنتِ ساذجة يا إيرما).

كان يفرك يديه. ثم أخبرها أنه قد استأجر شقة في المدينة. لها شرفة تطلّ على النهر.

قالت إيرما مُغْتَمّة (والحديقة يا بيدرو؟).

ردّ (على أي الأحوال أنا لم أعد قادرًا على الاستمرار هنا).

t.me/qurssan

(والمنزل بيدرو؟).

(وجدت مستأجرًا للمنزل. ليس هناك ما يدعو إلى الأسف. نحن لم نستفد من حياتنا هنا بما يكفي. قد نستطيع أن نبدأ الآن في الاستفادة من الحياة في أماكن أخرى. فنبدأ في الذهاب إلى المطاعم. وإلى دور السينما. وقد نسافر إلى الخارج. فكّرت كثيرًا في هذا كله. قد يكون هذا من حسن حظّنا أن أصبح الأوتييه جيرانًا لنا. فقد جعلوني أفهم أننا - أنا وأنتِ - قد مرّرنا إلى جوار أشياء طيبة لم نعرف كيف نستفيد منها. لقد حرمنا أنفسنا من أشياء كثيرة. رغم أننا اشتغلنا مثل الجاموس. نحن حتى لم نذهب إلى إقليم بريتاني القريب منا لزيارته).

تذمّرت إيرما (بريتاني بريتاني).

(كنتِ دائما تقولين لي إنك تودّين لو تمكنّا من زيارة بريتاني).

(صحيح أنني قلت هذا مرارًا وتكرارًا ولكن فقط لأتمكن هناك من مشاهدة البحر).

(سنذهب إلى بريتاني، ثم في موسم ازدهار أزهار التيوليب سنذهب إلى هولندا).

(أنت مجنون يا بيدرو).

(سنعيش يا إيرما أقولها لكِ. كنا في احتياج إلى هذا التغيير. كنا على وشك أن نتحجّر من كثرة انغلاقنا. وفي الربيع القادم سنذهب إلى إيطاليا. أعرف أنها ستعجبك. إيطاليا).

(أنا لا أعرف).

(سنذهب إلى إيطاليا. سنذهب إلى فينيسيا. هي ليست أي شيء فينيسيا).

(أنا لم أعد أعرفك يا بيدرو أنت تخيفني).

t.me/qurssan

هو كان جادًا تمامًا في كل ما قاله لها. فبعد أسبوع واحد كانا قد استقرّا في شقتهما الجديدة في وسط المدينة. في شقة حديثة أعجبت على الفور إيرما. وتغيّرت طباع بيدرو وبدا كأنه قد تخفّف من أحمال كانت تثقل كاهله. بدا كأنه قد تحرّر. هو الذي لم يكن يعرف الدعابة، بدأ يحكي القصص ويضحك، بل ويغني. أكثر من ذلك أنه قد ظهرت عليه أعراض الوقوع في حبّ إيرما من جديد. في بداية هذا التحوّل الظاهري التام لبيدرو كانت إيرما تنظر اليه بقدر من الشكّ. فبصفتها زوجة منتبهة إلى أحوال زوجها، كانت قد بدأت تشكّ في قواه العقلية، ولكن دون أن تعبّر عن هذا الشكّ. لم تفهم هذه المبالغات في التبذير. كانت تقدّر أن كل المعاناة التي تسبّب له فيها الأوتييه قد انعكست على أحوال المُخّيخ.

كانت غالبًا ما تسأله (هل تشعر بتوعّك؟).

فكان يردّ (أنا لم أشعر أبدًا طوال حياتي أنني في حال أفضل من تلك التي أنا عليها الآن).

هو لم يكن يكذب عليها. كان ينام مثل ملاك. كان يأكل بشهية كبيرة. كان يتمتّع بالنزهة على الأقدام، كان يستمتع بدراسة خطط الرحلات القادمة. بالخروج للسهر في المساء. هناك كذلك الكثير من المشروعات الافتراضية، التي كان يتحدّث عنها إلى إيرما كما لو أنه سيبدأ في تنفيذها بعد أسبوعين. كان مفتونًا بكل شيء. الزهور، الموسيقى، الهواء الذي يتنفّسه، النبيذ. وبين وقت وآخر كان يدعو صديقه علي بن علي إلى وجبة من لحم الأرانب. عاد إلى لقاء زملاء قدامى من المصنع. اشترى كرات لعبة البيتانك [petanque] التقليدية التي تمارس في ميادين المدن الصغيرة. لم يكن يجيد لعبها ولكن لأنه كان لطيف المعشر فقد استقبلته فرق اللعبة من الهواة بترحاب.

في نهاية كل شهر، كان بيدرو يذهب إلى منزله ليقبض ثمن الإيجار من المستأجر. كان هذا هو يوم مجده. كان سعيدًا لأنه أحسن اختيار المستأجر،

t.me/qurssan

ولأن قيمة الإيجار مجزية. كان المستأجر إنسانًا أمينًا وعاملاً مجدًا مثله تمامًا. كان بيدرو قد وجد صعوبة في العثور عليه. فالمستأجر المثالي لا تجده بسهولة. أثناء مروره أمام منزل الأوتييه كان يجد نوافذه دائمًا مغلقة. أما مستأجره فكان يستقبله كما يُستقبَل الأمراء. كان يقدّم له كرسيًا وزجاجة نبيذ. كانت أسرة المستأجر تعمل في نقل الأثاث. كانوا كلهم من قبيلة إفريقية سوداء، ويتميّزون بضخامة الجسم وبطول القامة. كان عددهم كبيرًا فهم ثمانية عشر شخصًا بمن فيهم النساء والأطفال. لكن منزل بيدرو كان كبيرًا. كان المستأجر معتادًا أيام الجمعة والسبت والأحد على استقبال الأصدقاء. وكانوا تقريبًا جميعهم يعزفون على آلات موسيقية. هكذا كانت آلات الإيقاع تدقّ دقًا متصلا حتى الساعات الأولى من الفجر. حاول الأوتييه أن يردّوا عليهم برفع صوت سمّاعات الأجهزة الموسيقية الكهربائية. لكن الكهرباء لا تستطيع أن تنافس آلات بدائية منذ آلاف السنين. كانت عينا بيدرو تدمعان عندما تهتز طبقة الاردواز التي تغطي سقف المنزل مع إيقاعاتهم. ذلك بالإضافة إلى رقصهم وغنائهم. أحب بيدرو طريقتهم هذه في الاستمتاع بالحياة. كان يلقّبهم بأصدقائي الذين خلّصوني.

كان يقول لهم: (كلما كان الصوت أعلى كان غناؤكم أجمل) ثم يسألهم (هل جاء الجيران يشتكون؟).

لم يجرؤ الجيران على الشكوى. حاولوا مرة في أحد أيام الأحد أن يطلقوا النيران على مستحمّين سود في الحديقة. ثم حاولوا مرة أخرى وضع البراز في صندوق البريد. لكن الجيران السود أعادوا إليهم البراز. ذات مرة علم بيدرو من عاملة في السوبر ماركت كانت منتمية إلى أحزاب اليمين، أن الأوتييه بدءوا يشتكون من جيرانهم الجدد.

قال جان كلود (حتى لو أردنا ترك المكان فإننا سنكون مضطرين إلى بيع المنزل بثمن بخس. فمن يريد أن يشتري منزلا جيرانه من الزنوج، الذين

t.me/qurssan

ليسوا من الزنوج الطيبين ولكن من أشقيائهم. تماسيح حقيقية. لا نستطيع أن نتحدّث إليهم بكلمة واحدة. فهم لهم قوانينهم. يتصايحون في الحديقة حتى الساعة الرابعة صباحًا. هم لا يستريحون أبدًا. هم يعتقدون أنهم يعيشون في قارتهم إفريقيا).

الأدهى هو أن جوزيت كانت قد أقامت علاقة جنسية سريعة مع أحد هؤلاء السود نتّالي الأثاث. كانت قد لمحته ذات ليلة في الحديقة وأعجبها. كانت مخمورة ومشغولة بأعضائها التناسلية المحترقة بالرغبة. ثم اختفت من البيت. عندما أدرك جان كلود ما حدث قال:

(يجب أن تكون امرأة هي التي تسقط إلى هذه الهوّة البشعة).

كان أصدقاؤه مستمرين في المجيء لاحتساء أقداح فواتح الشهية، لكن لم تعد اللذة أصلية كما كانت سابقا. فخمر العرق لا تصلح معها الإيقاعات الإفريقية. اعتقد جان كلود أنه قد يستطيع أن يستمر في دعوة الأصدقاء إلى مثل هذه اللقاءات حول الخمور والطعام، لو أنه بدلا من الذهاب إلى الحديقة، اكتفى بالبقاء داخل المنزل خلف الجدران والنوافذ المغلقة. لكن تمكنت الإيقاعات من اختراق الجدران، بل من جعل الهواء نفسه يهتز بالذبذبات. بعد مرور بضعة أشهر على تأجير منزله للأفارقة، طرق بيدرو باب منزل جيرانه الأوتييه. جاء جان كلود يفتح الباب وهو يجرّ حذاء قدميه الخفيف جرًا على بلاط الأرضية. لم يكن يبدو على ما يرام.

قال بيدرو: (أنا سعيد برؤيتك يا جان كلود. كنت أمرّ بالناحية وقلت في نفسي لأذهب وأتمنى صباحًا طيبًا لجيراني الأعزاء. هل أنت بخير؟).

(كيف يمكنني أن أكون بخير؟).

(علمت بما فعلت زوجتك).

(لاتقل كلمة واحدة في هذا الموضوع).

(إنها لحظة جنون لا أكثر يا جان كلود. ومن المؤكد أنها يومًا ما ستعود إليك. ففي سن معيّنة تصبح النساء مجنونات بأجسادهنّ. لكن هذا الجنون عادة لا يذهب بهنّ بعيدًا).

t.me/qurssan

(إذا أعادت وضع قدميها هنا فسأقتلها كما تقتل الكلبة).

(هذا ليس عدلاً يا جان كلود. أنا أعرف جيدًا كم أنت نبيه وما فعلته زوجتك لم تفعله بدافع من الخبث أو الدناءة).

(أن أمرّ بنفس المكان الذي مرّ به زنجي. مستحيل أبدًا أن يحدث هذا. هذه المرأة قد انتهت بالنسبة لي).

(إذا عادت يجب أن تقبلها جان كلود. أنت تحبّها هذا شيء واضح تمامًا. وهي أيضا تحبّك بنفس القدر).

(عاهرة).

(هذا ليس حقًا ما تفكّر فيه).

(أنا لا أفكر إلا في هذا).

كانت نظرة جان كلود غارقة في الناحية الأخرى من الشارع حيث توجد أرض فضاء مهجورة ليس بها إلا بعض الأعشاب. ثم بصوت ضعيف اعترف لبيدرو أنه منذ ثلاثة أشهر لم يعد يستطيع النوم.

(آمل ألا يكون مستأجرو منزلي هم السبب في عدم نومك. إذا كانت هذه هي الحقيقة لا تتردّد في أن تقولها لي. في هذه الحالة سأتكفّل بتوبيخهم).

(ماذا ستفعل؟).

(سأوبخّهم يا جان كلود، سأوبّخهم).

(إنهم قوم متوحّشون. إنهم لا يفهمون ما هو التحضّر).

وعد بيدرو بالعودة إلى زيارة جان كلود في الشهر التالي. ذلك أنه يشعر بالحنين للأيام الخوالي. في الشهر التالي لم يتمكن بيدرو من الوفاء بوعده. ذلك أن جان كلود غادر المقاطعة. والبيت كان معروضًا للبيع بثمن

t.me/qurssan

رخيص. قرّر بيدرو أن يشتريه. إيرما لامت زوجها على اتّخاذ قرار هام بهذه السرعة مما قد يعرّض كل مدّخرات حياتهم للخطر. لكنه تركته يتصرّف على هواه لأن ذلك كان يسعده وهي لا تبحث إلا عن سعادته. تم تأجير المنزل الجديد إلى أصدقاء لمستأجري المنزل القديم وفي مثل ضخامتهم. في كل شهر كان يذهب لقبض إيجاريّ المنزلين فكانوا يحتفلون به بمأدبة ضخمة في الهواء الطلق، وبالموسيقى وإيقاعات الطَمْطَم، وبالمداعبات. وهو ما يثبت أن المجتمع البشري هو في الحقيقة من عجائب الطبيعة.

قال لها ذات مساء (ها أنت ترين يا إيرما. أعتقد أنني رجل مخيف مرعب).

لم تفهم إيرما ما الذي كان يريد قوله، لكنها وافقته عليه. كانت قبل بضعة أيام قد قابلت جوزيت بالصدفة. كانت إيرما قد اندهشت من رؤية جوزيت وقد ارتدت ملابسها على الطريقة الإفريقية بالكثير من الألوان الزاهية.

قالت لها: (إن هذا قد غيّر شكلك).

ضحكت جوزيت (يمكنك أن تقولي هذا).

كانت جوزيت قد بدت مزدهرة. فهي من نوع النساء اللائي يتفقن دائمًا في الرأي مع الرجال الذين يحبّوهنّ.

t.me/qurssan

ـ ١٦ ـ

وجه القاتل

كان الأطفال يطلبون منه دائمًا نفس الشيء. يقولون له:

(أيّها العم اصنع لنا من وجهك وجه القاتل).

فكان يصنع لهم وجه القاتل. كانت هذه موهبة طبيعية فيه اكتشفها بالصدفة أثناء اشتراكه في تصوير فيلم روسي في فترة ما قبل الحرب. في الأوقات العادية لم يكن لشكله الجسماني تعبيرات واضحة. كان يشبه قليلاً مفتّش تذاكر في السكّة الحديد. لكن دون القبّعة. كانت عيناه الحمراء ترتجف قليلاً. كانت طريقته في الابتسام تشبه طريقة ابتسام راهبة من راهبات الكرمل عند وصولها إلى قمّة النشوة. كل ما فيه كان يدلّ على البساطة السمحة واللطف. عدا ذلك كان موظّفا في مصلحة المساحة وتسجيل الأراضي. هو وسط ذو بعدين اثنين فقط لا غير طولاً وعرضًا لكن دون عُمْق. هو مسطّح مثل صورة رسم المخ التي يمكن أن تكون لقلم رصاص. هو لم تضايقه أبدًا مظاهر العنف. تتكون وظيفته بشكل أساسي من ملء بيانات الإيصالات وقسائم المخالصات باليد، مع ملاحظة دقّة استعمال الفواصل. كان أولاد وبنات أخوته بالإضافة إلى

t.me/qurssan

أصدقائهم الصغار يحبّون كثيرًا أن يصنع لهم وجه القاتل. فكان (ينكش) شعر رأسه على الفور بخبطة واحدة من اليد، ويجحظ عينيه، ويشوّه وضع فمه بطريقة ما. ثم يقلّص عضلات الوجه، ويُدخِل رأسه فيما بين كتفيه، ويتخّذ وضع الحيوان المفترس الذي يستعدّ للقفز على فريسته. فيخاف الأطفال منه ويجرون للاختباء خلف الكراسي أو في تجاويف دواليب الحوائط.

فيصيح الآباء والأمهات لكن في الحقيقة دون أن يغضبوا (توقّف يا جيف، فهم ستأتيهم كوابيس طول الليل).

فيستعيد وجهه الأصلي، الوجه الذي له كعامل وكموظّف شريف وأمين، وينفجر المنزل كله في الضحك، مع قدر من الإحساس بالاطمئنان والأمان. في الحقيقة إن ملامح تعبيرات وجهه المتقلّص كانت فعلاً مرعبة. عند رؤيتها لم يكن هناك أدنى شك في أنه يشهد جريمة أثناء وقوعها. يمكننا أن نجد في صورة وجهه المرتعب النموذج الذي نجحت السينما في نشره عبر مئات الأفلام. كما فعل المهرّجون العظماء نفس الشيء. لدى كل الناس إذن صورة جاهزة سابقة الإعداد للوجه الذي يمكن أن يكون للقاتل. تم شحن هذه الصورة في ذاكرتهم الجمعية في وقت مبكّر جدًا. عبر القصص المخصّصة للأطفال. رُعب مشع من قصص الغيلان الذين يلتهمون الفتيات الصغيرات، ومن قصص الساحرات اللائي يُمتّنَ الأميرات.

وبسبب إجادته استعادة ملامح وجه القاتل بكل تفاصيلها بالمليمتر، كان (جيف) يحصل دائمًا على نجاح كبير في الوجبات العائلية، أو في المآدب التي تقيمها الجمعيّات التي كان عضوًا فيها. كان بعض المدعوّين يغنّون أغنيات من زمن قديم جميل، والبعض الآخر يلقون نكات محليّة، أما هو فكل ما كان عليه أن يفعله هو (وجه القاتل). كانت موهبة اجتماعية مثل غيرها. لكن هذا لم يمنحه أي اسم شهرة، لا لاندرو، ولا بيتيو، ولا راسبوتين، فكل شخص من الحضور يمكنه في هذه الحالة أن يستدعي

t.me/qurssan

حسب هواه وجه القاتل الذي يفضّله على وجوه من عداه من القتلة المشهورين. كان اسمه (جيف) وهو يجيد تقليد (وجه القاتل) ولا شيء آخر عدا ذلك. لم تكن هناك أفكار سيّئة خلف هذه المسألة. مع ذلك فإن (جيف) بدأ يشعر أن لديه نوعًا من أنواع السلطة على البشر. إذ يمكنه أن يثير رعبًا حقيقيًا لدى البشر.

في أحد الأيام عندما كان موظف البنك المختصّ بمعالجة أوضاعه المالية، يعرض عليه أحد القروض الجديدة بشروط ميسّرة، لكنه يتشكّك في أحقيّة (جيف) في الاستفادة بها، استند (جيف) بذراعيه المفرودين على امتدادهما، بيدين موضوعتين على المكتب الذي يفصل بين جيف والموظّف، كما لو كان يفكّر مليًا في العرض، وفجأة نظر إلى موظّف البنك بتعبير (وجه القاتل)، فوضع الموظّف يده على قلبه. ورغم أن حركة موظّفي البنوك عادة ما تكون محسوبة بآليّة ميكانيكية محدّدة، فإن هذا الموظف كاد أن يفقد وعيه. وهكذا نجح جيف بسهولة في الحصول على القرض المطلوب، وخرج من البنك منتصرًا بعد أقل من خمس دقائق. لم يعرف لماذا فعل هذا. جاءته الفكرة فجأة رغمًا عنه. ربّما لأنه لم يجد ما يجادل به الموظّف فيما يتعلّق بموضوع الأحقّية. ربّما لأنه شعر أن الموظّف لم تكن نيّته حسنة. لم يتمكن جيف من السيطرة على ملامح وجهه. لكن في الحقيقة لم تكن المسألة تمامًا بهذا الشكل.

شعر جيف بالأسف على ما فعل. ذلك أنه لم يكن يحبّ أن يخيف الآخرين. كان في الحقيقة شخصًا لطيفًا مهذّبًا كأحد الشعراء. شاعر من ذلك النوع من الشعراء الذين يستعملون في قوافيهم دائمًا الكثير من معاني الحب (توجور) آمور، ويربطون بين الربيع والعصافير السنونو، وبين الشتاء والفرو الأبيض للفصيلة السمّورية. شاعر لا يرى في أشياء الدنيا - بمجرّد أن يفتح عينيه - إلا الجمال. لكن هكذا صنع الله الإنسان. فبمجرّد أن يدرك هذا الإنسان أنه أمام ظاهرة جديدة، إلا ويرغب باستمرار في تكرارها للتأكّد من إمكانية إعادة استعمالها. لم تكن نيّته تتجّه إلى أي

t.me/qurssan

شيء عدا الغرض العلمي من اختبار مدى صحّة الظاهرة. لم يكن يقصد في البداية إلا الحصول على معلومات موضوعية أخلاقية. ففي خلال بضعة أسابيع قام (جيف) بإجراء مجموعة من الاختبارات المحدّدة الخطط والأهداف، التي أثبتت كلها أن بإمكانه أن يفرض إرادته على أشخاص يبدون أكثر قوة منه. فبنظرة واحدة أصبح يمكنه أن يحصل على خصومات على الأسعار في المحلات التجارية. وأصبح من السهل أن يترك له الناس أماكن متقدّمة في طوابير الانتظار. بل أصبح من الممكن له أن يقطع أي محادثة تكون قد اتجهت إلى غير صالحه، سواء أكان هذا للحصول على مكان في موقف سيارات، أو للحصول على أوراق رسمية حكومية.

ومع ذلك فهو لم يحاول إساءة استغلال (وجه القاتل). فهو لا يستعملها إلا في حالة الرغبة في اختبار قوتها في الظروف الحياتية المختلفة. فهو مثلا لم يخطر على باله أن يحاول استعمالها في ابتزاز رئيسه في العمل للحصول على ترقية. ثم إذا به يتنازل حتى عن أشياء بسيطة مثل الحصول على مكان متقدّم في طوابير الانتظار. قدّر أن هذا التصرّف لا يتصّف بالأمانة. هو كان مواطنًا يحترم القوانين. كان مقتنعًا اقتناعًا عميقًا بفضائل الديمقراطية، وبضرورة الالتزام بالدور وفقًا للمفهوم الشعبي ولقيم ومبادئ الجمهورية الفرنسية، وضرورة احتمال طول فترات الانتظار دون إبداء أيّة علامات على نفاذ الصبر.

كان هذا هو الوقت الذي قابل فيه (دافْنه)، التي كانت مساعدة عناية بالعجزة في ملجأ متخصّص. كانت سيّدة شابة شقراء على درجة من التحفّظ والجمال. كان نزلاء المكان قد علموها لعبة الدومينو وألعاب ورق الكوتشينة. كانت قد عاشت ثلاث سنوات مع سائق عربات نقل البضائع. تركته باتفاق مشترك بينهما عندما علمت أنه قد أنجب طفلاً من صاحبة المخبز. همست في أذنه (هذه الأشياء تحدث). فوقع (جيف) على الفور في هواها. لم تكن هذه هي المرّة الأولى التي يحبّ فيها. لكن دون أن يكون كازانوفا، أو أن يكون عاشقًا متعدّد العشيقات، كان موظّف المساحة ومسح الأراضي، يكرّس وقتًا كبيرًا من أوقات فراغه، للكلام المصطنع واللطف

t.me/qurssan

المتكلّف، حول ماكينات صنع القهوة، الموجودة في حجرة التصوير الضوئي (الفوتوكوبي) للمستندات، أو في المكاتب التي هجرها موظّفوها الكبار مبكّرا في نهاية فترة ما بعد الظهر، للذهاب إلى وسط المدينة لمقابلة موّظّفين آخرين أكبر منهم في السلّم الوظيفي، بخصوص مسائل وظيفية غاية في الأهميّة.

فهو دون إنكار ضرورة تلبية رغبات الجسد، كان يفضّل تلبية رغبات العواطف. كان يحبّ أن يخفّف ألم النساء التعيسات. من هذه الناحية كانت لديه سطوة على النساء من زميلاته في العمل، بصرف النظر عن كونهنّ متزوّجات أو عزباوات. كان يعرف كيف ينصت إليهنّ. وكنوع من العرفان بالجميل تجاهه، ومن الرغبة في شكره على ما يقدّمه لهنّ من اهتمام، وما يجلبه لهنّ من راحة نفسية، وفي إطار من التعاضد بين الزملاء في مجلات الوظيفة العامة، كنّ يُقْدِمْنَ على أن يهبن أنفسهنّ إليه، إمّا في دورة المياه أو في حجرة الأرشيف. في الواقع لم تكن تلك العلاقات تتعلّق بموضوع حب كبير. لكن بعض هذه العلاقات استمرّ لفترة. في الحقيقة لقد ساهمت هذه العلاقات بشكل ملحوظ في تحسين ظروف العمل. وهو يحتفظ لهنّ بذكريات محبّبة.

أمّا مع (دافنه) فلم تكن تلك الأشياء قد حدثت بنفس هذه الطريقة. فأولاً هي لا تعمل في مصلحة المساحة وقياس وتسجيل الأراضي. ثانيًا هي لم تكن تعيسة وفي احتياج إلى من يخفّف عنها آلام تعاستها. ثالثًا كانت هي التي قد وقعت في هواه. ليس كما تقع موظّفة في هوى زميلها أثناء ساعات عملهما معًا. لكن حقّا كما ينبغي لامرأة أن تقع في هوى رجل. كانت تحبّه أربعا وعشرين ساعة في اليوم، حتى في أيام الآحاد والإجازات الرسمية. كانت تتصل به تلفونيًا من ملجأ العجزة عندما تكون في فريق العمل المسائي. كان ذلك مصدر سعادة له أن يستيقظ من النوم على هذا الصوت العاشق. كانت ترسل إليه بطاقات بريدية من مرّتين إلى ثلاث مرات في الأسبوع لأسباب واهية، كأن تؤكّد له على حبّها، وعلى أنها

t.me/qurssan

لن تحبّ أيّ شخصٍ آخر عداه. ومن أجل تدعيم تلك البطاقات البريدية كانت تستنسخ كلمات أغنيّات الغرام، وبعض الأشعار الغبيّة الساذجة التي تعيد تكييفها لتناسب الظرف. كانت مظاهر الجنون تلك تسعده.

من جانبه حاول هو أن يكون على مستوى الموقف. كأن يرسل إليها في منزلها باقات الزهور. كأن يدعوها إلى المطاعم المرتفعة الثمن. أو أن يقدّم لها هدايا من الأساور أو من أغطية الرأس النسائية التي يمكن أيضًا ربطها حول الرقبة إيشارب. كل يومين أو ثلاثة أيام كانا يلتقيان إمّا عنده أو عندها. هناك، وبعد عشاء على أضواء الشموع، كانت الليالي تنقضي في مغامرات رائعة، تندمج فيها تأوّهاتهما معًا، تحت الضوء الخافت لمصباح صغير إلى جوار السرير. في تلك الأحوال لم يكونا أبدًا يرغبان في النوم. ثم عندما يصبح من المستحيل عليهما استئناف ممارسات الغرام، كانا يجدان لدى كل منهما الطاقة الكافية لاستئناف الحوار حتى فجر اليوم التالي. عندها يكتشفان الكمّ الهائل للنقاط المشتركة بينهما، لدرجة أنهما كانا يندهشان أنهما شخصان لا شخص واحد. قدّمها (جيف) إلى أسرته. ثم إلى أصدقائه وجيرانه وزملائه. فعلت هي نفس الشيء بالنسبة للناس في محيطها. لم يترك بعد ذلك أحدهما الآخر. ثم تزوّجا بعد مرور عام على تعارفهما وهما واثقان أن هذه السنة الفائتة ليست إلا أقل من واحد في الألف من السعادة التي تنتظرهما.

ثم حدث أن أفضت إليه (دافنه) بأحد أسرارها، ألا وهو أنها تحبّ من وقت لآخر أن تُضْرب على مؤخّرتها. شرحت له أنها تصل بشكل أسرع إلى قمة اللذة الجنسية في هزّة الجماع عندما يكون ردفاها ساخنين ملتهبين. أسرّت اليه أن عشيقها السابق - سائق عربات النقل - اعتاد على ضربها بعصا على لحم الفخذ، لدرجة أنه لو كانت هناك عظام في هذا الموضع من الجسم لتكسّرت. عندما بدأ جيف في ضربها في هذا الموضع كانت دافنه تطلب منه دائمًا أن يضربها بشكل أكثر قوة وقسوة. لكن اليدين اللتين يمتلكهما موظّف حكومي ليستا مثل اليدين اللتين يمتلكهما سائق

t.me/qurssan

عربات نقل. أثناء عمليات الضرب الشديد انكسرت قبضة يد جيف. كانت نتيجة سيّئة لفعل مقصود به الخير. الا أن زوجته زاد حبها له بعد هذه الحادثة. من قبل تلك الحادثة قيل إن حبها له كان قد بلغ فعلا القمّة التي لا قمّة بعدها، إلا أن حبها له رغم ذلك زاد عمّا كان عليه قبل الحادثة.

ذلك لأن المرأة العاشقة لديها الإمكانيات التي تسمح لها بدفع الحدود إلى ما يتعدّى المطلق. رغم أن المطلق في الأساس لا حدود له. ليس له حدود مثلما هناك حدود لعملية اعتيادية من عمليات قياس مساحة قطعة أرض. اضطر (جيف) إلى الاعتراف بأن فكرة المطلق تمّ تجاوزها. فكرة المطلق هي خطأ في طريقة الحكم على الأشياء. فإن (دافنه) تحبّه كل يوم أكثر من اليوم الذي قبله. هذا التصاعد التدريجي كان نحو حالة ليست لها تسمية. حتى وإن كانت لها تسمية فإنها قادرة على تحويل اللامتناهي إلى شيء وضيع. هي حالة تلقي باللانهاية وبالوضاعة معا، إلى هياج يمتزج فيه الما وراء الطبيعة باللذة الجنسية، حيث يصبح الخلود بمقدار جزء من الثانية الواحدة. هو لم يشعر أبدًا بمثل تلك اللذة التي شعر بها مع هذه المرأة. ذات ليلة أثناء التصاقهما في وضع التزاوج، وهي تئن من اللذّة، همست في أذنه بصوت مقطوع الأنفاس.

(جيف، جيف، اصنع لي وجه القاتل).

وكما يحدث مع كل الرجال الذين يعيشون في وهم أن زوجاتهم يُحْبِبْنهم لذواتهم، في لحظة واحدة جاءه الشك العظيم الذي ضربه بلا هوادة في منتصف قلبه، في أنه لم يكن محبوبًا لذاته، بل إن سبب حبها له هو ذلك المخلوق الآخر البشع الذي يستطيع أن يتكّر في ملامحه.

قال محاولاً المقاومة (ليس الآن).

(بلى الآن يا جيف، اصنع لي وجه القاتل).

قال مجدّدا (ليست هذه هي اللحظة المناسبة).

t.me/qurssan

نظر إليها فوجد عينيها مفتوحتين عن آخرهما، وجبهتَها مبتلّةً بالعرق، والفمَ فاغرًا.

(إذا صنعت لي وجه القاتل فأنا متأكّدة من أن لذّتي ستأتيني على الفور. أرجوك ألا تضيّع عليّ لذّتي).

لم يكن يستطيع أن يرفض لها طلبًا. لهذا لم يرفض هذه المرّة أن يصنع لها وجه القاتل. كان هذا في الحقيقة مثل وضع إصبع اليد داخل تروس ماكينة. صنع وجه القاتل جعلها تشعر بالسعادة بجنون. كانت تصرخ وهي تقفز نحو سقف الحجرة، كما لو كانا هي وجيف فوق بساط طائر من ألف ليلة وليلة. ارتطمت رأساهما بمصابيح السقف. انتزعت أسنانهما الستائر من مواضعها. لاحق كل منهما الآخر كما لو كانا قد اخترقا الحائط. كانت دافنه ترتعش كما لو كانت محرّك طائرة. كانت ترتعش من الرعب ولكن كذلك من فكرة أنها تملك السيطرة الكاملة على إنسان يمكنه أن يكون مرعبًا إلى هذا الحدّ. في الأيام العادية، عندما مثلا يتناولان وجباتهما معًا في المطبخ، لم يكونا يشيران أبدًا إلى غرائبهما الليلية التي تزيد من ترابطهما. تلك الغرائب التي تدور في أجواء من ادّعاء التلاعن والكُفْر بالآلهة وتمثيل إهانة الجسد. كل ذلك في سبيل الوصول إلى هزّة الجماع مهما كان السبيل إلى ذلك عنيفًا. وجيف لم يكن يكره هذا. في البداية ربّما كان قد شعر قليلاً بالضيق. أحيانًا حتى كان قد شعر بالعار. لكن كفاءة الوسيلة في الوصول إلى المبتغى أقنعته بقبولها.

على أيّة حال إن المهمّة الأولى التي تقع على عاتق كل الرجال، هي استعمال كل الوسائل الممكنة، لمحاولة إسعاد النساء اللائي أعْطَيْنَ لهؤلاء الرجال امتياز قضاء حياتهم إلى جوارهنّ. صباح أحد أيام الآحاد، بينما كان جيف يضع الزبد على شرائح الخبز المقرمش لإعداد وجبة الإفطار لزوجته. وكانا مدعوّين ظهرا لتناول الغذاء مع أفراد من العائلة في أحد الاحتفالات العائلية. كانت دافنه جالسة أمامه إلى الناحية الأخرى من

t.me/qurssan

مائدة المطبخ، وهي تجفّف شعر رأسها بمنشفة تحيط برأسها. إذ ربطت المنشفة حول رأسها، ووضعت يديها مفرودتين على مفرش المائدة وقالت

(يجب أن أتحدّث إليك يا جيف).

كانت تبدو عليها الجدّيّة. اعتقد جيف أنها ستعلن عليه نبأ أنها حامل.

تمتم برقّة وهو يقدّم اليها الخبز المغطّى بطبقة من الزبد (أنا أنصت إليكِ).

(أنا متأكدة من أنه عند تقديم الحلوى في نهاية الوجبة العائلية، سيطلب منك بعض أفراد عائلتك أن تصنع لهم وجه القاتل).

(هذا أمر مؤكّد، فهي كلمة من السهل عليهم أن ينطقوا بها في كل مرة، حتى أصبحت مثل التقاليد في عائلتنا).

(أنا لا أريدك أن تصنع لهم وجه القاتل).

(لماذا؟).

(هذا شيء لم يعد يخصّ أحدًا سوانا أنا وأنت فقط لا غير. فإذا صنعت وجه القاتل لأشخاص آخرين سيبدو ذلك لي كما لو كان خيانة زوجية).

(كيف يمكنك أن تفكّري في شيء كهذا؟ هم أفراد من عائلتي. أنا لن أخونك مع أفراد من عائلتي يا دافنه).

لم يرد أن يرفع صوته. احتفظ بهدوئه. حاول أن يجد حوارًا معقولاً يمكنه أن يجادلها به، عند مفترق الطرق بين اللطف والفكاهة. لكنه حاول أن يتجنّب السخرية لأنه يعرف مسبّقا أن هذا الموضوع يثير حساسية خاصة لديها. كانت ردود أفعالها أحيانًا مبالغًا فيها. لم تكن تغضب. لم تكن تلجأ حتى إلى نوبات من الاستياء العنيد. كانت تكتفي بكتمان ألمها بنوع من الزهو. هي عندما تكون غاضبة، تضحك بصوت مرتفع، وتتكلم بسرعة غير معتادة، وتتحمّس دون جدوى. خلف كل هذه المظاهر كان جيف

t.me/qurssan

يعرف أن الذي يحرّكها هو الحزن المكتوم داخل صدرها. دفعت بفنجان القهوة بعيدًا عنها، ووضعت على وجهها ابتسامة حاولت ألا يظهر فيها حزنها. استنتج جيف أن الموضوع يمكنه بسهولة أن يتعقّد وتزداد خطورته.

(إذا كنت ستصنع لهم وجه القاتل فأنا لا أريد أن أكون هناك في تلك اللحظة لذلك سأبقى في المنزل).

(لا تبالغي يا دافنه).

(وجه القاتل هو لي وحدي. لقد أعطيتني إيّاه. نحن زوج وزوجة، وقد وعدتني بأنه لي).

(وعدتك بماذا؟).

(وعدتني بأن تبقي وجه القاتل لي أنا وحدي).

(لم أقل لك أبدًا شيئًا بهذا المعنى الساذج).

(إذا كنت قد وافقت على أن تصنع لي وجه القاتل في كل مرة كنا نمارس فيها الحب، فهذا يعني لي أن هذا الوجه أصبح عنصرًا هامًا من عناصر علاقتنا الزوجية الحميمة، وأنت لاتقبل أن نعرض حياتنا الخاصة على الأرصفة. فإذا فعلت هذا فأنت تهاجم مصدر لذّتي، بل تهاجم أحاسيسي وعواطفي).

(إن غرامنا من القوة بحيث لا يسقط صريعًا أمام عرض وجه القاتل أثناء وجبة عائلية لبعض أفراد عائلتي إذا طلبوه مني. إنّه لا يصحّ منك خلط الأشياء بهذه الطريقة. راجعي نفسك يا دافنه).

لم تكن منشفة المائدة كافية لملاحقة وتجفيف غزارة دموعها. كانت تبكي بإخلاص وبكل ما فيها من قوة. كانت تبكي بغزارة حتى أن دموعها سقطت فوق كل ما حولها، وعلى مفرش المائدة، وعلى شرائح الخبز، وفي كوب القهوة، وفوق ردائها. حاول جيف أن يراضيها بكل الحيل المتاحة، بتعبيرات الوجه، بمناديل أخرجها من أحد الأدراج، بنطق كلمات مريحة

t.me/qurssan

مهدّئة. مع ذلك كان ينتقدها بهدوء وبعاطفية على وضع نفسها في مثل هذه الحالة المزرية بسبب أشياء تافهة. كانت حالة طارئة لكنها كذلك مُفْزِعَة. كان جيف يضرب صدغه باصبع السبابة. ثم ضربه بيده المبسوطة كلها. مستحلفًا زوجته بالعودة إلى الهدوء. قال كلمات رشيقة تردّد صداها في المكان كأنها قصيدة شعر. وعدها بوعود، وتمنى لها أشياء مثل أن يعود كل شيء من جديد إلى حالته الأولى. ركع أمامها على ركبتيه، واضعًا جبهته على فخذيها.

(اغفري لي يا حبيبتي. كم كنت غير منتبه. كم كنت مجنونًا).

عبر قماش ما ترتديه شعرت جبهته بجسمها يرتعش. رفع رأسه وصنع لها وجه القاتل. وحتى تنجح حركته المفاجئة في تأثيرها المرغوب فيه بالغ كثيرًا في الأداء. زاد من قسوة ملامحه حتى أصبح أقرب إلى الوحشية والبربرية. وجه أسوأ القتلة. انفتح وحده رداء الخروج من الحمّام الذي كانت دافنه ترتديه. كما لو أن معجزة ما جعلت الرداء يستجيب وحده لرغبات الجسد دون أن تمدّ هي يديها إليه. كان جسداهما يستعدّان للاستجابة للرغبة بقدر من العنف المشبّع برائحة القهوة الفوّاحة والخبز الطازج. في نهاية وجبة الغذاء العائلية، حاول أفراد من العائلة برجاءات حارة جَعْل جيف يصنع لهم وجه القاتل، إلا أنه لم يرضخ حتى لأي من طلبات أبناء وبنات الأخوة والأخوات الذين اعتادوا على هذه التسلية. أحبّته دافنه أكثر وأكثر. وفي الليالي التالية لم تتردّد في أن تثبت له عرفانها بالجميل.

كانت تهمس في إذنه (أنت قاتلي. أنت قاتلي أنا وحدي. قاتل لياليّ. قاتل قلبي. قاتل روحي. أنت تثيرني وأنا أحبّك. قاتلي حبيبي).

وبعد مثل هذه الأنشودة الطويلة التي تتردّد فيها كلمة (قاتلي)، وهي الكلمة التي لا تحمل فقط المعاني البريئة الساذجة كما قد يعتقد البعض، كانت تترجّاه بطريقة حارة كما لو كانت في صلاة مؤلمة كما قد يقولون في الروايات.

t.me/qurssan

(خذني. خذني. وافعل بي كل ما تريد).

كان يأخذها بأشكال الأخذ المعروفة كلها، الكلاسيكية المتعارف عليها منذ أزمان بعيدة، وكذلك المبتكرة منذ سنوات قليلة، مع تنويعات على اللحن الأساسي كانت من ابتكاره هو لكن دون أيّ وقاحة أو ابتذال.

كانت توجّه إليه تعليماتها (خذني بيديك. خذني بيديك حول عنقي واضغط. اضغط بقوّة أكثر وأكثر فهذا هو دليل المحبّة اللانهائية).

كان جيف قد بدأ الضغط اللطيف الحنون بيديه حول رقبة دافنه، وهو لا يزال محتفظًا بوجه القاتل.

إلا أن إصرارها (اضغط. اضغط أكثر أكاد أن أصل إلى قمّة اللذّة).

جعله يحكم قبضتيه حول عنقها حتى أن عينيها كانتا قد جحظتا من محجريهما، وبدا كأنها على وشك الاختناق حتى أن لسانها كان قد خرج من الفم. ففك جيف قبضتيه عنها.

(قلت لك استمرّ أكثر فأكثر. إذا كنت تحبّني حقًا فاستمر في الضغط ولا تفكّ قبضتيك أبدًا).

عاود من جديد غلق قبضتيه حول عنقها. العنق الذي يحبّه. كما لو أنه أراد أن يحطّمه. اعتلى زوجته. ثم شعر أسفله أن هذا الوضع قد نتجت عنه سلسلة من الاهتزازات العنيفة لمنطقة الحوض عند زوجته. اهتزازات كانت على قدر كبير من العنف لدرجة أنه كاد ألاّ يتمكن من الاحتفاظ بجسمه فوقها. تابع بعينيه المذهولتين حجم اللذة التي شعرت بها زوجته. كان سعيدًا بهذا الإنجاز كما لو كان فنّانًا مخلصًا لعمله يشعر بالفخر بعد أدائه فقرته الفنّيّة. كانت زوجته قد حصلت للتوّ على أفضل لذّة جماع لهما معا. اللذة القصوى. أقصى ارتفاع ممكن لمنحنى اللذة. فيما بعد سيكون من الصعب عليهما الوصول إلى قمّة لذّة تعلو تلك التي وصلا إليها معا هذه المرّة.

t.me/qurssan

عندما مالت دافنه برأسها على الحشية التي يريح النائم رأسه عليها، فكّ جيف قبضتيه عن عنقها بالتدريج. ثم انزاح عن جسدها إلى طرف الفراش ليتخذ وضع الجلوس. كان قد قذف على بطن زوجته. جلس يسترجع تفاصيل هذه اللذّة الفائقة التي بدت له كما لو كانت قد استمرّت فترة زمنية طويلة. تلك اللذّة التي ظلا متعلّقين بها كما لو كانا في المرحلة الفاصلة بين الحياة والموت. توجّه منهكًا إلى الحمّام. عند مروره أمام المرآة اكتشف أنه لا يزال محتفظًا بوجه القاتل. بدا له وجهه قبيحًا كما لو كان نذير شؤم. أعاد تشكيل عضلات وجهه ليستعيد ملامحه العادية. ملامح موظّف في مصلحة المساحة وقياس وتسجيل الملكيات العقارية. أراد أن يبتسم لنفسه. إمّا الآن أو أبدًا. الا أنه لم ينجح إلا في أن يحصل على اعوجاج فمه. فسّر ذلك على أساس شدّة شعوره بالإرهاق. سيشعر أنه أفضل عند حصوله على حمّام برشّاش الماء.

كان الحمّام هو الحل في استرداد النشاط. تولّد لديه الانطباع كما لو أنه يخرج من حلم. غسل أسنانه بالفرشاة ثم أضاف طبقة من بودرة التلك إلى جسمه كله من رأسه إلى قدميه. كان مستعدًا. لأي شيء؟ هو لا يعرف. لجولة جديدة. لا هذا سيكون ابتذالا وغثاثة وبذاءة. دفع باب حجرة النوم عن آخره. لم تكن دافنه في الفراش. ولا في الحجرة كلها. أطلق نداء باسمها في الممر المؤدّي إلى الطابق السفلي حيث توقّع أنها قد تكون هناك في دورة المياه. ثم عندما لم تجب عليه نزل إلى الطابق السفلي ليطرق بنفسه باب دورة المياه. هي لم تكن هناك. ألقى نظرة على المطبخ، ثم على الحديقة. في هذه اللحظة فقط، ولأنه لم يكن يفهم ماذا يحدث، تولّد لديه الإحساس بأن شيئًا خطيرًا قد وقع، أو أن هذا الشيء في سبيله إلى الوقوع. توقّع أن تكون قد أصيبت في الدورة الدموية الدماغية. قد يكون هذا قد حدث بسبب ضغطه الشديد على ذلك العنق الرقيق. لأنها بعد ذلك بدت كما لو كانت قد غرقت فجأة في النوم العميق. أو قد غرقت فجأة في استرخاء أحلام اللذّة التي تحقّقت لها. ربّما أنها كانت قد فقدت

t.me/qurssan

الوعي، ثم عندما استيقظت وهو في الحمّام كانت قد فقدت الذاكرة ولم تعد تعرف أين هي؟

مرّت كل هذه الأفكار برأسه كما لو كانت دوّامات بحرية تقوده إلى القاع. ارتدى ملابسه سريعًا وخرج للبحث عنها. أولاً في الحيّ الذي يسكنانه، في أركان شوارعه، وفي المداخل والأفنية الداخلية لعماراته، وفي حدائق فيللاته. ثم صعد إلى الشارع الرئيسي المؤدّي إلى محطة القطارات. ثم من هناك إلى شارع رئيسي آخر يقود إلى أحد الأحياء السكنية الجديدة. دار في الشوارع لمدة ثلاث ساعات بلا جدوى. هل كانت دافنه ترتدي قميص نومها؟ هل خرجت حافية القدمين؟ لو أن هذه هي الحقيقة فلا يمكن لها أن تبتعد كثيرًا دون أن يلاحظها الناس. عاد إلى محطة القطار وقد بدأ نور النهار في إضاءة صالات الانتظار في المحطة. كان المسافرون في القطار الأول في برنامج السفر لهذا اليوم ينتظرونه على رصيف المحطة. لكن لماذا يمكن أن تكون دافنه موجودة بينهم؟ إلى أين يمكنها أن تذهب؟

في نفس تلك اللحظة التي فكّر فيها أن يقدّم بلاغًا إلى الشرطة أثناء سيره في الشارع، حدث أن توقّفت إلى جواره سيّارة شرطة ونزل منها اثنان من ضبّاط الشرطة. في أقل من الوقت الذي يمكنه فيه أن يتكلّم كانا قد قاما بإحاطته ووضع القيود في يديه ودفعه إلى داخل السيّارة وتثبيته في مقعده والجلوس عن يمينه وعن يساره. تمّ إلقاء القبض عليه دون صرخة واحدة، بل حتى دون أن ينطق أحدٌ بكلمة واحدة، ودون حتى أي اعتراض من جانبه، ودون أي تهديد من جانب رَجُلَيْ الشرطة. عرف منهما على الفور أن دافنه كانت قد قدّمت بلاغًا ضدّه. وأنه في نفس هذه اللحظة يقوم أحد الأطبّاء بفحصها.

قال الشرطي (محاولة قتل).

قالها بطريقة توحي بأنه لا يوافق على اقتراف فعلة شبيهة إلا أنها توحي أيضًا بأنه لا يدين المتّهم. في قسم الشرطة مدّ الشرطي يده إلى جيف بكوب ورقي من القهوة قائلاً:

t.me/qurssan

ثم قال (إنه الموسم المناسب).

ولم يعرف جيف إن كان الشرطي يتكلم عن الموسم المناسب لاحتساء القهوة، أم عن الموسم المناسب لمحاولة قتل الزوجة. كانت القهوة زائدة السكر، وكان الشرطي يتكلّم برخاوة، سائلاً أسئلة لا ينتظر الوقت الكافي ليحصل لها على إجابات.

ثم قال (يمكنك أن تفترض أن حظّك كان طيّبا إذ ربّما كانت قد فقدت حياتها بفعلتك هذه. لكن خوفها منك هو الضرر الأكبر الذي تسبّبت أنت فيه. لكن فِعلتك هذه رغم كل شيء دنيئة جدًا وينبغي عليك أن تشرح لنا كل هذا).

قال جيف (أريد أن أرى زوجتي).

قال الشرطي ساخرًا وهو لا ينظر إلى جيف بل إلى الجهة الأخرى من الحجرة (لتنتهي هذه المرة من عملك على وجه أكمل).

كانت دافنه قد قامت بتأليف قصّة لا أساس لها من الصحّة. قالت لهم إنه منذ مدة وزواجهما مهدّد. قالت إن جيف كان غيورًا ومحبًا للتملّك والسيطرة. قالت إنه اعتاد على تجاوز حدوده معها فيما يتعلق بميله إلى استعمال العنف. وإنه كان قد ضربها في السابق مرّات عديدة. تمتلئ القصّة في تفاصيلها ببعض التصرّفات غير اللائقة. ادّعت دافنه أنها مرعوبة من استمرار زواجهما. وأن منزل الزوجية قد تحوّل إلى جحيم بالنسبة إليها. وأنها تخشى من الأسوأ الذي ربّما يكون في انتظارها. وأنها تعرف أنها تخاطر بحياتها. ادّعت أنه لم يخفِ عليها نيّته في قتلها. في المدينة تحوّلت القصّة إلى فضيحة. نشرت الجريدة المحلية صورة لجيف في مأدبة حيث قام بصنع وجه القاتل للمدعوّين. ترك الصحفي لنفسه حريّة الخيال. رسم صورة لوحش آدمي متعطّش للدماء. يتخفّى تحت قناع الموظّف المسلم. السادي الذي يجد لذّته في تعذيب الآخرين والأخريات الأكثر ضعفًا منه.

t.me/qurssan

وافقت دافنه على أن تصوّر برنامجا مع التلفزيون لمحاولة إرضاء جمهوره. لاحظ كل الناس أنها ما زالت تحمل حول عنقها آثار أصابعه العشرة. شاهد جيف الحلقة ولكنه لم يكن يرى في الأصابع العشرة سلاحًا لجريمة. لكنه ظل مبهوتًا لا يصدر صوتًا. لم يكن لديه حتى ردّ الفعل للدفاع عن النفس. نجح الشرطي في جعله يوقّع على ورقة يقرّ فيها أنه حتمًا كانت لديه النيّة لقتل زوجته. لكن دون أن يستطيع تحديد الدافع على اقترافه هذه الجريمة. ودون وجود أي دليل على وجود نيّة مسبقّة أو ما يعرف قضائيًا بسبق الإصرار. فيما يتعلق بالدافع بدأ الناس يتكلّمون عن نوبة جنون. كان هناك بعض الشك في إدمانه الخمور. شهد والداه في صالحه لكنهما والداه. وفي أسلوب كلاسيكي من الطراز الذي لم يعد يستعمل، قرّظ رئيسه في العمل صفاته كموظّف في إدارة المساحة وقياس الأراضي، وشهد بأنه كان موظّفا من النوع التقليدي الذي لا يتسبّب في أي مشاكل. ثم عبّر عن حزنه إذ يرى موظّفا مثله يحطّم مستقبله الوظيفي الواعد، ثم ختم شهادته مؤكّدا بشكل فلسفي (إن أفضل البشر يجهل بشكل عام ما يخبئه له القدر).

خلال جلسات نظر القضيّة كان من الواضح على دافنه أنها قد استفادت من خبرتها في الاحتكاك بالوسائط الإعلامية، في معرفة كيف تبدو جديرة بالاحترام ومعتدلة ومقنعة. كانت تردّ على الأسئلة بإجابات واضحة دون غضب. كما أنها بدت كريمة في مواجهة جيف عندما أعلنت أنها سامحته. ثم أدّت بإتقان تام وصلة من البكاء الحار والنحيب أعلنت خلالها أنها لا تزال تحبّه رغم الألم الذي تسبّب لها فيه. عند انتهاء الوصلة كانت صالة المحكمة كلها قد انخرطت في البكاء. حُكِمَ على جيف حكمًا مخفّفًا. لم يحاول أبدًا ولا للحظة واحدة أن يحتجّ على ما اتّهموه به. ادّعى محاموه أنه مكتئب. أنه ممتلئ بالأسف. لكنه غير مبال بالمصير الذي ينتظره. وأنه ينظر إلى الحكم بالسجن على أنه الثمن الحقّ الذي يجب أن يدفعه نظير جريمته. وأنه عندما استمع إلى النطق بالحكم شعر بالتخفّف من أثقاله.

t.me/qurssan

ثم إذا به وهو في السجن يستعيد ذكرى تلك الليلة الأخيرة مع دافنه. يستعيد منظره وهو يضغط بيديه حول عنقها. ثم بالتدريج لم يعد يستمع إلى صوتها وهي تطلب منه وتلحّ عليه أن يقتلها أو أن يقوم بتمثيل دور القاتل في جريمة قتلها. قيل من قِبَل البعض إنه يعيش حياة مزدوجة، ومن قِبَل البعض الآخر إنه شخصية مشوّهة غير سويّة. لم تنجح تلك الآراء في توضيح حقيقة ما يظنّه هو في نفسه. لكنه قرّر أنه من الأفضل له أن ينظر بعين الاعتبار إلى كل هذه الآراء. لم يستطع أن يمنع نفسه من التفكير في دافنه. دون حتى أن يعرف إن كان يلومها على تصرفاتها تلك. فقد عاشا معا ساعات من البهجة الجديرة بقصص الخرافات والجنيّات. كانت هذه الذكرى تعود إليه أحيانًا وهو في زنزانته. لم يكن يدفع هذه الذكرى بعيدًا عنه. لكنه في نفس الوقت لم يكن يسعى إلى تذكّرها. كان ببساطة يتقبّلها. هذه الذكرى كانت تقريبًا هي الشيء الوحيد المتبقّي لديه لما كان يعتقد أنه السعادة.

في الحقيقة هو استطاع أن يخرج من أزمته. هو لم يُحْرَم من حرّيّته لفترة طويلة. ثم إن أسرته كانت تدعمه. وكذلك فإن أصدقاءه لم يديروا له ظهورهم. كذلك فإن رئيسه في العمل – ولكن دون أن يتورّط في أن يعده بأشياء لن يستطيع أن يلتزم بتنفيذها – جدّد له ثقة إدارة مصلحة المساحة وقياس وتسجيل الأراضي فيه. بعد مرور ثلاثة أسابيع من النطق بالحكم، أعيد استدعاؤه إلى ردهة المرافعات. كانت دافنه هناك واقفة أمامه. شاهدته وهو يتقدّم نحو القاعة وقد تهدّل كتفاه. تقدّم وهو يضع يديه في جيبي بنطاله المهمّل. ظهرت عليه بشكل غامض ملامح الاضطراب عند رؤيته لها. بدا كما لو أن جسمه كله كان على وشك أن يهتزّ من الانفعال العاطفي. إلا أنه تماسك عندما شعر بأنه ليس من المشرّف له أن ينساق وراء اهتزازت الجسد العاطفية ويستسلم لها.

قالت له (أنت رائع يا جيف).

t.me/qurssan

لم يشك في صدق قولها. كان لا يزال يستطيع أن يقرأ عينيها. رأى في عينيها أنها لا تزال ترغب فيه. كانت هي مرتبكة فكرّرت نفس العبارة (أنت رائع). ثم قالت إنها لم تره أبدًا على هذا القدر من الجمال. وإنها لم تحبّه أبدًا بهذا القدر من القوة.

ثم غمغمت (بالإضافة إلى الديكور الذي نعود إلى اللقاء فيه، هنا في ردهة قاعة المرافعات. كم تبدو حقيقيا هنا الآن).

هو لم يكن أبدًا واثقًا تمامًا من أي شيء. لكنه هذه المرّة هو متأكّد أنه يشعر بالسعادة لرؤيته لها مجدّدا. ثم إنه يعرف منها شخصيًا عبر الكلام المنطوق من فمها أنها تجده رائعًا. وأنها لا تزال تحبّه. لأن هذا هو ما تقوله له الآن. في لحظة واحدة وبفضل بعض الكلمات التي غمغمت بها، شعر كأن الحجز في المحبس ليس إلا جنّة يعمّها الخير والسلام. كما لو كان هو المسرح الذي تدور عليه كل الآمال والأحلام. أحس بأنه في أفضل حال. في تناسق وانسجام تام مع هذا المكان. ومع نفسه. وفي تواصل مع دافنه.

(بفضلك يا جيف عشت أفضل أيام حياتي. كل مساء أشكر السماء على أنها سمحت لي بمقابلتك. أنا أحبّك. لم أشعر أبدًا من قبل أنني كنت قد أحببتك بهذا المقدار).

كان هذا فوق الخيال. كانت متحمّسة جدًا. شعر هو بأنها تتحدّث بانفعال وعصبية زائدة عن الحدّ. فاقدة الصبر. محمومة.

قال (أريد أن أسألك سؤالاً).

قالت (اسأل كل ما تريد يا حبيبي).

(لماذا قلتِ في المحكمة إنني كنت أريد قتلك؟ في حين أنك كنتِ تعرفين جيدا أنني ما فعلت هذا إلا بسبب إصرارك عليه، وأنني لم أفعل أكثر من إطاعة رغبتك فقط لإرضائك).

t.me/qurssan

(لقد أردت يا جيف أن أستمر في الاعتقاد أنك فعلاً أردت أن تقتلني. وأن أستمر في لعب دور الضحيّة. أنت تفهم هذا. لو لم تكن قاتلاً لما أحببتك بهذا القدر. أحتاج إلى أن أشعر بأنك تمثّل خطرًا وتهديدًا لي. هذا هو أكثر ما يعجبني ويرضيني).

قال بصوت يبدو فيه أنه لم يعد مقتنعا بكلامها هذا بنفس قدر اقتناعه به سابقا (أنت ترين إلى أين قادتني نزواتك).

(ليست نزواتي وحدها يا جيف، بل هناك قبل أي شيء آخر ميلك للعنف، وغيرتك عليّ، بل يمكنني أن أقول شذوذك ونقائصك، هذه هي الأسباب الحقيقية لكونك الآن محبوسًا. لكني أحبّك هكذا يا جيف على ما أنت عليه. وسآخذك كما أنت الآن على علاتك. لا تغيّر أي شيء في طباعك. سأنتظر نهاية مدّة حبسك. وسآتي لزيارتك كل أسبوع. وعندما تخرج من الحبس أعتقد أنه سيكون هناك انفجار بركاني أو زلزال أرضي. عندها لن نغادر الفراش لمدة أسبوعين. كم أشتاق إلي يديك موضوعتين حول عنقي. أنا أفتقد وجودك معي).

كانت ابتسامة دافئة مشعّة. أسرّت إليه بأنها قامت بجمع كل المقالات التي ظهرت عنهما في الصحف، واحتفظت بتسجيلات على شرائط فيديو لكل البرامج التلفزيونية التي تحدّثت عنهما. قالت إنها ملأت جدران حجرة نومهما بالصور الفوتوغرافية المكبّرة لجلسات المحاكمة. كانت تتحدّث عن المستقبل كما لو أنها تتحدّث عن رحلة إلى الجنّة.

قالت بأسلوب خطابي رنّان (أنا معك وسأساعدك، ويمكنك أن تعتمد عليّ. توبة قاتل يمكنه أن يكون مشروع العمر كله. إعادة اندماج مجرم في المجتمع، يا له من تحدٍ رائع. اعتمد عليّ يا جيف).

لم يجرؤ على معارضتها. حيث إنها لا تريد إلا الخير له. شكرها. كان لا يزال يحبها بشدّة. كان حبّه لها حقيقة مؤكّدة تدفئ قلبه حتى أعمق نقطة فيه. مع ذلك فقد وجد الشجاعة على الاعتراف لنفسه بأن هناك ما

t.me/qurssan

يحيّره. كانت لا تزال واقفة أمامه عندما نظر إليها وثبّت عينيه في عينيها. وبصوت أراد له أن يكون واثقًا نبّهها قائلاً:

(أنا سعيد بأنك قد قلتِ لي كل ما قلتِه لي يا دافنه. لكن يجب عليّ أن أنبّهك على الفور. إلى أنه لا يحق لك أن تعتمدي عليّ مجدّدا في أن أصنع لك من وجهي وجه القاتل).

لاحظ أن هذا القرار لم يدهشها. إذ حرّكت رأسها برخاوة بتلك الطريقة التي يحبّها فيها والتي تدل على الموافقة. لكنها تفرّست في وجهه بشراهة ونهم، ثم قالت له:

(لم يعد هناك ما يدعو إلى ذلك يا عزيزي جيف. إذ يكفي الآن أن أنظر إلى وجهك في أي وقت لأرى وجه القاتل. لم أعد أحتاج إلى أن تصنعه لي. هو هنا الآن طول الوقت).

t.me/qurssan

المترجم

عادل اسعد الميري

- المولود في طنطا ١٩٥٣.
- بكالوريوس طب من جامعة عين شمس،طبيب، ومترجم، وروائي ١٩٨٠.
- ترخيص إرشاد سياحي، وممارسة المهنة عشرين عامًا ١٩٨٤.
- دبلوم في الأدب الفرنسي من السوربون ١٩٩٤.
- دبلوم كلية الآثار قسم مصري ١٩٩٧.
- دبلوم كلية الآثار قسم إسلامي ١٩٩٠.
- العمل في تدريس اللغة العربية للأجانب ستة أعوام ٢٠٠٢.
- صدر له:
- كتاب في أدب الرحلات بعنوان (تأمّلات جوّال) ٢٠٠٦.
- كتاب في أدب الرحلات بعنوان (تسكّع) ٢٠٠٨.

رواية (كل أحذيتي ضيّقة)٢٠١٠، رواية (لم أعد آكل المارون جلاسيه) ٢٠١١، رواية (فخ البراءة) ٢٠١٣، رواية (بلاد الفرنجة) ٢٠١٤، رواية (شارع الهرم/ ذكريات) ٢٠١٥، رواية (ألوان الطيف) ٢٠١٦.

بالإضافة الى ترجمات عن الفرنسية والانجليزية :

(الفن المصري/ دراسة) ٢٠٠٨، (قاموس عاشق لمصر/ مقالات) ٢٠١١، (زجاج مكسور/ رواية) ٢٠١٢، (أسطورة المسيحية/ دراسة) ٢٠١٤، (الأصول المصرية للديانة المسيحية/ دراسة) ٢٠١٥، (نصوص التوراة/ دراسة) ٢٠١٧. (المغامرة/ رواية) ٢٠١٧.

t.me/qurssan

الفهرس

١ ـ حانة العادات ٧
٢ ـ حلم رديء ١٧
٣ ـ حلّ عليّ الدور ٢٩
٤ ـ فطيرة مستديرة باللحم (أو الأبله) ٣٩
٥ ـ تاريخ انتهاء الصلاحية ٥١
٦ ـ حكاية رخوة ٦٣
٧ ـ ذكرى فريد ٧٣
٨ ـ مسيرة بلا أخطاء ٨١
٩ ـ ليلي ٩٩
١٠ ـ لاعب رديء ١١١
١١ ـ قاتل تسلسلي ١٢٣
١٢ ـ الوصيّة السادسة ١٤١
١٣ ـ في القطار ١٥٣
١٤ ـ وصيّة رجل محبوب زيادة عن اللزوم ١٧٣
١٥ ـ جار مرعب مخيف ١٨٩
١٦ ـ وجه القاتل ٢٠٩

t.me/qurssan

لم يضع المؤلف على غلاف عمله باللغة الفرنسية كلمة (رواية). كما أنه لم يضع حتى كلمتي "مجموعة قصصية". فالعمل يجمع بين خصائص كل من هذين الشكلين الأدبيين. قد يكون من المناسب هنا استعمال تعبير "متوالية قصصية" الذي سبق واستعمله عدد من المؤلفين المصريين والفرنسيين.. مجموعة من القصص المنفصلة التي يربط بينها عنصر واحد على الأقل. المؤلف هنا يحكي لنا ست عشرة قصة تدور أحداث أغلبها في حانات. لكن أبطال هذه القصص الست عشرة مختلفون. فهو في كل قصة جديدة يقدّم لنا بطلاً جديدًا. كأن البطل الحقيقي في هذا العمل هو المكان. مع ملاحظة أهمية هذه الأماكن في المجتمع الفرنسي المعاصر، فهي أكثر أهمية من المقاهي في مصر، وذلك لأنها غالبًا تجمع بين الرجال والنساء. حانات فرنسا أقرب الى الأندية الثقافية الاجتماعية. الحانات في المدن والقرى الفرنسية، تطلق عليها أسماء عديدة، منها البار اذا كان المكان يكتفي بتقديم المشروبات، أو البيسترو إذا كان يجمع بين المشروبات والمأكولات الخفيفة، أو البراسيري إذا كان المكان يقدّم تشكيلة كبيرة من الوجبات. هذه هي أماكن التجمّع التقليدية للرجال والنساء، خصوصًا في الفترة المسائية، من كل الأعمار والطبقات الاجتماعية، والانتماءات الثقافية والوظيفية. لذلك فإن النماذج البشرية التي قدّمها المؤلف في عمله هذا معبّرة بشكل نموذجي، عن التركيبة الوظيفية والاجتماعية والثقافية للمجتمع الفرنسي الحالي، من أكثر الطبقات عوزًا واحتياجًا، طبقة الاس دي إف SDF، أي أولئك الذين ليست لديهم مقرّات إقامة ثابتة، إلى طبقة الأثرياء الذين يقضون إجازاتهم السنوية في أماكن سياحية تطير اليها الطائرات خلال عشر ساعات أو أكثر. هذا العمل يقدّم لنا كذلك دراسة نفسية ثرية عن الصراعات التي تدور داخل نفوس الفرنسيين، أو تدور بين بعضهم البعض، بما يتضمّن كذلك الكثير من النقد الاجتماعي، لممارسات خاطئة يتمسّك بها الفرنسيون. كما أن لبعض هذه القصص دلالات فلسفية، مثل أن الانسان لا يختار أي شيء في حياته.

الكاتب: فرانز بارتل، كاتب فرنسي.
الجائزة: جائزة الجونكور عام 2006.

تصميم الغلاف: د. هند سمير

t.me/qurssan